دكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي

تاريخ الدولة المغولية في إيران



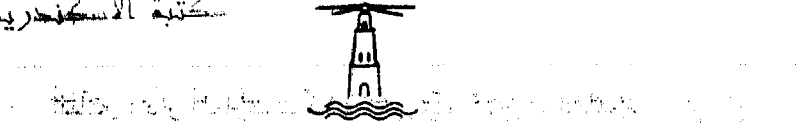
دار المعارف

إلى الأستاذ الدكتور والأخ الأكبر
الأستاذ الدكتور مصطفى الصاوي الجويني
مع تحياتي واحترامي
عبد السلام
١٩٨١/٤/٦

تاريخ الدولة المغولية في إيران

دكتور
عبد السلام عبد العزيز فهمي
أستاذ الدراسات الشرقية المساعد
جامعة عين شمس

١٩٨١



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ج. م. ع

مقدمة

تعرضت ايران لحملة مدمرة قدمت من الشرق ـ من منغوليا ـ على شكل جحافل بدوية وثنية متعطشة لسفك الدماء وتدمير ما تصادفه أمامها ، فكانت حملة مدمرة لم تحدث فى تاريخ البشرية من قبل ٠

جاء المغول بقيادة چنكيز خان وهاجموا البلاد الاسلامية ، وكانت مدينة أوترار مفتاح اقليم ما وراء النهر أولى بلدان الدولة الخوارزمية التى تعرضت للغزو المغولى فى سنة ٦١٦ هجرية ، تبعه سيل جارف من المذابح استمر سنوات طويلة أتوا فيها على كل شىء صادفوه من انسان وجماد وحيوان ٠

وواجهت القوى الاسلامية المفككة فى ذلك الحين والممثلة فى الدولة الخوارزمية وبقايا دويلات السلاجقة والخلافة العباسية المغول بطريقة غير منظمة وفزع شديد لما سمعوه عن فظائعهم وما ارتكبوه من جرائم نزلت على اخوانهم فى الدين والعقيدة ، فأصيبوا بصدمات متتالية أتت على كل شىء ، بحيث يمكن القول أن ما شيده المسلمون طوال القرون الستة من عمران وحضارة وتراث دمره هؤلاء القوم البرابرة بوحشية بالغة ، وتركوا المدن الاسلامية التى كانت فى يوم قريب مزدهرة تدب فيها الحياة الآمنة خاوية على عروشها واندثرت مدن متعددة بحيث لم يبق منها سوى الاسم فقط ٠

وكان استيلاء المغول على البلاد الاسلامية ـ وايران خاصة ـ قد تم على مرحلتين ، الأولى كانت بقيادة چنكيز خان مؤسس الدولة المغولية الذى تمكن من تحطيم الدولة الخوارزمية وتقويض بنائها وهى التى كانت تحكم ما وراء النهر وخوارزم وأجزاء من خراسان وغرب ايران ، فخضعت خراسان فى عهد چنكيز خان دون سواها من المناطق الايرانية للسيطرة المغولية ٠

وتصور الحكام المسلمون أن المغول انما قاموا بغارة للسلب والنهب

ليس أكثر ، وأنهم سيعودون الى بلادهم بعد ذلك ٠ وكان الحكام المسلمون فى حالة من الضعف لا تمكنهم من مواجهة المغول لا لشيء الا لما كان بينهم من خلافات ومشاحنات لدرجة أنهم كانوا يفرحون عندما يهزم أحدهم ويشمتون فيه ٠ وقد ذكرت كتب التاريخ بعضاً من هذه النوادر منها أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) اتصل سرا بالمغول يحرضهم على الاسماعيلية ووافاهم بخرائط كاملة لمواقعهم ٠

أما المرحلة الثانية فتمت على يد هولاكو خان حفيد جنكيز خان مؤسس الامبراطورية المغولية ، ذلك أن أخاه الخاقان قوبيلاى كلفه بفتح بلاد فارس والجزيرة والشام ومصر ان أمكن ذلك ٠ وأمده بجيوش مدربة وقيادة عسكرية واعية أشرف بنفسه عليها ، ومنحه حكم المناطق الغربية من الامبراطورية المغولية له ولخلفائه من بعده ، يضاف اليها ما يفتحه من مناطق جديدة ٠ وقام هولاكو خان بالمهمة خير قيام ، قضى فيها على قلاع الاسماعيلية وأباد الشعب الاسماعيلى ، وتقدم نحو بغداد واستولى عليها ، وقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسى حكم فى بغداد ، وقضى بذلك على الخلافة العباسية ٠ ثم زحف الى الشام واستولى على حلب ودمشق وأطاح بالحكم الأيوبى فى بلاد الشام ، وامتدت فتوحاته فشملت آسيا الصغرى التى كان يحكمها فرع سلجوقى يعرف باسم « سلاجقة الروم » ، وامتد نفوذ المغول فشمل بلاد البلغار وشرقى أوروبا ، ولم يوقفهم عند حدهم الا المماليك حكام مصر الذين هزموا المغول هزيمة منكرة فى وقعة « عين جالوت » بين بيسان ونابلس فى فلسطين ، ولم يدخل المغول مصر وان كانت سياسة مصر تأثرت بهؤلاء القوم فيما بعد تأثرا كبيراً ٠

وبعد وفاة هولاكو خان خلفه ابنه أباقا ، وحصل من الخاقان فى خانبالق (پكين الحالية) على موافقة بحكم ما كان تحت سيطرة أبيه من قبل ، فتأسست فى ايران دولة جديدة فى ظل النظام الجديد ، عرفت باسم « الدولة الايلخانية »(١) ٠ وقامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الخوارزمية والخلافة

---

(١) ايلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين ، هما : ايل وخان ٠ وايل لفظ تركى بمعنى تابع ، وخان بمعنى حاكم وملك ورئيس عشيرة ٠ وبذلك

العباسية وبعض الدويلات الاسلامية الأخرى التى هادنت المغول وقدموا لهم الطاعة والولاء مثل ما حدث من آل كرت فى هراة والأتابك سعد بن زنكى فى فارس ، فشملت الدولة الايلخانية خراسان وبلاد الجبل وفارس وكرمان وما بين النهرين (العراق) وآسيا الصغرى ، وجزءا من بلاد الشام الى فترة محدودة .

واستمرت الدولة الايلخانية تحكم تلك المناطق مدة قرن من الزمان الى أن انقرضت فى سنة ٧٥٦ هجرية ، بعد أن شاخت بالسرعة التى قامت بها ، وأيضا بسبب الصراع بين الأمراء المغول وقادة الجيش ورؤساء القبائل والعشائر المغولية والتترية .

والفترة التاريخية التى نستعرضها تعد من أخطر فترات تاريخ ايران وأكثرها اضطرابا وأشدها فتكا وايلاما بالنسبة للشعب الايرانى نتيجة ما ارتكبه المغول من مجازر ومذابح وتدمير ولم يوقفهم عند حدهم الا اسلامهم الذى هذب من نفوسهم فتحضروا وهدأت نفوسهم وتركوا قوانينهم وعاداتهم المغولية واتبعوا الشريعة الاسلامية وخالطوا المسلمين واتخذوهم أصدقاءا وأعوانا ودخلوا بلاطهم ومجالسهم بعد أن كان ذلك محرما عليهم . ثم انهم قلدوا الايرانيين فى حضارتهم واقتبسوا منهم أشياء كثيرة ، وبعدوا عن بنى جلدتهم فى منغوليا والصين الذين انتشرت بينهم البوذية وانخرطوا فى الحضارة الصينية وثقافتها ، حتى أننا نجدهم مغولا شكلا ، فرسا حضارة وثقافة . كذلك نجد بعض ملوكهم قد تعصب للاسلام واعتبر نفسه حاميا له مدافعا عنه مقربا رجال الدين الاسلامى له ويؤثرهم على غيرهم من رجال بلاطه بعد أن كان وثنيا مغوليا قلبا وقالبا .

وعرضت أحداث الدولة المغولية فى ايران بطريقة مبسطة وواضحة

=
يكون معنى ايلخان ، الملك التابع أى حاكم احدى الولايات فى الدولة ويتبع الخاقان (الخان الأعظم) الذى يحكم الدولة كلها . وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو خان ابتداء من أباقا عندما أسند اليهم حكم ايران ، ثم ألصق بحكام المغول فى ايران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم ، وأطلق اسم « الدولة الايلخانية » علي البلاد الايرانية التي حكموها .

مستعينا على ذلك بمصادر فارسية وعربية وأوروبية متخصصة وحاولت أن أوفق بينها واستخلص الحقائق التاريخية منها وتحليلها ٠ وأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد أصابنى التوفيق فى هذا العمل الذى أقدمه ، وأطمع أن تنال تلك الفترة التاريخية من تاريخ الشعوب الاسلامية من الدراسة والاهتمام ما هى جديرة به لأن التاريخ الاسلامى سلسلة متصلة الحلقات ، وحسبى الله هو نعم المولى ونعم النصير ٠

دكتور عبد السلام عبد العزيز فهمى
أستاذ الدراسات الشرقية المساعد
بجامعة عين شمس

القاهرة فى أول أبريل ١٩٨٠

الباب الأول

الفصل الأول

المغـــــــول :

نبـدأ الحـديث بالرد على ما يجول فى خواطرنا وهى أسئلة تقليـدية تتبـادر الى الذهن من أول وهـلة عن المغـول · من هم طوائف المغـول ؟ ، وما أصل هؤلاء ؟ ، وما هى سابقة حضارتهم ؟ ، ومن أين جاءوا ؟ ، ولمـاذا استولوا على ايران وعادوا الاسلام ؟ ····

ان الجواب على هذه الأسئلة سيوصلنا الى حقيقة هؤلاء القوم ·

المغول شعب بدوى ينقسم الى عدد من الطوائف والقبائل عديدة تسكن اقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية · وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة ، بل كانت قبائل نصف وحشية ، ولم تكن لهم سابقة بمدنية وحضارة · ولشدة بداوتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسـكة من ناحية الجنس واللغـــة ، ويرأسها رئيس يحمل لقب« نويان » تطيعـه وتأتمر بأمره ، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب اليها التعقيد ، وكانوا يقضـون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشب والكلأ ·

لقـد حاول كثير من المؤرخين تتبع الأحـــداث الداخلية والحـــروب والمشاحنات التى كانت تنشب دائما بين القبائل المغولية حتى يصلوا الى شعاع يضىء الطريق أمامهم ، ولكنها كانت آخر الأمر واهية لا ترشد الباحث فى كتابة موضوع متكامل عن المغول · ومع ذلك فان هناك مصادر كثيرة عن تاريخ المغول بعضها دون باللغة الصينية والبعض الآخر بالفارسية وأيضا باللاتينية أو غيرها من اللغات كالعربية مثلا لكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل المغولية ، خاصة التاريخ المبكر للمغول ، وان كانت آخـر

الأمر تعرض سلسلة من المعلومات الناقصة أو المتناقضة التى تعوزها الدقة فى نفس الوقت ٠

ولا شك أن المعلومات عن المغول قبل قيام دولتهم على يد چنكيز خان تبدو جوهرية حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للامبراطورية المغولية ، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى ، فليس من المتصور أن يخرج چنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس امبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء ، والا لما وصلوا الى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك ٠ ان المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك ـ جيرانهم ـ والايرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة فى القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة ، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التى انضوت تحت لوائه بحث فى أصل هؤلاء وكتب عنهم ٠ ومن حسن الحظ أن مؤرخا ايرانيا كان له سبق الفضل فى مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى » ، الذى شغل منصب الوزارة لعدد من ايلخانات المغول فى ايران ، وكتابه « جامع التواريخ » الذى دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية (١٣١٠م) فيه الشىء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها ٠

ان كتاب « جامع التواريخ » يقع فى مجلدين كبيرين ، طبع منهما المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد « أوكتاى قا آن » حتى هولاكو خان بمدينة ليدن عام ١٩١١م ضمن مجموعة « جب التذكارية » بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه ، وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسى كاتر مير ، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠ ٠ كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة فى دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة ٠

وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب فى التاريخ ـ لشغفهم الزائد بهذا الفن ـ يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى

الامبراطورية المغولية ، أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين الى الافرنج (سكان أوروبا الغربية) • ونفـذ بعض هـذا العمل ، وكلف القيام به خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى الذى كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه فى هـذا العمل الخطير رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذى من كشمير ومجموعة من علماء ايران وأدبائها • وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من رواتها بدون تغيير ، وعلى ذلك فليس كتابه من هـذه الوجهة تاريخا علميا بالمعنى المفهوم فى العصر الحديث ، الا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته • وقـد قام أستاذنا العلامة الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد بدراسة شخصية رشيد الدين فضـل اللـه وكتابه « جامع التواريخ » وأخرج لنـا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغـول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا فى المكتبة العربية •

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والافرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن ، سنتعرض لها فى حينها وفى موضعها •

وطن القبـائل المغـولية :

كانت القبائل المغولية تعيش فى مستهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى هضبة منغوليا ، الواقعة شمال صحراء جوبى بين بحـيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان على حدود منشوريا فى الشرق ، وتكون الجبال المحيطة بها والتى أشهرها جبال خنجان حاجزاً منيعاً بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبريا ، وكانت القبـائل المغولية فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا الى بحيرة بايكال شمالا • وفى الجنوب الشرقى لهضبة منغوليا ، تقع صحراء جوبى التى ليست سوى سـهل متسع مسطح أو متموج ، تغطيه طبقة من الحصباء شـديدة الصلابة ، اذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار • وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد الا فى أماكن متفرقة •

ان الظروف القاسية أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ،

وأن ينتقلوا من مكان الى آخر سعياً وراء الكلأ • وقـد امتاز الشعب المغولى ، كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين ، حتى أننـا نجـد المغولى يكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة • وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسـكن بعض السهول الخصبة أحيانا ، الا أنهم لم يحاولوا زراعتها بل كانوا يهاجرون فى فصل الصيف من السهول الى جبال ، ولا يتركونها الا اذا انعـدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع قطعانهم •

ومع ذلك كانت توجد مناطق آهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها ، ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضارى على درجات متفاوته ، وأهم منطقتين يقطنهما المغـول همـا :

١ ـ حوض بحيرة « بالخاش Balkhache » ويوجد فى وسطه جبال « تيان شان Thian - Chan » و « كوين لن Kuen - Lun » وهضبة التبت وبحيرة آرال ، ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأتراك •

٢ ـ البلاد الواقعـة بين جبـال « سـايان Saian » و « آلتـاى Altai » و « خينكان Khingan » • وتعـد من الناحية الجغرافية من أقسى النواحى معيشة فى كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية ، وتعيش فيها طوائف من الجنس الأصفر من المغول والتتار •

منـاخ هضـبة منغوليـا :

يعـد مناخ هضبة منغوليا قاس ، بل شديد القسـاوة يندر وجوده فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة والبرودة ، وفى جفـافه الشديد ، وفى قوة الرياح العاصفة التى لا حد لها • أما البرودة ، فهى الغالبة فى معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء اذ يتجمد المـاء فى المنخفضات حتى شهر مايو من كل عام ، ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب فى شهـر أغسطس • كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى ، وتبلغ الحرارة فى فصل الشتاء فى بعض الجهات ٥٨ درجة تحت الصفر ، وفى فصل الصيف القصير تبلغ درجة الحرارة أحيانا ٦٠ درجة مئوية •

ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح تهب فى معظم أيام السنة شديدة عاتية ، حتى أنها تحمل معها الحصى وتنقله الى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة • ويشهد على قسوة هـذا المناخ كل من زار منغوليا منذ أقـدم العصور ، يقول المؤرخ هوارث : « ان المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال واحد حتى فى أواسط الصيف ، وأن الرعد والبرق الذى يؤدى بحيـاة الكثيرين لا يكاد ينقطع ، والثلج يسقط بكميات وفـيرة ، والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب الى حـد يصعب معها بقاء الرجل على سرجه »(١) •

وعلى ذلك فان الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا قـد جعلتا منـه اقليما قفرا لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنهـا الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف ، علاوة على البرودة الزائدة فى فصل الشتاء •

* * *

نأتى بعـد ذلك الى ذكر أشهر طوائف المغول التى شاركت فى القتال مع جنكيز خان وساهمت فى تأسيس الامبراطورية المغولية ، نجـد أن هـذه الطوائف تشمل الآتى :

١ ــ قيات : وهى قبيلة جنكيز خان وكانت صغيرة العدد غير متشعبة ، ولد ونشأ فيها مؤسس الامبراطورية المغولية ، وكان والده « يسوكاى بهادر » رئيس وخان تلك القبيلة ، وكانت تدين بالوثنية ، وبرغم قلة عدد أفرادها الا أنها تبوأت مكاناً مرموقاً بين القبائل والطوائف المغـولية بعـد ظهـور جنكيز خان وقيادته الشعب المغـولى •

٢ ــ أويرات Oirat : وكانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة ما بين نهر « أونن Onon » وبحيرة باكيال ، ويسكنون منطقة منابع ينسى (سه كيز موره ن) (أى الأنهـار الثمـانية)(٢) وكانوا كثيرى العـدد ، ويتكلمون بلغة تختلف قليلا عن لغة القبائل والطوائف المغولة الأخرى •

---

(١) Howorth : History of the Mongols, Vol. IV, P. 14-27.

(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمـة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ١٥٢ •

وقــد تشعبوا الى عــدة شعب ، الا أنهم كانوا يأتمرون بأمر ملك واحــد ، ولـمـا جاء جنكيز خان خالفوه بعض الشيء في البداية ، وناصبوه العداء ، الا أنـهم سرعان ما قدموا له فروض الطـاعة والخضوع وقـد صاهرهم جنكيز خان فيما بعــد ٠

٣ ـ النايمان : وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى ، وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر « أرخـون » ، وسفوح جبال آلتـاى ، وحول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق ، ويملكون كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نـهر أورخون الى نهر ايرتيش ٠ وكانوا بدوا رحل يقيم بعضهم فى مناطق الجبـال الوعـرة ، والبعض الآخر فى الصحارى ، وهم يدينـــون بالمسيحية التى وردت اليهم عن طريق النساطرة من بلاد الشام ، وقـد استعار النايمان مبادىء ثقافتهم من الأتراك الأويغوريين جيرانهم فى الجنوب ٠ ويعـد النايمان أرقى أنواع الترك ثقافة فى ذلك الوقت ، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية ٠

وكان للنايمان ملوك أصحاب شهرة ونفـوذ قوى ، ولهم جيوش كثيرة ، وكانوا رغم تركيتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغـــول ، ويطلق على ملوكهم لقب « كوچلوك خـان » أو « بويروق خـان » ، ومعنى كوچلوك الملك المعظم والقـوى ، أما « بويروق » فمعناه « معطى الأمر » ومع ذلك فقــد كان لكل ملك نايمانى اسم أصلى آخـر يختاره له أبواه ٠

٤ ـ الكرايت Kerait : وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة فى صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم ، وهم شعب شبه بدوى ينتمى الى أصول تركية ، وكانوا يدينون بالمسيحية ٠ وفى أوائل القرن الحـــادى عشر الميلادى تحول ملكهم ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على المـذهب النســطورى ، وأدى تحول الكرايت الى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك الأويغور ، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة ، فامتدت مدنيتهم الى الكرايت ٠ وقـد ظلت قبائل الكرايت منـــذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحـادى عشر والثانى عشر الميلاديين) أقوى قبـائل المغول ، واستطاعوا اخضـاع أغلب الطوائف المجاورة لهم ٠

وتذكر الروايات التاريخية أن ملك الكرايبيت اعتنــق الدين المسيحى فى سنــة ٤٣٨هـ (١٠٠٧م) وأنه قــد ذاع أمـــره فى أوروبا ، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم .

وحوالى سنة ١٢٧٠م مات « كور ياكوس بن مير جوز خان » خان الكرايبيت ، وصادف ابنه طغول بعض العقوبات فى الاستحواذ على ملكه ازاء معارضة اخوته وأعمامه ، على أنه ظفر فى حروبه على اخوته وأقـاربه بمساعدة « يسوكاى بهادر » والد چنكيز خان الذى صار له بحكم ماتعاهدا عليه وأقسما من يمين . كذلك استطاع أن يهـــزم التتار تلبية لرغبة بلاط « كين » الصينى . وبهذا صار طغرل أقوى ملك ورئيس قبيلة فى منغوليـا وقـد منحه امبراطور كين ـ تقديرا له على خدماته وأعماله ـ اللقب الصينى للملك وهـو « وانج Wang » ، وعرف طغول هذا فى التاريخ بلقبيـه الملكيين الصينى والتركى وهما « وانج خان » .

٥ ـ المركييت Markit : وهم من المغول ، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكرايبيت على مجرى نهر « سلنجا » وجنوبى بحيرة بايكال . وكان لهم جيش قوى ذو بأس شـديد ، وعرف عن هؤلاء القـوم ميلهم الى الشغب واثارة الفتن . ولهذا شن عليهم چنكيز خان حربا شعواء استعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة ، ولم يقف عند هـذا الحد ، بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعا ، فلم ينج من سيوف قوات چنكيز خان الا القليل . وذكر خواجه رشيد الدين فضل الله هـذه الواقعة فى كتابه « جامع التواريخ » وقال ما ترجمته : « لم ينج من سيوفهم (أى سيوف جنـود چنكيز خان) الا بعض الهاربين ، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم ، أو من كانوا لا يزالون أجنة فى بطون أمهاتهم » .(٣) وذكر العلامة القزوينى نقلا عن صاحب كتاب « جامع برزين » أن شعب المركييت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير »(٤) .

---

(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، المجـلد الأول ، تحقيق بهمن كريمى ، ص ٧٣ .

(٤) محمد عبد الوهاب القزوينى : ياد داشتهاى قزوينى ، المجـلد =

٦ ــ التتار : وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة ، ويتشعبون الى شعب كثيرة ، أحرزت شهرة كبيرة ، حتى أن الكثير من المؤرخين يطلقون اسم « تتار » على كافة المغول • وكان التتار يقطنون المنطقة التى تحد شمالا بنهرى « أرخون » و « سلنجا Selenga » ومملكة القرغيز، وشرقا باقليم الخطأ (الصين الشمالية) وغربا بممالك الأويغور ، وجنوبا باقليم التبت • وبصفة عامة يعيشون فى الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى « كيرولين Kerulen » وكانوا على صلة بالمسلمين ، كما كان من بينهم مسلمون • وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا فى أقاليم آسيا الشمالية • ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما ، وأنهم كانوا أثرياء(٥) •

وقبيل ظهور جنكيز خان على مسرح السياسة الدولية استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية ، وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها وأهميتها كانوا يتسمون بالتتر ، فأطلق على الجميع اسم « تاتار » أو « تتر » ، يقول رشيد الدين فضل الله : « انه لهذا السبب لا زال حتى الآن فى بلاد الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والباشقر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم « تاتار » على أقوام الأتراك »(٦) •

ويعلق بارتولد على ما ذكره رشيد الدين فضل الله عما ذكره عن التتار أنه لم يكن يعرف شيئا عن استعمال ومدلول كلمة التتر قبل العهد المغولى ،

=

السادس ، يقول القزوينى نقلا عن صاحب كتاب «جامع برزين» مايلى : «قوم مركيت هر چند ازقوم مغول على حده بودند ليكن قوى حال ومعظم بودند » ، ص ٥٢ •

(٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ٦١ •

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ •

فهو يتحدث عن التتر كما لو كان شعبا مستقلا ومنفصلا متميزا عن المغول(٧) .

وبظهور جنكيز خان على مسرح السياسة الدولية بدأ صراع التتار يهدأ . ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من ألد أعدائهم ويناصرون القبائل الثائرة عليهم ، كان جنكيز خان ينظر اليهم بحذر بالغ على أنهم ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده . فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له ، تفرغ للتتار ، وكان جنكيز خان مدفوعا بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم ، فقام ومعه جنوده بالاجهاز عليهم واستئصال شأفتهم ، وأصدر أمرا قاطعا بألا يترك واحد منهمعلى قيد الحياة . وتنفيذا لهذا القرار صار جنود المغول يقتلون كل ما هو تترى حتى النساء والأطفال ، ويشقون بطون الحبالى اعتقادا منهم أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد الذى كان متوارثا عند المغول . ولم يقف جنكيز خان عندهذا الحد ، بل انه لم يترك فرصة لأى شخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول اخفاءهم . ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة ، فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار ، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم(٨) .

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول ، ولكن من الغريب انه على أثر انتصار جنكيز خان على التتار ، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه ، وفى بدء هجوم المغول على الممالك الاسلامية كانوا يعرفون بالتتار ، كما أطلق اسم « المغول » و « مغل » فاشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين . كما عرف المغول الذين فتحوا الصين باسم التتر أيضا (تاتا) بالصينية . كذلك أطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف جنكيز خان ويقول عنهم فى كتابه الكامل أنهم تتر . وللتتر لهجة مغولية خاصة أدركها محمود الكاشغرى وتحدث عنها فى معجمه « ديوان لغات الترك » ، وذكر اختلاف اللغة التترية

---

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد التاسع ، العدد ٦٨ ، مادة تتار ، ص ٢١١ .

(٨) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ مرجع سابق ، ص ٦٢ و ٦٣ .

عن اللغة التركية ، ويعنى بذلك اختلاف المغولية عن التترية والتركية(٩) ٠

وكان يجاور المغول طوائف من الترك يعيشـــون حيـــاة بدائيـــة أشبه بحياة المغــول ، نذكر منهم :

١ ـ الأتراك الأويغوريون : وكانوا يسكنون المنطقة الواقعـة شمال شرقى التركستان الحالية ٠ وتذكر الروايات التاريخية ، وهى أشبه بالأساطير أن أوغوز أبا الترك كان يؤمن بالله ويدين بالوحدانية ، ولكن أباه وأعمامه كانوا كفارا فنازعوه عقيدته ، وقاموا ضـــده وأرادوا القضاء عليه ، فانضم اليه بعض أقاربه ، وانحازوا الى جانبه ، وصاروا يساندونه ويعـاونونه فأطلق عليهم اسم « أويغور » ، وهى كلمة تركية تأتى بمعنى الارتبـــاط والتعاون ، فغلب عليهم هــذا الاسم(١٠) ٠

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور ، انتصر فيها الأوغوز ، ومع ذلك فان الأويغور عاشوا تحت امره الأوغوز حتى سنة ٧٤٥ ميلادية حيث انتقل اليهم الحـكم والسيادة ، وتلقب أميرهم بلقب « قلنمـــان » التى عربت الى « الخاقان » ٠ وكان الخاقان الأويغورى يلقب نفسه بأمير (الأون) أويغـور (أى أمير قبائل العشرة) والطقوز أوغوز (أى وأمير قبائل الأوغوز التسعة) ٠ واستمرت هـذه الدويلة التى رأسها زعيم الأويغـــور حتى سنة ٨٤٠م ، اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة ، الأويغور والأغـوز حتى قضى القـــرغيز على دولتهـم ٠

وحين غــزا القرغيز بلاد الأويغور ، أجبروهم على النزوح الى حوض نهر تاريم ، حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة الى أن قـدم جنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل ٠ وكان الى الغرب من بلاد الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية ، ويليهم قبائل الأغوز أو

---

(٩) دائرة المعارف الاســلامية ، المجـــلد التاسع ، العـدد ٦٨ ، مادة تتـــار ، ص ٢١٠ ـ ٢١٢ ٠

(١٠) رشـــيد الدين فضــــل اللــه : جامع التواريخ ، جـ ١ مرجـع ســابق ، ص ٣٣ ٠

الغـز منتشرة في مساحة كبيرة حتى بحر قزوين ، ومن هـؤلاء السلاجقـة والقبجـاق والعثمـانيون .

ونتج عن ابتعاد الأويغور عن الصين ، أن ابتعدوا أيضا عن حضارتها وثقافتها مؤثرين عليها حضارة السغد ، فاتخذ ملوكهم لقب « شـاه » ، كما استعملوا فى كتاباتهم أبجدية ترد الى الأصول السغدية ، فكانت تتلاقى مع الأبجدية البهلوية المشتقة من الأبجدية الآرامية .

وانتشرت الكتابة الأويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية حتى بعد سقوط دولتهم . وعندما دخل ترك أواسط آسيا فى الاسلام ، وما تبع ذلك من تغيير عقائدهم الدينية ومسايرتهم للحضارة الاسلامية ، انفصلوا عن الثقافة والحضارة الصينية . كما استعملوا الأبجدية العربية فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، واستعملت أيضا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر بين شعب دولة دشت القبجاق المعروفة بالقبيلة الذهبيـة والتيموريين فى كتابة التركية القبجاقية والتركية الجغتائية .

وكان الأويغور ، رغم أفول نجمهم السياسى كدولة ، يلعبون كأفراد دورا ثقافيا كبيرا وسياسيا بارعا عند دول الترك والمغول ، وهم الذين عهـد اليهم جنكيز خان تأديب أولاده ، كما أقاموا على ديوانه ودواوين أبنائه من بعـده . بل وصل نفوذهم لدى سادتهم أن كانوا عمال المغول فى أغلب البلاد الاسلامية التى فتحوها . وكان مما دونوه لجنكيز خان « اليـاسـا » وهى القوانين المغولية التى عمل بها المغول والتيموريون زمنا طويلا . كما استعمل ايلخانات فارس من المغول - أعقاب جنكيز خان وحفدة هولاكو خان - الكتابة الأويغورية بدورهم فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها الى بابا روما وفيليب الجميل ملك فرنسا وادوارد ملك انجلترا بغرض قيام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين .

٢ - الأتراك القراخطائيون : وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى ، وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق . وكان شاطىء نهر سـيحون يكون الحد الفاصـل بين مملكة القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية .

وأصل هؤلاء من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين . وقد ورد اسمهم في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادى قبل ظهور الاسلام بزمن طويل . وحدث في بداية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أن ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته ، ونصب نفسه امبراطوراً عليهم من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥هـ (٩١٦ - ٩٢٧م) وسمى نفسه « تاسو Tai-tsu » واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين . ولقبت أسرته باسم « لياؤو Liao » نسبة الى الاقليم المسمى بهذا الاسم . واستمرت هذه الأسرة تحكم في الصين من سنة ٣٠٤ الى ٥١٩هـ (٩١٦ - ١١٢٥م) أى حوالى قرنين من الزمان .

الحيـــــاة الاجتمـــــاعية :

أما عن حياة المغول الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ونظامهم المعيشى ، فانه يمكن تلخيصه على النحو التالى :

المغول فرسان رحل يعيشون في الخيام ، وهم قبائل من البدو الرعاة . تحكمهم قوانين وعادات ، ويخضعون لرئيس القبيلة أو الطائفة . ويطيعونه طاعة عمياء ، ويأتمرون بأمره . وكانت حياة المغول تتفق مع بداوتهم وفقر بلادهم . ولدينا كتاب قيم يحوى تفاصيل دقيقة عن حياة المغول الاجتماعية للمؤرخ هوارث Howorth وعنوانه History of the Mongols ألفه في النصف الثانى من القرن التاسع عشر وطبعه في لندن عام ١٨٧٦م .

يذكر هوارث أن المغول يعتمدون في طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها ، كما أنهم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها ، ويدخل في ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران . وأيضا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم . وقد ذكر هوارث ذلك صراحة ، فقال : « كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم » وأيضا « ان المغول في احدى غزواتهم في الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاماً للباقين »(١١) .

(١١) Howorth : History of the Mongils, Vol. IV, P. 53.

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئا من التنويع وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعا للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا الى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب(١٢) ٠

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم الا قليلا بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، وذلك أنه اذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه الى شرائح رقيقة ، ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد ٠ وكانوا يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعا من اللبن المخمر (الرائب) يعرف عندهم باسم « كومس» ، وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث « ان المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة ، يتركونه حتى يصبح حامضا ، ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به »(١٣) ٠

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول ، فانها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية ، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال ، وأحيانا من جلود الحيوان ، وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال ٠ ومن عاداتهم عدم استبدال ملابسهم الا مرة واحدة كل شهر ، وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبدا ٠ ونادرا ما كانوا يستحمون ، لذلك اتصفوا بالقذارة والنتونة والنجاسة . ومما يذكر عنهم أنهم كانوا اذا مروا بمكان فان رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة ، أما بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطيق احد البقاء فيها لعفونتها ، وقد ذكر ذلك هوارث فقال « ويقال انهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البته ، و[illegible] ، ولا يميزون بين طاهر ونجس »(١٤) ٠

---

(١٢) هـ٠ ج٠ ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، المجلد الثالث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٧٢ ، ص ٩٢٦ ٠
(١٣) هوارث ، المصدر السابق ، ص ٥٩ ٠
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٩ و ٥٠ ٠

ولا شك أن اتصالهم بالصينيين فى الشرق والمسلمين فى الغرب جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التى استولوا عليها وتعايشوا معها فى طرق حياتهم ، وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل ، وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس امبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء ٠ وذكر بعض المؤرخين انهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة ، وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر . ويهتمون بنظافتهم وهندامهم ، كما يفعل أباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين . ولكن كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أسسوا امبراطورية واسعة الأرجاء . وبعد أن أصبحوا سادة وصاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية التى كانت تدين لهم بالطاعة أو تتصل بهم ٠

ولم تكن مساكن المغول أحسن حالا من مساكن غيرهم من البدو الرحل ، اذ كانت تصنع هى الأخرى من الصوف ، وان كانت تختلف فى طريقة اقامتها ، فبينما كانت بيوت البدو غيرهم ، وبخاصة جيرانهم الترك ، مدببة من أعلاها ، كانت سقوف بيوت المغول على شكل نصف دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف ٠ وكانت من أجل ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا ، وكانت تشبه اناء مقلوباً قائماً على حوائط دائرية على صوف مثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها بقطع من جلود الحيوانات ٠

أما حاجاتهم ووسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضا .وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف حتى لا تعطب ٠ وكانوا اذا عبروا بتلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدهنونها بشحم الحيوان أو بلبن البقر حتى لا تتأثر بالماء ٠ ويذكر هوارث « أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عربات عند نقلها ، يعلق فى الواحدة عشرون بقرة وبعضها صغير يكفى ثور واحد لنقلها ، أو تنقل على ظهور الجمال »(١٥) ٠

وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة الى الجنوب تجنبا للرياح القادمة

---

(١٥) هوارث ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ٠

من الشمال والغرب القاسية ، وكانت النار تظل مشتعلة دائما فى وسط البيت المغولى ٠ أما ترتيب هـذه البيوت من الداخل فكان بسيطا ، ويعلقون على الحوائط الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضـعون فيها الألبـان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت ، ويخصصون الجـانب الغربى من البيت للرجـال والشرقى منـه للنسـاء(١٦) ٠

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية ، ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هـذه البساطة ٠ أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لأعمال التفكير الناضج ، فلا هى بالتى تقدر الزواج حق قدره ، ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء ٠ وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة ، ويوضح لنـا هوارث ذلك بقوله « يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة الا اذا كان قـد اشتراها ،ويحدث دائما أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آبائهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن »(١٧) ٠

ولا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلا ، أما اذا كانت عاقرا فيمكنه طردها ولا يقـدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لهـا طفل ، وكانوا يشجعون على الانجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرها ، وكانت المرأة المغـولية كلما أنجبت أكثر زيد فى احترامها ، وكان المغول ، وهم يعيشون وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون الى الاكثار من نسلهم بالتشجيع على الزواج ، لذلك صـار العرف عندهم عـدم تحديد عـدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته ، فكان للفرد المغولى أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة ومن أقرب الأمثلة على ذلك جنكيز خان نفسه ، فقد قيل أنه بنى بأكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحـد من بنات الأمراء أو الخانات ، ومع كثرة عددهن كان جنكيز خان يفضل خمسا منهن ٠

---

(١٦) المصـدر نفسه ، ص ٥١ ٠
(١٧) المصـدر نفسه ، ص ١٩٤ و ١٩٥ ٠

ويروى هوارث أيضـا عن الحيـاة الاسرية المغولية أن الابن فى بعض الأحيان كان يستولى على زوجات أبيه ما عـدا أمه ، وذلك لأن منزلة الأب والأم تؤول الى أصغر الأبنـاء ، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيـه ويرعاهن • ومما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن الى منازل آبائهن بعد موت والده(١٨) • ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون من السرارى والاماء فى الميراث والحقوق الأخرى • ولم تكن هنـاك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغـولى •

وكانت القوانين السائدة لدى المغول قبل تأسيس امبراطوريتهم تظهر عليها الشـدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن فى مجتمعهم • وهى التى أقرها جنكيز خان وأضاف اليها أشياء تتناسب مع مكانة المغولى فى البلاد المفتوحة ، فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة الكبيرة أو التجسس أو يستخدم السحر والشعوذة فى حياته • كمـا كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قـد يؤدى بحيـاة المضروب فى بعض الأحيان • أما اذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شىء كبير ، فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف الا اذا كان قادرا على افتداء نفسـه بدفع تسعة أمثال الشىء المسروق(١٩) •

وكان المغول ، كغيرهم من الشعوب البدائية القديمة ، يدينون بديانة وثنية تعرف بالشامانية ، وظلوا يعتنقونها حتى حلت محلها البوذية • وكان المغول طبقا لعقائد الشامانية يعبدون كل شىء يسـمو على مداركهم وكل ما يرهبهم ، ويدخل الخوف على قلوبهم ، فلهم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، وأيضا لهم آلهة فى الشمس والقمر وفى البرق الخـاطف والرعـد القاصف ، بل وأكثر من ذلك لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم • واذا اتجهوا فى صـلواتهم صوب الجنـوب دل ذلك على

---

(١٨) هوارث ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ •

(١٩) د• مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخـلافة العباسية من بغـداد على أيدى المغول ، الجيزة سنة ١٩٤٦م ، ص ٥٦ •

احترامهم للنار ، وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء ، وصوب الغرب دل احترامهم للماء ، وصوب الشمال كان فى ذلك احترامهم للموتى ٠

وكان المغول لا يتقربون الى هذه الآلهة كما فعل قدامى المصريين أو الاغريق ، بل كل ما عثر عليه عندهم كان عبارة عن خليط من أكوام الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها ويسمونها « أوبو » ، تقام بجوار الأنهار أو على قمم الجبال أو تحت الأشجار الضخمة حيث تقدم لها القرابين المختلفة ٠ كما كان المغول يصنعون أشكالا آدمية من الصوف يضعونها داخل بيوتهم أو أمامها ٠ ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ، ويزيدون من عدد الحيوانات فيها وادرار ألبانها أضعافا مضاعفة ٠

أما رجال الدين عند المغول فكانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدماء ، طبقة مستنيرة تجيد علم الفلك وتحدد وقوع الخسوف والكسوف فى أوقاتها ، وتعين للمغول الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له ٠ وان لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة الى نفوذ نظرائهم فى مصر القديمة وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقدموا على عمل هام ، ولا يجمعون جيشا ولا يدخلون حربا الا بعد أخذ موافقتهم ٠ وكان هؤلاء الكهان يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التى تظهر على أكتاف الحيوانات المحروقة ، ويعتبرون الأغنام والوعول هى أصلح الحيوانات لهذا الغرض ، وخاصة اذا كانت مقدمة كقرابين للآلهة(٢٠) ٠

صفات المغول :

اشتهر المغول بصفات ثلاث وتميزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى ، الأولى صفات جسدية ، والثانية صفات خلقية ، والثالثة صفات حربية ٠ وهذه الصفات الثلاث اكتسبها المغول نتيجة نشأتهم فى بلاد فقيرة قاسية المناخ تتناسب مع البيئة التى شبوا فى أحضانها ٠ ان مميزات المغول الجسدية تتمثل فى الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الواسع والساقين القصيرتين المقوستين وقصر القامة والبشرة الصفراء السميكة ٠

---

(٢٠) هوارث ، مصدر سابق ، ص ٩٠ ــ ١٠٤ ٠

وتسبب فقر البلاد وقلة الغـذاء وقسوة المناخ فى نحول الوجه وبروز عظام الخـد وقصر القامة منذ أمـد بعيـد · كما أن البشرة السميكة والجفون المسترخية التى حباهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التى يتعرضون لها فى بلادهم المترامية فى معظم أيام السنة · أما اعوجاج السيقان فسببه قضـاء المغول ــ رجالا ونسـاء ــ معظم أوقاتهم على ظهـور جيادهم ذات الركاب القصـــيرة ·

وعن صفاتهم الخلقية فان البيئة التى عاشوا فيها أضفت عليهم صفاتا خلقية فريدة ، فهم كانوا يعيشون عيشة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عـدة وعـددا ، وأقسى منهم شراسة وحبا لسفك الدماء ، وكان لا بد لهم أن يصطدموا بتلك القبائل حينما كانوا يعملون على توفير المراعى لـماشيتهم فى فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم المعـارك الطاحنة وتشتد أهوالها بين القبائل المغولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه ·

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظـروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشـدائد بثغر باسم ، وأن يغرسـوا هـذه الصفات فى نفوس أطفـالهم منـذ نعومة أظفارهم ، فكانوا يدربونهم ــ وهم فى الثالثة من أعمارهم ــ على استعمال القوس والنشـاب · كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران · وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد ، كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها(٢١) · وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشـد قساوة ، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد ، فأعطتهم صفات المحاربين ·

وكان المغولى ــ كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار ــ صريحا فى الحق جريئا فى ابداء رأيه ، لا يتردد ولا يلين · وقـد عمل مجتمعه على تنمية هـذه النزعة بما فرضه من العـادات الموروثة ·

---

(٢١) Lamb, H. : Genghiz Khan, Emperor of All men. London,, 1965, P. 69.

أما صفاتهم الحربية ، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم ، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد ، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض • ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية ، بل ان النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما ، وكن يستعملن القسى والسهام ، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا ، ويذهبن مع الرجال الى ميدان القتال •

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه اذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب ، فيحمل آلات لشحذ رماحه ، كما كان يحمل الابر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، ولا يأخذ معه من المؤن الا قرباً من اللبن ، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهـــار •

وكان صبر المغولى يفوق الوصف ، فقـد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا ، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمـرح كأنه لا يعانى شيئا • والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه الى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحـدة وربع شاة فى اليوم ، نجـده فى الحرب يصبر على آلام الجوع ، وقـد يحـدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مـدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام ، وفى هـذه الحالة يعيش على دماء جواده ، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه ، ثم يســد الشريان ثانية • كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته ، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هـذا ، فكانت لا تحتاج الى عليقتها من شعير أو فول ، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جـــذور النبات •

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال ، وشهد بشجاعتهم أعـداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قـدم رسولا انه قال : من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه ، واذا حدثكم

أنهم قتلوا صدقوا ، فان القوم لا يفرون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة ، وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر»(٢٢) ٠

واذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فان تجمع المغول كشعب لم يتم الا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة « كين » الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها ٠ وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم ، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية ٠ وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم ، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموچين الذى عرف فيما بعد باسم چنكيز خان ٠

---

(٢٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ١٧٧ ٠

الفصل الثانى

چنكيــز خـــان :

ان الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم امبراطورية فى العـــالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بدايـــة أمره « تيموچين » ٠ ولد تيموچين فى منغوليا عام ٥٤٩ هـ (١١٥٥م) فى اقليم « دولون بولدق » الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخـذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه « يسوكاى بهادر » حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموچين(٢٣) ٠

وكان والد تيموچين يدعى « يسوكاى بهادر » رئيس وخان قبيلة « قيـات » احـدى قبائل المغول الشهيرة ٠ واشتهر يسوكاى بهادر بين قومه بانتصاره على قبائل التتر المجاورة له والتى كانت تخشاها معظم قبائل وطوائف المغول ، فالتف حول رايته عدد لا يستهان به من زعماء القبائل المغولية ٠ وتزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام ، لكن أشهر نسائه كانت والـدة تيموچين ، وكان اسمها « أولون فوچين » ، وقد تزوجها يسوكاى اغتصابا اذ اختطفها ليلة زفافها فى احـدى غاراته على قبائل المـاركيت ٠ ومع أنها كيفت حياتها لوسطها الجـديد وأصبحت أما لتيموچين الا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد وأن تهب لأخـذ الثأر فى يوم من الأيام مهما طـال الزمن ٠ وانجبت هـذه السيدة أربعة أولاد اشتهروا فى التاريخ ، ولم تنجب اناثا قط ٠ كما كان ليسوكاى بهادر ابن خامس من زوجة أخرى اسمه « بلكوتى نويان » ، وكان دائما ملازما لأخيه چنكيز خان فى حروبه الطويلة ٠

---

(٢٣) بارتولد : مقال « چنكيز خان » بدائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١٢ ، العدد ٩٥ ص ٣٧٩ ٠

توفى يسكاى بهادر عام ٥٦١ هجرية (١١٦٧م) وكان ولده البكر تيموچين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة ، فترك له وهو فى هذه السن المبكرة أعباء كثيرة ومسئوليات جساما ، فكانت تركة مثقلة لا يقوى على حملها طفل فى الثالثة عشر من عمره وبخاصة أنه كان الوريث الشرعى لرئيس القبيلة ، علاوة على رئاسة حلف مغولى كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين . وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه أن حلوا الحلف الذى كان يرأسه يسوكاى بهادر والد تيموچين عقب وفاته مباشرة ، كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع ، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت طاعته ، وأعلنت التمرد والعصيان والتفت حول زعيم آخر ، فاضطر تيموچين هو وأمه وأخوته أن يهيموا على وجوههم وقضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والأسماك بعد أن تخلى عنهم الناس جميعا وذاقوا مرارة الجوع والفقر والحرمان .

وقد فضلت القبائل المغولية الانضواء تحت راية أحد زعماء القبائل المغولية . وعندما توطد له الأمر لم يشعر براحة طالما بقى هناك من يطالب بحقه الشرعى فى وراثة زعامة يسوكاى . لهذا أخذ يطارد تيموچين ، وتمكن فعلا من القاء القبض عليه ، الا أنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد حراس أعدائه الذى رق قلبه عليه وفك أسره وأطلقه من عقاله .

وقد حبت طبيعة منغوليا الشاب تيموچين سيئاتها وحسناتها ، فوهبته قوة جسمانية رهيبة وتعطشا لسفك الدماء وحقدا على المجتمع ، وذكاء فطريا منذ نعومة أظفاره . وكان تيموچين المصارع الأول بين أقرانه . وفى سن الشباب المبكر أحب فتاة تسمى « بوتاى » ، وكان ذلك قبيل وفاة والده وكانت تصغره بثلاث سنوات ، فكلم والده عنها ، وحينما قال الوالد أنها ما زالت صغيرة أجاب تيموچين أنه لابد وأن تكبر ويعلمها الزمن الخبر .

كان تيموچين وهو فى سن الشباب عنيدا ، ونظر حوله فقرر أن يعمل بمفرده على الرغم من أنه كان بامكانه الاستفادة من جهتين عند افلاته من الأسر والحبس ، هما عشيرة والد خطيبته بوتاى ثم قبيلة

الكرابيت والتى كانت بين ملكها ووالده علاقات وطيدة ومؤاخاه ٠وكان والد بوتاى من الزعماء الأقوياء وكانت صلتـه بوالد تيموچين وطيـدة للغاية . اما قبيلة الكرابيت فانهـا كانت ذات ثراء وقوة وبامكانها تقـديم العـون الى تيموچين لاستعـادة ملك والده ، لاسيما وأن ملكها طغول المعروف عنـد الغرب « بالقـديس چون Prester John » يعتبر نفسه بمقـام الوالد بالنسبة لتيموچين لأنـه شرب مع يسوكاى بهادر نخب الصـداقة الأبدية التى تحتم على أى منهما بمساعدة أولاد الثانى فيما اذا دعت الحـاجة(٢٤) ، الا أن تيموچـين تردد فى طلب الاسـتعانة بأى منهمـا فى بادىء الأمـر وذلك حسب قولـه بأن زيارة المفلس لأصـدقائه لا تجلب غـير العـار والاحتقار ، وصمم أن لا يزور طغرل كلاجىء وانمـا كحليف ٠

تمكن تيموچين بشجاعته من المحافظة على مراعى أسرته فتحسنت حالته المـادية ووقفت بجانبه أمه بنفسها فى نفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها ، ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لمـا توسمت فيه زعامة مقبلة بعـد أن بلغ سن السابعة عشر ٠ كما حاول تيموچين اجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة الى قبيلتهم ، وناصبهم العداء ، وقبل بعضـهم العودة الى حظـيرة القبيـلة ، أما أولئك الذين رفضـوا الانصياع لتيموچين ، فانه اصطدم بهم واشتبك معهم فى قتال رهيب ، انتصر فيـه تيموچين آخر الأمر ٠ وبعـد أن دانت له قبيلة قيات برمتها قرر الزواج من خطيبته بوتاى ، ثم خف لزيارة طغرل ، وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد قبائل المركيت التى اختطفت فى احدى غاراتها زوجته بوتاى اخذا لثأر أمه أولون فوچين الذى مضى عليه ثمانية عشر عاما ٠ وقـد تمكن تيموچين من الانتصـار على المركيت واستعاد منهم زوجته(٢٥) ٠

وواصل تيموچين خطة والده فى الزعامة والتوسع على حساب المناطق

---

(٢٤) Grosset, R. : L'Empire Mongol, VIII, Paris 1945, P. 48 - 54.

(٢٥) مير خواند ، روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ٤٨ ٠

المجاورة متحالفا مع قبيلة الكرابيت وامبراطورية الصين الشمالية المعـروفة بامبراطورية كين Kin ، وأحرز نصرا حاسما على عدوه « تركوتاى » زعيم قبيلة التايجوت · كما بسط سيطرته على منطقة شـاسعة من اقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبى حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار ، ثم عمل بعد ذلك على اخضـاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى ·

ان الانتصارات التى أحرزها تيموچن واتساع نفوذه وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها جعلت حليفه رئيس قبيلة الكرابيت «أونك خان» ينظر الى تيموچين الشاب بقلق زائد ، فدب بينهما الخلاف والشقاق بعـــد أن كانت بينهما المودة والتحالف ، لكن خان الكرابيت وقد بدأ يخشى قـوة تيموچين أخذ يعمل على وأد أعماله حتى لا يستفحل أمره ويصعب بعد ذلك معاملته ، وفهم تيموچين قصـد أونك خان وما يدور فى مخيلته وعلم بما يدبر له فى الخفاء ، فأخذ أتباعه وغادر المكان دون ن يستأذن من مضيفه وحليفـه الذى تبعه وأوقف تيموچين ومن معه من رجال ، وحدثت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بقتـل خان الكرابيت وفوز جنكيز خان ، وكان ذلك سـنة ١٢٠٣ م · ثم استولى على عاصمته قره قورم وجعلها قاعدة لملكه · وأصبح تيموچين بعـد انتصاره على خان الكرابيت أقوى شخصية مغولية ، فنودى به خاقانا ، وعرف باسم « چنكيز خان » (أى امبراطور العالم) من قبـل زعماء المغول والتتار ، كما اعترف به امبراطور كين الصينى(٢٦) ·

واشتغل چنكيز خان فى الفترة من سنة ١٢٠٣ حتى سنة١٢٠٦ بتوطيد سلطانه والسيطرة على كافة المناطق التى يسكنها المغول والتتار الواقعة بين نهرى أمور فى الشمال الشرقى وتاريم فى الجنوب الغربى ، أى كافة المناطق الواقعة خارج السور الصينى العظيم ·

وفى سنة ٦٠٠ هجرية (١٢٠٤ م) أغار چنكيز خان على قبيلة النايمان المغولية وهزمهم عند حدود جبال آلتاى ، وجرح فى المعركة التى نشبت بـين الطرفين خان النايمان « تايانك خان » ، وما لبث أن توفى بعد قليل · وبعـد

---

(٢٦) نفس المرجع ، ص ٤٨ ـ ٥١ ·

الاستيلاء على ممتلكات النايمان ، تمكن جنكيز خان من هزيمة أقوام أخرى من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحــدود الشرقية للتركستان ، وأيضا تمكن فى سنة ٦٠٣ هجرية من هزيمة القرغيز ، وهم احدى القبائل التركية القوية المجاورة للمغول والتتر ، أما ملك الأويغور فانه أسرع بتقديم ولائه وطاعته الى جنكيز خان ، ثم صار فيما بعد أقوى حليف له ٠

واتجه جنكيز خان بعد ذلك الى اصـــلاح الشئون الداخلية لملــكته الناشئة ، فدعى أول برلمــان له « قوريلتاى » عــام ٦٠٣ هجرية (١٢٠٦ م) بعد أن وحد منغوليا بأكملها تحت سلطانه ٠ وفى هذا الاجتماع حددت لأول مرة شارات ملكه ونظم امبراطوريته بأن وضع لشعبه دستورا اجتماعيا متين البنيان ودستورا حربيا لا يقل عنه قوة وصرامة، وتكون أحكام هـذا وذاك قانون « الياسا » الذى نفذه المغول ومن انضم تحت لوائهم بكل دقة وقدسوه تقديس الكتب السماوية لأصحاب الديانات المنزلة ٠

اليـــاسا الجنكيزيــــة :

رأى جنكيز خان بثاقب نظره أن الآداب والعرف والتقاليد المغولية التى كانت سائدة حتى عصره لا تفى بمتطلبات الدولة الجديدة ، كما أنها لم تكن مدونة فأعاد النظر فى تلك العادات ورد بعضها وقبل معظمها ، وأضاف اليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صبغة رسمية ، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغورى ، كما أمر بأن تدون تلك النظم والاحكام بهذا الخط٠ وأن يحتفظ بها فى خزائن أمراء المغول ٠ وهو قانون مختصر بسيط ، ولكنه صارم وحازم قوامه احترام المجتمع المغولى وتفوقه على غيره من المجتمعـات الأخـــرى ٠

ان الياسا التى سنها جنكيز خان وجعلهــا دستورا لهؤلاء القبليين المتعطشين للدماء كانت احدى العوامل التى ساعدت على انتصاراته وتـكوين امبراطوريته الواسعة حيث نزل المغول ومن انضم تحت لوائهم على حكمه ٠ وكان العقاب الذى ينزل على المخالفين للياسا شديدا قاسيا لا تعرف نصوصه الرحمة والشفقة ٠ وتتناول الدستور أمورا متعددة ، أولها توحيد المعتقـد ،

اذأشار الى الاعتقاد بفاطر السموات والأرض يهب الملك لمن يشـــاء ويسلبه ممن يشاء ، وهو القوى الجبـــار حسب معتقدهم الوثنى ، وقد اشتمل على المواد التـــالية :

١ ـ يتحرر من المسئوليات الحكومية كل من الوعاظ والرهبان الذين كرسوا أنفسهم للخدمات الدينية وكذلك للمؤذنين والأطباء وغسالى الموتى ٠

٢ ـ يعاقب بالاعدام كل من يعلن نفسه امبراطورا خلافا لارادة المؤتمر المغولى العام (القوريلتاى) ٠

٣ ـ يمنع كافة الزعماء من غير المغول والعشائر الخاضعة للمغول من حمل الألقاب الفخرية ٠

٤ ـ لا يجوز عقد السلم مع أى ملك أو أمير أو أمة من الأمم مهمـــا كانت الا بعد تقديم الخضوع للمغول ٠

٥ ـ مراعاة القاعدة العسكرية فى تعبئة الرجال الى عشرات ومئـــات والوف وعشرات الألوف ٠

٦ ـ يستلم الجندى السلاح من قائده المباشر حال ابتداء المعركة ، وعلى الضباط الاحتفاظ بالأسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة ٠

٧ ـ يعاقب بالاعدام من يحاول القيام بنهب أموال الأعداء قبل صدور الاوامر بذلك ٠ وللجندى من الغنائم ما للضباط بعد أن تؤخذ منها حصـــة الامبراطور ٠

٨ ـ القيام بصيد عام فى كل شتاء لاستمرار التدريب الحربى وتجهيز الأرزاق ٠ وعلى كافة الأفراد الامتناع عن الصيد من بداية شهر مارس الى اكتوبر من كل عام ٠

٩ ـ لا يجوز ذبح الحيوانات المصادة ، بل يجب ربطها وشق الصدر واخراج القلب منهـــا ٠

١٠ ـ يسمح بأكل الأطراف من الحيوانات وأحشائها ولعق الدم ولو أن ذلك كان من المحرمات سابقا ٠

١١ ـ أن الشخص الذى لا يساهم فى الحرب عليه أن يؤدى خـــدمة اخرى للامبراطور مجانا لمدة من الزمن ٠

١٢ ـ يعاقب بالاعدام من يسرق جوادا أو ما يساويه وذلك بقطـــع جسمه الى شطرين ٠ أما عقوبات المسروقات الاخرى فتتوقف على نوعيـــة المسروق وثمنـــه ، وتتراوح العقوبة لهذه الاشياء من ســـبع جلدات الى سبعمائة ٠ ويمكن تحويل الجـــلد الى غرامة بمقدار تسعة أمثال الشىء المـــسروق ٠

١٣ ـ لا يجوز للأفراد الخاضعين للمغـــول تشغيل أى مغولى فى أى عمـــل كان ٠

١٤ ـ لا يجوز ايواء العبد الهارب ، ومن يفعل ذلك يعرض نفســـه للاعدام ، وأن الشخص الذى يعرف مكان العبد الهارب ولم يخبر السلطات عنه يعرض شخصه لنفس العقوبة ٠

١٥ ـ لا يجوز الزواج من أقارب الدرجتين الأولى والثانية ، ويجوز الزواج بأختين ، ويحق للزوج اقتناء الجوارى ، ويسمح للنساء بتعـــاطى الأعمال التجارية حسب رغباتهن ٠

١٦ ـ الأولاد الذين يولدون من أصل عبودى لهم نفس حقوق الأولاد الشرعيين ، على أن نسل الزوجة الأولى لهم الشرف الأول ولهم حق وراثة كل شىء ٠

١٧ ـ يعاقب الزنا بالموت ، وكذلك اللواط ٠

١٨ ـ لا يجوز غسل الملابس و الاستحمام فى المياه الجارية أثنـــاء الرعـــد والصواعق ٠

٢٠ ـ يعاقب بالموت أى ضابط أو زعيم لا يقوم بتأدية واجبه أو عند رفضه الحضور أمام الخاقان ٠

وقد تحدث المقريزى فى كتابه الخطط عن القانون المغولى بشىء أشـــبه

بما ورد فى النص الأصلى للياســـا ، فذكر ما يلى « ان چنكيز خان القائم بدولة التتر فى بلاد المشرق قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه ياسه ، ومن الناس من يسميه يسق والأصل فى اسمه ياسه · ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطـع الله دابـرهم ·

ومن جملة ما شرعه چنكيز خان فى الياسه أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن بال فى المـاء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنـــه ويمرس الى أن يموت ، ثم يؤكل لحمــه ، وأن من يذبح حيوانا كذبيحـة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منــــه فان لم ينزل ولم يناوله قتـــل ، وشرط أن لا يكون على أحـــد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفـــة وألا يكون على أحد من الفقـــراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عـداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهـــد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة أو أخرى ، وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمـير ومن يناوله أسير ، ولزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء وغيره يراه بـل يشركه معه فى أكله ، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ·· وأن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منعه ، وألزمهم أن لا يدخل أحـــد يده فى المـاء ولكنه يتناول المـاء بشىء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع من أن يقال لشىء انه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ولا يفرق بين طاهـــر ونجس ، وألزمهم ألا يتعصبوا لشىء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط · وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنـــه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قـــد

قصر فى شىء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه . وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال .. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء الألوف وأمراء مئات وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى نفسه الى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى غيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه ، وألزم باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة(٢٧) .

الحرب بين جنكيز خان والصين :

كان لابد من اصطدام جنكيز خان بامبراطورية الصين ، ذلك أن بعض طوائف المغول والترك كانت تتبع أسرة كين الصينية ابان ظهور جنكيز خان. ورأى أن الصينيين لا يكفون عن تحريض القبائل الواحدة منها ضد الأخرى لكى يشغلهم ويلهيهم فيظلون هم سادة الموقف ، ومن ناحية أخرى كى يأمنوا شر الغارات التى تشنها عليهم تلك القبائل ، فأراد جنكيز خان أن يضع حدا لتدخل سرة كين الصينية فى شئون القبائل المغولية ، فاشتبك مع الصينيين لأول مرة عام ٦٠٨ هجرية (١٢١١ م) واستطاع أن يحرز جملة انتصارات على القوات الصينية ، وخضعت له البلاد الواقعة فى داخل سور الصين العظيم وعين عليها حكاما من قبله .

ان الحرب التى شنها جنكيز خان على الصين حشد لها منذ بدايتها جل القوى التى أمكن حشدها من القبائل والعشائر المغولية ، حتى أنه لم يبق فى منغوليا سوى ألفين من الرجال . كما خرج الخاقان بنفسه ، هو وأولاده الأربعة لقيادة الجيوش المغولية .

وفى عام ٦١٠ هجرية (١٢١٣ م) عبأ جنكيز خان قواته ، وتحركت صوب الصين للمرة الثانية ، لكنه لم يتمكن من تحقيق الغلبة عليهم . نعم انه كان هو المنتصر فى المعارك ، ومع ذلك فانه لم يحرز النصر الحاسم .

---

(٢٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ٢ ، القاهرة سنة ١٨٥٣ م ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

ورأى جنكيز خان ضرورة العودة الى منغوليا ، لوصول أنباء تفيد أن أعداءه من المغول الفارين يتآمرون عليه ٠ وقد انتهز جنكيز خان فرصة ارسال امبراطور الصين سنة ٦١١ هجرية (١٢١٤ م) رسالة اليه يعرض عليه الصلح ويحل السلام محل الخصام على أن يضم جنكيز خان كافة البلاد التى فتحها بحد سيفه فى الصين سواء أكانت داخل السور أو خارجه ٠ وأخيرا اتفق الطرفان ، « واى وانج Wai - Wang » امبراطور الصين وجنكيز خان ، خاقان المغول على الصلح ، وأرسل امبراطور الصين بعض الهدايا الى جنكيز خان بناء على طلبه ٠ وما أن اجتاز جنكيز خان ترافقه جيوشه سور الصـــين العظيم فى طريق عودته الى منغوليا ، حتى عدل امبراطور الصين عن فكرة الصلح وشرع فى تقوية حصونه ، وتحصين مدنه وقلاعه ، واتخذ أهبـــة الاستعداد لملاقاة عدوه المغولى ونقل عاصمة ملكه الى مدينة أخرى فى الجنوب لتكون أقرب الى ساحة القتال تاركا بكين العاصمة الاصلية تحت حكم ابنه٠ فما كان من جنكيز خان الا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعا الى الصـــين وانقض بجيوشه على جحافل الصين التى لم تكن قد أخذت أهبة الاستعداد ، واشتبك معهم فى معركة فاصلة سقطت على أثرها مدينة بكين فى أيدى المغول عـام ٦١٢ هجـرية (١٢١٥ م) ٠

وكان لسقوط عاصمة الصين فى يـــد جنكيز خان دويا هائلا ، ذلك أن انتصار جنكيز خان على الصينيين اعتبر انذارا للممالك الاسلامية التى آوت أعداءه والفارين من وجهه ٠ وفى نفس الوقت لم تكن الدول الإسلامية على أهبة الاستعداد لملاقاة المغول فى ساحة الميدان ، فزادت هيبته فى نفوس الجميع ٠ وعندما عاد جنكيز الى وطنه سنة ٦١٣ هجرية (١٢١٦ م) استعد لتعقب أعدائه الذين هربوا الى الممالك الغربية ٠

جنكيز خـان يتجـــه صـوب الغـــرب :

كان يحد منغوليا والصين من جهة الغرب مباشرة مملكة القرة خطائيين العظيمة التى يتزعمها « كورخان » وتشمل المنطقة الواقعة من بلاد الأويغور حتى بحر آرال ٠ وبدأت تلك الدولة فى الضعف نتيجة الغارات التى قامت بهـا القبائل الرحل من المغول وغيرهم التى فرت من وجه جنكيز خان ٠وقضى هؤلاء الغزاة الرحل الجدد على كل سلطة فى مملكة كورخان ، كما ساعد على

ضعفها ووهنها انشقاق كثـــير من حكامها المسلمين وعصيانهم ، خاصـــة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وخضوع كل من الأمير « أدقوت » الأويغورى لچنكيز خان سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) وهو الذى رافق الجيش المغولى فى حروبه فى الشرق الاسلامى ، وأرسلان خان أمير القرلق سنة ٦٠٨ هجرية (١٢١١ م) وهو أول أمير مسلم من الترك خضع للمغول وانضم الى جنكيز خان ٠

وكان أهم حدث تم فى الغرب فرار كوچلوك خان ابن ملك النايمان مع جمع غفير من أتباعه ، والتجائه الى كورخان ملك القراخطائيين ، واشتراكه فى أحداث المنطقة عندما شق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه عصا الطاعة على كور خان بعد أن كان تابعا له ، ورفض أن يدفع الضريبة السنوية المقررة عليه ٠ ان صراع كورخان ملك القرا خطائيين والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم يكن بالأمر السهل ، فكلاهما صاحب جيش قـــوى واستعداد كامل وقدرة على القتال فائقة ٠ فانتهز كوچلوك خان الفرصـــة ـ رغم أنه كان لاجئا لا يحق له المشاركة فى شئون الدولة المضيفة ـ وعـرض على كورخان امكانية تكوين جيش من أتباعه المشتتين والوقوف الى جانبـه ضد مطامع السلطان الخوارزمى ٠ وكان كورخان يخشى ضيفه ، فهو تركى مثله لكن عقليته مغولية بما تحمل من معانى الغـدر واللؤم والخيانة ، فلم يوافقه فى بادئ الأمر ٠ ومن الناحية المقابلة لم ييأس كوچلوك خان وأخـذ يحسن الأمر لكورخان وتعهد بألا يعصى له أمرا ٠ وأخيرا أذن له بتنفيـــذ خطته واتخذ منه عونا له على الخوارزمشاه فى حربه وصراعه المرتقب ٠

وظهر كوچلوك خان أول الأمر تابعا لكورخان ، فجمع جنودا غفيرة من طائفة النايمان ، بل وكل مغولى فـر من وجه چنكيز خان ، وشكل من أولئك وهؤلاء جيشا سرعان ما تكامل عدده وعدته وانضم اليه أيضا حاكم قبيـلة المركيت الفار من بطش چنكيز خان وبعض من أتباع كورخان نفسه ٠ حتى صار جيشه أقوى من جيش القرة خطائيين ٠

استيلاء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما وراء النهـر :

ان الحديث عن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه يعتبر متممـــا

لموضوعنا عن الدولة القرة خطائية حيث كانت الاسرة الخوارزمشاهية تابعة لكور خان تدفع له الجزية السنوية منذ استقلالهم وانفصالهم عن الدولة السلجوقية فى عهد السلطان سـنجر ٠

تولى علاء الدين محمد الخوارزمشاه العرش خلفا لأبيه علاء الدين تكش (٥٦٨ ـ ٥٩٦ هـ) وسار على نهجه فى توسيع رقعة بلاده حتى بلغت أقصى اتساع لها فى عهده ، رغم أنه ورث تركة ثقيلة للغاية ، اذ كان عليه تقوية دولته فى الداخل ليستطيع مواجهة أعدائه فى الخارج المتمثلين فى الدولة الغورية والخلافة العباسية والدولة القرا خطائية ، واتخذ سياسة محددة ازاء تلك الدول الثلاث ، فقد كان عليه السيطرة بقوة جيوشه على الأولى ، ومحاولة فرض نفوذه الأدبى على الثانية ، والتخلص من التبعية ودفع الضريبة السنوية للثالثة ، والعمل على اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الاسلامية الواقعة تحت سيطرة القراخطائيين ٠

ان تبعيـة الخوارزميين لدولة القرهخطائيين تعود الى أكثر من نصف قرن على عهد علاء الدين محمد عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر واستخلاصه لهم وانفرادهم بادارته بعد انتصارهم على السلطان سنجر السلجوقى فى المعركة التى نشبت بصحراء « قطوان » الواقعة على بعد ٣٦ كيلو مترا من سمرقند فى الخامس من صفر عام ٥٣٦ هجرية ، وتبعية حكام تلك البلاد ـ وهم من المسلمين ـ لكورخان ٠ وقد تمكن السلطان آتسز الخوارزمشاه عدو سنجر اللدود وحليف كورخان القره خطائى أن يستقل بحكم تلك البلاد على أن يدفع مقابل ذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهبا ، وأن يقدم أيضا ما يحتاجه كورخان من خيل وجنود ٠ واستمر هذا الاتفاق سارى المفعول حتى عصر السلطان علاء الدين محمد حفيد آتسز الخوارزمشاه ٠

ان الخطـة التى سار عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه استغرقت منه قرابة عشر سنوات ، استطاع خلالها تقوية جيشه ، وتصفية أعدائه ومناوئيه فى الداخل ، وترقب الفرصة لتنفيذ سياسته تجاه القـره خطائيين الى أن كان عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) الذى يعد بداية الصراع الفعلى بين الخوارزميين ودولة القرة خطائيين ٠

انتهز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فرصة اتصال عثمان خان الملقب بسلطان السلاطين حاكم سمرقند ، وكان تابعا للقرمخطائيين ويدفع لهم سنويا قدرا معلوما من المال والحيوانات وعرض عليه التخلص من تبعيته لكورخان القره خطائى ، وكان ذلك فى رسالة تضمنت أسف عثمان خان لخضوع المسلمين لأعدائهم فى الدين ، وأظهر ألمه من تلك التبعية ، وعرض التعاون للتخلص من تبعيته لكورخان ، وأن يكون حليفا للسلطان وتابعا للدولة الخوارزمية ٠ وتعهد بدفع ما كان يقدمه لكورخان من أموال وهدايا ويضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى ، وحتى يطمئن عثمان خان الخوارزمشاه على صدق نواياه أرسل بعض أعيان سمرقند وبخارى ليكونوا رهينة لديه ٠

وافق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما فى رسالة عثمان خان ، ووجد ذلك مطابقا لما يجيش فى نفسه وما يخطط له ، وانتهزها فرصة ليتخلص بدوره من التبعية لدولة القرمخطائيين ، تلك التبعية التى تلزمه والزمت آباءه الثلاثة الذين حكموا قبله بدفع الضريبة السنوية للقرمخطائيين ٠ وعندما أرسل كورخان مندوبه عام ٦٠٤ هجرية (١٢٠٧ م) فى طلب الضريبة السنوية واستلامها من السلطان الخوارزمى ، قتله علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وجاهر بالعداء ، ثم سار بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون حتى اذا ما انضم اليه حليفه عثمان خان السمرقندى ، سارت تلك الجموع الغفيرة لمنازلة جيش عدوهم المشترك ٠ وبعد أن التحم الجيشان المتصارعان دارت الدائرة على الجيوش الاسلامية ، وهزمت هزيمة منكرة ، وكان علاء الدين محمد الخوارزمشاه نفسه بين الأسرى ، الا أنه تمكن من الهرب وعاد الى بلاده(٢٨) ٠

وفى العام التالى (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨م) استعد علاء الدين الخوارزمشاه لملاقاة عدوه ، وانتصر عليه عام ٦٠٦ هجرية (١٢٠٩ م) ، وقتل وأسر عدد غفير من القرمخطائيين ٠ وكان ملكهم ويدعى « طاينكو كورخان »(٢٩) شيخا

---

(٢٨) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ ٠

(٢٩) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ١٥ ٠

تجاوز المـائة من عمره ، ضمن الأسرى ·ونتيجة لذلك الانتصار الذى احرزه الخوارزمشاه ، وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهـــر ، ووصلت حـــدود الدولة الخوارزمية حتى مدينة أوزكند الواقعة على نهـــر ســـــــيحون ·

وأسند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه حكم ما وراء النهر إلى حليفه عثمان خان حاكم سمرقند ، وزوجه من ابنته ، وترك حامية خوارزمية ليضمن ولاء السلطان السمرقندى له · وبهـــذا الانتصار وصـــل السلطان علاء الدين محمد الى قمة مجده ، واتخذ لنفسه بعد هذه الواقعة التى انتصر فيها لقبى « الاسكندر الثانى » و « سنجر » تيمنا بانتصارات الأول وغلبته على ملوك الأرض قاطبة وتفاؤلا بطول عمر الثانى ·

ونتيجة لتصرفات جنـــود الحامية الخوارزمية التى كان قـــد تركها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وأساءتهم الى شعب ما وراء النهـــر وتعديهم عليهم حيث كانوا أشبه بلصوص وقطاع طرق ، وعدم احترامهم لحكام البـــلاد الأصليين حيث لم يقيموا لهم وزنا ، وتعديهم على الأهالى واستغلالهم لهم أسوأ استغلال ، نتيجة لهذا كله ثار عثمان خان على السلطان علاء الدين محمد واتصل بكورخان ليخلصه من نير الخوارزمشاه وأتبـــاعه · وما أن تم له ما أراد حتى أمر بقتل جميع جنود الحامية الخوارزمية ، كمـــا قتل كل خوارزمى يسكن بلاد ما وراء النهر ، وأمر القصابين بتعليق أجساد القتلى فى محلاتهم وتقطيعها اربا وعرضها على الأهالى ، وأهان زوجتـــه ابنة السلطان الخوارزمى ، وكاد يقتلها لولا توسلاتها · وتزوج عثمان خان من ابنة كورخان القره خطائى توطيـــدا لحسن الصلات بينهما وجعـــل من زوجته السابقة ابنة السلطان علاء الدين محمد أمة لها ·

وما أن علم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بما حدث فى ما وراء النهر وثورة عثمان خان سلطان سمرقند عليه وخيانته له حتى سار على رأس جيش كبير ليثأر لكرامته التى اعتدى عليها فى شخص ابنته وجنوده ورعاياه· وانتصرت الجيوش الخوارزمية على جيوش عثمان خان ، واستولت على سمرقند ، وأباحها السلطان علاء الدين محمد لجنوده ثلاثة أيام بلياليها ،

أعملوا فيها القتل والسلب والنهب ، كما قبض على عثمان خان وقتله. وبذلك دانت له سائر مدن ما وراء النهر بالطاعة ، وعين على كل مدينة حاكما خوارزميا من قبله(٣٠) .

هزيمة القره خطائيين على يد كوچلوك خان :

وبذلك جاور الخورزمشاه أعداءه القره خطائيين ، وأخذ ينظر اليهم بحذر بالغ لما لهم من قوة واستعداد عسكري كامل، الا أن دولة القرهخطائيين أصيبت بتصدع أدى بها فى النهاية الى الاندثار ، ذلك أن كوچلوك خان زعيم طائفة النايمان والفار من وجه جنكيز خان التجأ الى كورخان يحميه من الخاقان المغولى وتمكن بدهائه من تأسيس قوة عسكرية من فلول طائفته التى نجت من سيف جنكيز خان ، وانضمت اليه قبائل أخرى ، مما أثار الذعر فى قلب كورخان ملك القره خطائيين وحدث قتال بين المضيف وضيفه ، واتصل كلاهما بالسلطان علاء الدين . بدأها كوچلوك خان الذى عرض على الخوارزمشاه التحالف منتهزا فرصة الصراع بينهما واستيلاء الخوارزمشاه على ما وراء النهر والعداوة القديمة الدفينة بين الخوارزمشاه والقرهخطائيين. ثم اتصل به أيضا كورخان الذى وجد نفسه فى وضع سيء ، وعرض على الخوارزمشاه تناسى العداوة القائمة والاتحاد لمواجهة كوچلوك خان . ولم يرفض السلطان علاء الدين محمد عرض كورخان وتظاهر بقبوله .

وعندما نشب القتال بين القره خطائيين وكوچلوك خان وطائفته النايمان الفارة من وجه جنكيز خان ، قاد السلطان الخوارزمى جيوشه ووصل الى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين ، وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية انما جاءت لتؤازره(٣١) . واتخذت الجيوش الخوارزمية أماكنها وهى على أهبة الاستعداد فى مكان قريب من أرض المعركة التى بدأت والسلطان الخوارزمى واقف بين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة احداهما على الأخرى لينضم الى القوة المنتصرة . وما أن دارت الدائرة على جيوش القره خطائيين ، وأسر ملكهم كورخان وزج به فى السجن حيث توفى

---

(٣٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، ١٢٥ .
(٣١) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، الجزء الخامس ، ص ١٦ .

بعد عامين ، حتى أعمل الخوارزمشاه والجيش الخوارزمى السيف فى رقاب البقية الباقية من الجيوش القره خطائية المنهزمة أو الجنود الفارين من أرض المعـــــركة(٣٢) .

ان الآثار التى نتجت عن تدمير القراخطائيين كانت غاية فى الأهميـــة بالنسبة للعالم الاسلامى وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الاسلامى بعامة ، ذلك أن أملاك كوچلوك خان جاورت أملاك الدولة الخوارزمية ممـا جعل السلطان علاء الدين محمد فى موقف لا يحسد عليـــه ، فان كوچلوك خان فار من وجه چنكيز خان ولابد أن تنشب بينهما معـــركة مصيرية ، فوجهت أنظار چنكيز خان نحو الأقاليم الغربية من آسيا حيث دولة كوچلوك خان عدوه القــديم .

أما كوچلوك خان ، ملك طائفة النايمان المنتصر ، فانه اعتلى عـــرش القره خطائيين وأخـــذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة ، فأخضع عددا كبيرا من القبائل ، وكان بعضها تابعا للمغول ، فوسع أملاكه حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية .

وكان لابد من صدام مسلح بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وكوچلوك خان نتيجة تصرفات الأخير تجاه المسلمين فى بلاده ، ذلك أنه تصرف مع المسلمين من رعاياه تصرفات عدوانية ، وحابى البوذيين دون سواهم من الأديان الأخرى . وكان كوچلوك خان يدين بالمسيحية الا أنه بعـــد أن تزوج من ابنة كورخان وبتأثير نفوذها وفرط جمالها استطاعت اقناع زوجها بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التى كانت تدين بهـا ، وأصـابه نوع من الهوس الدينى حتى أنه أجبر المسلمين من رعاياه على الارتداد عن دينهم ، واعتناق احدى الديانتين ، المسيحية أو البوذية ، وان لم يقبلوا ذلك فعليهم أن يتزيوا بزى الخطائيين . فكان المسلمون يرتضون الحل الأخـــير مكرهين ، ومع ذلك حال بينهم وبين أداء شعائرهم الدينية ، وانقطع الآذان من البلاد . وكان يجبر الأئمة وكبار رجال الدين المسلمين على الخـــروج

---

(٣٢) ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ٦٩ ـ ٧١ .

الى الصحراء ليناظرهم فى شئون الاديان والعقائد ، وكان آخر الأمر يسفه آراءهم ويتحداهم الى أن انبرى له الامام علاء الدين محمد الختنى وجاد له بشجاعة وبين له زيف مذهبه ، وأقام الحجج على صحة العقيدة الاسلامية ، فلم يستطع كوچلوك خان ورجال الديانة البوذية من الرد على امام المسلمين فما كان من كوچلوك خان الا أن أمر بصلبه على باب احدى المدارس فى مدينة ختن(٣٣) ٠

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ينظر الى أفعال كوچلوك خان تجاه المسلمين هؤلاء على أنها موجهة ضده ، واعتبر السلطان الخوارزمى أنه حامى الاسلام والمسلمين وبدأ العداء يتجسد بين الطرفين ٠ نادى السلطان علاء الدين محمد بأحقيته فى نصف أملاك الدولة القرهخطائية المنهارة بحجة المساعدة التى قدمها لكوچلوك خان وثمنا لاعتلاء الأخير العرش وذلك فى رسالة أرسلها فى هذا المعنى ، الا أن كوچلوك خان رفض اجابة الخوارزميين الى طلبهم بل انتهز الفرصة وهدد السلطان الخوارزمى بشن حرب على الدولة الخوارزمية ٠ فرد عليه الخوارزمشاه بأن أعلن الحرب ٠ واكتفت الجيوش الخوارزمية بدفع وحدات عسكرية لشن هجمات خاطفة على أراضى الدولة القرهخطائية ٠ ولم يمنع كوچلوك خان من التوجه الى عدوه الخوارزمى الا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون صوب الغرب ٠

چنكيز خان يقضى على كوچلوك خان :

لم ينعم كوچلوك خان بانتصاره ولم يجن ثماره بعد أن جلس على عرش القره خطائيين ، أو بمعنى أدق بغدره وعدم مروءته ، ذلك أن چنكيزخان لم يكن غافلا عن عدوه وابن عدوه اللدود يتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه وثأر قبيلته ٠ فلما فرغ من حروبه فى الصين سير جيوشه لاخضاع القبائل العاصية التى انضمت الى كوچلوك خان وساهمت فى تكوين دولته ٠ واشترك فى الحملة قائداه الشهيران : « سوبوتاى » الذى كلف باخضاع قبائل المركيت التى انضمت الى كوچلوك خان و «چبه نويان»

---

(٣٣) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ، ص ٤٨ ٠

لقتال كوچلوك خان نفسه ، واحضاره حيا أو ميتا (٣٤) ٠

وتمكن سوبوتاى من هزيمة قبائل المركيت وأبادها عن آخـرها ٠ أما چبه نويان فانه سار الى كاشغر ، واستولى عليها بسهولة وفر كوچلوك خان ٠ ولم يحاول مواجهة المغول فى معركة حاسمة ، وصار يتنقل من مكان لآخر والمغول يتعقبونه ٠ وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار چبـه نويان سيد المنطقة وحاكمها ٠ وكان أول ما فعله الحاكم المغولى چبه نويان أن أطلق الحرية الدينية لجميع السكان ، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول كمحررين لبلادهم ٠ أما كوچلوك خان فانه هام على وجهه فرارا من المغول الذين جدوا فى طلبه ٠ وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلموه الى المغول فقتلوه على الفور ، وبعثوا برأسه الى چنكيز خان فى قره قورم ، ثم أعملوا السيف فى كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضى عليهم جميعا فى سنة ٦١٥ هجرية (١٢١٨ م) ٠

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كوچلوك خان علىجميع القبائل التركية التى كانت تخضع للقره خطائيين ، واحتلوا مناطق أخرى كان كوچلوك خان قد ضمها الى دولته ٠ وكان لانتصار المغول على غريمهم كوچلوك خان نتائج هامة وسريعة ، أهمها على الاطـلاق دخول جميع القبـائل التركية تحت السيطرة المغولية ، وكذلك مجاورة چنكيز خان بهذه القوة النامية الرهيبـة املاك الدولة الخوارزمية ، مما أدى الى حـدوث الكارثة الكبرى ، لا للدولة الخوارزمية وحدها ، بل للعالم الاسلامى قاطبة ٠

العـلاقات بين چنكيز خان والخوارزمشـاه :

ومما سبق أن استعرضناه ، نجـد أن چنكيز خان قـد أسس دولته على أشلاء القوى القبلية الموجودة فى شرق آسيا ، حتى صارت حدود دولته تجاور أملاك الدولة الخوارزمية ٠

وقـد جاورت القوتان ، الخوارزمية والمغولية كل منهما الأخرى ، فى

---

(٣٤) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٧٥ و ٧٦ ٠

انتظار الفرصة المواتية للوثوب على الأخرى ۰ وحدث فعلا أن قامت بعض المناوشات الحربية ابان احتلال المغول للدولة القراخطائية ، ذلك أن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وهو فى طريقه الى مدينة « جند » فى شتاء عام ٦١٢ هجرية لمحاربة كوچلوك خان أن اتجه الى صحراء القرغيز حيث سكنى طوائف القبچاق ، فقابل وهو فى طريقه فرقة من الجيش المغولى بقيادة « جوجى بن چنكيز خان » ۰ وكانت لدى جوجى وبقية القادة تعليمات من الخاقان بعدم الاشتباك مع المسلمين ، فبعثوا برسالة الى السلطان علاء الدين محمد أخبروه فيها أنهم قدموا الى تلك النواحى بناء على تعليمات چنكيز خان ، خاقان المغول ، لدفع العصاة وتعقب الفارين ۰

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أمامه فوجد المغول فى عشرين ألف جندى أما هو فكان جيشه يبلغ الستين ألفا ۰ وكان جواب الخوارزمشاه على رسالة جوجى بن چنكيز خان «بأن چنكيز خان ان كان أمرك أن لا تقاتلنى فان الله تعالى قد أمرنى أن أقاتلك ، ووعد لى على قتالك الحسنى ، فلا فرق عندى بينك وبين كورخان وكشلوخان لاشتراككم فى الشرك ، فأذن بحرب تتقصد فيها الرماح ، وتتحطم فيها الصفاح» ۰ (٣٥) ثم أمر الخوارزمشاه جيشه بالهجوم على القوات المغولية ، لكنه لم يحسم القتال ، ولم يصل الى نتيجة فى المعارك التى نشبت بينهما ، بسبب ما كان يفعله المغول فى المعركة من حركات غريبة ، وما لديهم من أساليب فى القتال جديدة ، وشجاعة فائقة وجرأة نادرة ، مما جعل قادة الجيش الخوارزمى ينظرون اليهم فى دهشة بالغة وذهول تام ۰

ان المعارك التى نشبت بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وبين المغول بقيادة جوجى لم تكن حربا بمعنى الكلمة ، لكنها أظهرت قدرة المغول القتالية وخبرت جنود الخوارزمشاه ۰ وفى الوقت نفسه تركت أثرا سيئا فى ذهن السلطان الخوارزمى لدرجة أنه بعد ذلك كان يفر من أمام جيوش چنكيز خان فى أى مكان يلتقى فيه بهم ۰ ويقول النسوى : « وتمكن فى قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما اذا ذكروا مجلسه

---

(٣٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٦ و ٤٧ ۰

يقول : لم ير كرجالهم اقـداما وثباتا على مضض الحـرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب ٠ »(٣٦) ٠

وكان السلطان علاء الدين محمـد الخوارزمشاه منذ فترة يتتبع أخبار جنكيز خان وهو فى بلاد الصين ، بل وفكر فى تسخير جزء من الصين أسوة كما فعل جنكيز خان ٠ وزين له قواده هذا العمل ، وبدأ هو نفسه يغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمها « ظل الله » « والاسكندر الثانى » و « سنجـر الثانى » ٠ وما أن وصلت اليه أنباء استيلاء جنكيز خـان على مدينـة بكين عاصمة دولة الصـين الشمالية ، أراد أن يستوضح الأمر ، فأرسل وفدا من كبار دولته برئاسة شخص يدعى « السيد الأجل بهاء الدين الرازى » الى الصين يحمل رسـالة الخوارزمشاه الى جنكيز خـان ٠

استقبل جنكيز خان الوفد استقبالا حافلا ، واستضافه ضيافة كاملة ٠ وعندما استأذن الوفد فى العودة ، أرسل جنكيز خان معه رسالة الى السلطان ذكر فيها ترحيبه بالوفد ، وأخبر السلطـان أنه ملك المشرق وأنه يعتبـر الخوارزمشاه ملك المغرب ، ويأمل أن يدوم بينهما الصلح والسلام وتتوطـد أواصر العـلاقات بينهمـا ٠

ولا شك أن أفعـال جنكيز خان لا توضح حسن نيته أو جنوحه للسلام والصفاء مع أى زعيم دولة جاورته ، كذلك خططه لا تشير الا لروح عدوانية ، لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين مستندة الى حق السيف وحده ، وبخاصة أن مشاكله فى شرق آسيا ، واضطراره الى توطيد نفوذه فى الأقاليم الصينية تمنعه من أن يشـغل جيوشـه فى البلاد الخوارزمية أيضا ، فهداه تفكيره الى عقـد معاهدة تجـارية مع الدولة الخوارزمية تكون الصلة بينه وبين الأتراك الخوارزميين ، ويستطيع من خـلالها معرفة أحوالها ويكون على صـلة برجالها ، ويمليهـا على الخوارزميين وتتضمن بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول ٠

---

(٣٦) المرجـع نفسـه ، ص ٤٨ ٠

وفى عام ٦١٥ هجرية (١٢١٨م) حـدث أن استقبل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وهو فى مدينة بخارى بعد عودته من الأقاليم العراقية وهزيمته هناك وهو يحاول اخضاع الخلافة العباسية ، ثلاثة من التجار المسلمين من اتباعه قادمين من قبل چنكيز خان ، وهم : محمود يلواج الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأوترارى . وقد حملهم چنكيز خان الكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى منها سبائك من الفضة وبعض الطيور الثمينة والآحجار الكريمة والمنسوجات الصوفية(٣٧) ، كما حملوا معهم رسالة وجهها چنكيز خان الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : « ليس يخفى على عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ، وقد علمت بسطة ملكك ، وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضا أننى ملك الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبـائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة ، وأن فيها الغنى عن طلب غيرها ، فان رأيت تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد »(٣٨) .

وكان وقع الرسالة على السلطان شديدا ، ودرس مستشاروه رسالة چنكيز خان واستقر رأيهم جميعا على أنها تحمل فى طياتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع ، فقول چنكيز خان أن علاء الدين محمدالخوارزمشاه فى منزلة الابن معناه التبعية لچنكيز خان ولها شواهد عديدة فى المعاهدات التى كتبت بين أمراء آسيا فى ذلك الوقت الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الأطراف المتحالفة . كذلك تعمد چنكيز خان أن يخبر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين ، وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه(٣٩) ، فاعتبر السلطان

(٣٧) مير خواند : روضة الصفاء ، ج ٥ ، ص ٧٦ و ٧٧ .
(٣٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٣ و ٨٤ .
(٣٩) راجع قصة استدعاء السلطان علاء الدين محمد للسفير
=

علاء الدين محمد الخوارزمشاه ـ وهو تركى الأصل والأرومه ـ أن هـذا القول يحمل معانى التهديد والوعيد لا سيما وأنه تركى ·

وأخيرا استقر رأى السلطان عـلاء الدين محمد الخوارزمشاه على عقـد المعاهدة التجارية بينه وبين الدولة المغولية وهـو كاره ابرامها · وبدأ التبادل التجارى بين الدولتين ، ونشطت جموع التجار من المسلمين والصينيين كلتا الدولتين فى التعامل التجارى ·

ولم يمض قصير وقت على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين ، المغولية والخوارزمشاهية حتى أقـدم جنكيز خان على اجـراء اعتبره السلطان الخوارزمى عملا عدوانيا لا يصح فعله من رئيس دولة صديقه بينهما اتفاقات ومعـاهدات ورسائل متبادلة ، بـل اعتبرها السلطان علاء الدين محمد استهانة بحقوقه وتعديا على دولته · ذلك أن جنكيز خان قام من جانبه باخضـاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة فى أواسط آسيا بحجة تأمين الطرق التجارية ، والضرب على أيدى المعتدين من اللصـوص وقطاع الطرق ، حتى تكون التجـارة فى مأمن من شرورهم وعبثهم · وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله ، وكلفهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة الىمعسكرات المغول(٤٠) ، وكان هؤلاء الحراس يسمون « قداقچية » أى المستحفظون(٤١) ·

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الى أعمال جنكيز خان داخـل بلاده واعتبرها عدوانا على بلاده وغضب غضبا زائدا لكنه لم يظهر عداءه السافر ، واستمر فى تعامله مع الدولة المغولية لعله يستطيع معالجة الأمر أو احتوائه دون نشوب حرب بين الطرفين ·

المغولى محمود يلواج الخوارزمى وما دار بينهما من حـديث ، انتهى باقناع الخوارزمشاه بتوقيع الاتفاقية التجارية ، فى كل من النسوى ، سيرة السلطان جـلال الدين منكبرتى ص ٨٤ ، ومير خواند فى روضة الصفا ص ٧٧ و ٧٨ ·

(٤٠) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom. I, P. 204.

(٤١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ ·

ثم حدث ما قطع الصـــلات الودية بين الدولتين وتبدلت العـلاقات الطيبة بعلاقات عدائية وخصومة ، وذلك أثر حادثة اعتبرت المواجهة الحقيقية بين جنكيز خان والسلطان عـلاء الدين محمـد الخوارزمشـاه . بـدأ بمسير ثلاثة من التجار المسلمين من رعايا الدولة الخوارزمية ومن اهل بخارى الى أقصى الشرق حيث معسكرات المغـول وبلاط جنكيز خان ، يحملون معهم البضـــائع من الثياب المذهبة والكرباس(٤٢) وغير ذلك . وقـد خفرهم حراس الطرق (المستحفظون) المغول وبدلا من أن يتركوهم بعـد وصولهم لتسويق بضائعهم قادوهم الى بلاط جنكيز خان بعـد أن وقفوا على ما معهم من السلع ، وعرفوا أن مع أحدهم ، ويدعى أحمد من الثياب ما يليق بمقام جنكيز خان نفسه . فلما مثل بين يدى الخاقان طلب أثمانا باهظة لبضاعته حنق عليه ، وصادر بضاعته ووزعها على أفراد حاشيته ، ثم قبض على التاجر . ولـما مثل التاجران الآخران أمام جنكيز خان لم يجرؤا على طلب ثمن البضاعة ، وتظاهرا بأنهما جاءا لتقديمها هـدية للخاقان فما كان من جنكيز خان الا أن أمطر هذين التاجرين ذهبا وفضة ، وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث رفيق الرحلة فعفا عنه(٤٣) .

وأقام هؤلاء التجار الثلاثة فى أراضى الدولة المغولية فترة كانوا فيهـا موضع التكريم ، وعاملهم المغول معاملة ممتازة . ولـما هموا بالرحيل أمـر جنكيز خان بأن يرسل كل أمير فى دولته ، وكل قائد من قواده العسكريين رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون تجارة مغولية الى غرب آسيا وبيعهـا فى الأسواق الخوارزمية ، وشراء بعض المنتجات التى يحتاج اليها المغول . وقـد تكون هذا الوفد بسرعة وبلغ عدده أربعمائة وخمسين رجلا من المسلحين كما ذكر الجوينى ونقل عنه دوسون ، وان كان ابن العبرى قـد ذكر أن عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط ومن جميع الأديان دون تفريق(٤٤) .

وزود جنكيز خان هـذه الجماعة العسكرية المتخصصة فى التجسس

---

(٤٢) الكرباس : الثوب الخشن ، وذكرها أدى شير فى « الألفاظ الفارسية المعربة » على أنهـا فارسية معـربة بمعنى الثوب من القطن الأبيض ، وأن أصلها يونانى ، ص ١٣٤ .

(٤٣) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom I, P. 204.

(٤٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠ .

والاستطلاع وجمع المعلومات بمبعوث مغولى حمله رسالة الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : « ان التجار وصلوا الينا ، وقد أعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغى أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق فى ذات البين »(٤٥) ٠

وسار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية ، ووصلت القافلة بكامل هيئتها وتشكيلاتها الى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون ، وكانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربيها ٠ وكان يحكم المدينة فى الوقت الذى وصلت فيه القافلة « اينال خان » والذى يعرف أيضا باسم « غاير خان » ، وهو ابن خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحت امرته عشرون ألف فارس(٤٦) ٠

هال الحاكم اينال خان ورود هذا الجمع من التجار ومن صاحبهم من الرجال العسكريين الى الدولة الخوارزمية ، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا البلاد الاسلامية للتجارة كما يزعمون ، وانما غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين وتحديد استحكاماتهم ٠ وعندما تأكد أنهم ليسوا من طبقة التجار ، وأنهم من العسكريين ، كتب الى الخوارزمشاه يخبره بأمرهم ، فأوصى بمراقبتهم ، وبعد فترة أمر بمصادرة أموالهم وارسالها اليه وقتل جميع أفراد القافلة ٠ وفعلا نفذ غاير خان حاكم مدينة أوترار أوامر السلطان الخوارزمى ونفذ المهمة على خير وجه ٠ أما البضائع المصادرة فقد باعها السلطان علاء الدين محمد لتجار بخارى وسمرقند(٤٧) ، وذكر النسوى هذه الواقعة بقوله : « ان هؤلاء القوم قد جاءوا الى أوترار فى زى التجار ، وليسوا

---

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ٠

(٤٦) ذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ص ٣١١ ، والديار بكرى فى كتابه تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٦٨ ، ان اينال خان حاكم مدينة أوترار هو خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وليس ابن خاله ، كما ذكر النسوى فى كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٥ ٠ ونؤيد النسوى لانه مؤرخ الخوارزميين وشاهد عيان بل وشارك فى الاحداث نفسها ٠

(٤٧) ابن الاثير ، جـ ١٢ ، ص ١١٦ ٠

بتجار بل أصحاب أخبار ، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، اذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولون : انكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيكم ما لا قبل لكم به ٠ وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم الى أن يرى فيهم رأيه ٠ فحين أرخى عنانه فى الاحتياط عليهم تعدى طوره ، وعدى شوطه ، فقبض عليهم ، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم ، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة ، والأمتعة المنضدة ، مكيدة منه وغدرا ، وكان عاقبة أمره خسرا »(٤٨) ٠

كذلك علق على هذه الواقعة عطا ملك الجوينى مؤرخ المغول بقوله : « ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء ، كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف من أرواحهم »(٤٩) ، وأيضا علق على الحادثة المستشرق الروسى بارتولد بقوله : « ولا بد أنها درت عليهم أرباحا طائلة ولا سيما اذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة رجل »(٥٠) ٠ أما النسوى فانه ذكر أن أفراد تلك القافلة لم يكونوا تجارا وانما هم جواسيس ، ومع ذلك نجده يقبح مافعله حاكم أوترار بشأنهم(٥١) ٠ ونرى أن الحدث الذى أقدم عليه حاكم أوترار بتأييد من السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه كان خاطئا من بدايته ، وكان يمكن للخوارزمشاه احتواء المشكلة واعادتهم الى دولتهم دون قتلهم أو حتى اهانتهم وأيضا دون شراء المسلمين بضائعهم أو شرائهم بضائع من الأسواق الاسلامية مما يشعر قادة المغول أن الدولة الخوارزمية قد فهمت الغرض الذى من أجله حضر هؤلاء الأشخاص ، وأنها حرصا منها على حسن الجوار والسلام أقدمت على هذا الاجراء وأعادت الجواسيس سالمين فتكون بذلك قد أوصدت بابا فى وجه جنكيز خان ولا تعطيه الفرصة لاعلان الحرب أو معاداة الدولة الخوارزمية ٠

ولما وصلت أخبار تلك المذبحة البشرية الى مسامع جنكيز خان ،

---

(٤٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٦ ٠

(٤٩) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٦١ ٠

(٥٠) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invation, P. 398.

(٥١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٦ ٠

بسبب تواجد شخص مغولى بعيدا عن الخيام لقضاء حاجة وتمكنه من الفرار ، استشاط غضبا وهاله الأمر ، ومع ذلك رغب فى تسوية حسابه مع الخوارزميين بالطريق السلمى ، فأرسل الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسولا من المسلمين يدعى « ابن كفرج » ، كان أبوه أميرا من أمراء السلطان علاء الدين تكش والد السلطان علاء الدين محمد ، فسار ومعه عضوان آخران من المغول يحملون رسالة من جنكيز خان كلها تهديد ووعيد ويطلب فيها تسليم حاكم أوترار تكفيرا عما حدث ، وذكر النسوى نص تلك الرسالة ، وقد جاء فيها : « انك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، وألا تتعرض الى أحد منهم ، فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ومن سلطان الاسلام أقبح ، فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الى لأجازيه على ما فعل ، حقنا للدماء ، وتسكينا للدهماء ، والا فاذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح »(٥٢) ٠

وما أن قرأ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسالة خاقان المغول ، حتى أمر بقتل ابن كفرج وزميليه ، وكان ذلك فى سنة ٦١٥ هجرية (١٢١٨م)، وان كان المؤرخ دوجلاس قد ذكرأن الخوارزمشاه لم يقتل الرسل الثلاثة ، بل قتل رئيسهم ابن كفرج بمفرده ، وأطلق سراح الآخرين ، بعد أن حلقت لحيتاهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيز خان كما شاهداها(٥٣) ٠

وسواء أأقدم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على قتل مبعوث جنكيز خان ابن كفرج بمفرده أو معه زميليه المغوليين ، فان السلطان ارتكب حماقة بقتل الرسول ومن معه ، وهى بلا شك سنة قبيحة ، وعادة غير شريفة ، لم نجد لها مثيلا وسابقة فى الاسلام الا ما ندر ، ولا بد أن الخوارزمشاه أقدم على ذلك الاجراء تحت ضغوط سياسية ونفسية صعبة ، تعود الى الناحية الداخلية ليس أكثر ٠ وكانت مطالبة جنكيز خان للخوارزمشاه تسليم ينال خان المغول لمعاقبته على فعلته واصراره على ذلك ، بعد أن أعلن

---

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠

(٥٣) Douglas : The Life of Jenghiz Khan, P. 15.

السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أنه لم يحط علما بالموضـــوع ، وأن حاكم مدينة أوترار أقدم على ذلك دون اذن منه • فوجد الخوارزمشاه نفسه ـ بعد تصريحاته تلك ـ مطالبا بتسليم شخص له وزنه السياسى ووضعه الاجتماعى فى الدولة الخوارزمية ، خصوصا وهو ابن خال السلطان نفســه وتربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة ، ومن عشيرة أمه تركان خاتون التى فاق نفوذها فى الدولة الخوارزمية نفوذ السلطان عــلاء الدين محمـد نفسه ، بفضل سيطرتها على شئون الدولة وأجهزتهــا الادارية وتعضيد الجيوش الخوارزمية لها • وكانت الظاهرة المتفشية فى عصر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه تواجد كثير من رجــال الدولة من أقرباء تركان خاتون أو من عشيرتها يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأمرها • فاذا فرض وقام السلطان علاء الدين محمد بتسليم اينال خان للمغول كطلبهم ، فانه لا محالة سيواجه ثورة داخلية من جانب رجال الجيش ، واخلال بالأمن قــد يؤدى فى النهاية الى الاطاحة به • أما من ناحية المغـــول فسوف يعتبرون ذلك تسليما من الخوارزمشاه لهم واعترافا بضعفه أمامهم • ففضل قتل الرســل الثلاثة • وبذلك تحددت العلاقات بين المغــول والخوارزميين •

وكان قتل الرسل على النحو الذى ذكرناه والطريقة التى تمت بهــا ، بمثابة اعلان الحرب بين الفريقين ، فأخذ كل منهما يستعد لمواجهة الآخر • وشرع الخوارزمشاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن ، وشغل نفسه ليل نهار برسم الخطط الحربية ، حتى صار لا يتكلم الا فى الموضوع ، ولا يكلمه أحــد الا فيه • أما جنكيز خان فانه انصرف بدوره يستعد لمواجهة الخوارزمشاه ، فنظم دولته من الداخل وجيش جيوشه وجهز معدات القتال ،وجند لهــذا الغرض كل قادر من المغــول والتتـــار والترك فى دولتــه •

ان مذبحة أوترار تعتبر بداية الصراع الذى جــر الوبال على البلاد الاسلامية ، حتى أن المؤرخ الدياربكرى عندما أراد تأريخ الواقعة والتعليق عليها قال : « فيالها من قتلة ما كان أقبحها ، أجرت كل قطرة من دماء الرسل

سيلا من الدماء »(٥٤) . ونفس الشيء ذكره فامبرى فى كتابه حيث قال :
« ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء
كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم »(٥٥) .

---

(٥٤) الدياربكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ،
جـ ١٢ ، ص ٣٦٨ .

(٥٥) Vambery : History of Bokhara, P. 117.

الفصل الثالث

حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية :

أعد جنكيز خان حملته لمحاربة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وكان يعتقد أن القوات الخوارزمية أقوى وأكبر مما تصور ، وشرع يتحرك نحو بلاد ما وراء النهر فى خريف عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وبرفقته أمراء القرلق وألماليق والأويغور ٠ ويرى المؤرخون أن القوات المغولية كانت ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندى ، وأن الجيش الخوارزمى كان أكثر من ذلك بقليل ، لكن ضعف همة الخوارزمشاه والخلافات التى كانت بين قادة الجيش والدعايات المخيفة عن العدو مكنت جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية فى فترة قصيرة جدا بالنسبة الى عظم المساحة التى استولى عليها المغول بحد السيف ، فهى لا تزيد على أربع سنوات ، اذ وصل جنكيز خان الى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) ، وأتم له اخضاع تلك الدولة ، وفعل ما فعله بأهلها ومدنها ، ثم عاد فعبر نهر سيحون عائدا الى منغوليا سنة ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣ م) ٠

استعدادات الخوارزمشاه وخطته الدفاعية :

اجتمع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بالأمراء وقادة جيشه وكبار رجال دولته ليطلعهم على خطته ويعرض عليهم ما ينويه المغول وخططهم واستعداداتهم ٠ واقترح الامام شهاب الدين الخيوقى الذى كان يعتقد فيه السلطان كثيرا بأن يرسل المندوبين والرسل والرسائل الى كافة بلاد المملكة لجمع العساكر واستنفار الناس للدفاع عن الاسلام وجمع التبرعات والمعونات لايقاف عبور المغول نهر سيحون ، لكن أمراء الجيش لم يستحسنوا هذه الفكرة ، ورأوا أنه من الأفضل ترك المغول يعبرون نهر سيحون واصطيادهم بعد ذلك فى بلاد ما وراء النهر التى لا يعرفون مسالكها ، بل وقطع المدد عنهم واهلاكهم آخر أمر ٠ واقترح

آخرون خطـة أخرى أشبه بالسابقة ، وأخـــيرا استقر رأى السلطـان علاء الدين محمد على اصطياد المغول فى بـلاد ما وراء النهر ووزع جيشه على هـذا الأساس بين مـدن ما وراء النهر المختلفـة فى انتظار قـدوم المغـــــول ٠

خطة جنكيز خان فى حربه مع الخوارزمشاه :

وفى شهر رجب سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) بلغ جنكيز خـان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أوترار ، وتوجه اليها وتظاهـر بمحاصرتها ٠ وكانت خطة جنكيز خان محكمة للغاية ، فلم يشأ مهاجمـة الخوارزمشاه من جهة واحـدة ، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع ، وقسم قواته لهـذا الغرض الى أربع مجموعات ، عهد الى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جـزء معين من اقليم ما وراء النهر ٠ وبهـــذه الخطـة أخـذ جنكيز خان أعـداءه على غرة ، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعـدادات لمواجهته وتنفيـــذ خططهم ٠

ان المجموعات القتالية المغولية الأربع التى تشكل القوات المغولية ، كانت على النحـــو التـالى :

المجموعة الأولى : وكانت تتكون من سبع تومانات (التومان بلغه المغول عشرة آلاف) تحت قيادة ولديه چغتاى واوكتاى ٠ وكان واجب هـذه المجموعة الاستيلاء على مدينـة أوترار ٠

المجموعة الثانية : وكانت بقيـــادة ولده جوجى ، وهو الابن الأكبر لجنكيز خان ووجهته مدينة جنـد وكانت تعـد فى ذلك الوقت احـدى القـلاع الاسلامية الهامة الواقعة على نهـر سيحون ٠

المجموعة الثالثة : وكانت تتكون من خمسة آلاف جندى ، وقـــد أمـر جنكيز خان عليها ثلاثة من كبار قواده ، وكان واجبهم الاســتيلاء على مدينتى « بنـــاكت » و « خجنـــد » ٠

المجموعة الرابعة : وكانت تحت قيادة جنكيز خان نفسه ومعه ابنـــه تولوى ٠ وكانت هـذه المجموعة تشكل القسم الأعظم من الجيش المغولى والقوة

الضاربة الرئيسية ، وكانت وجهتها مدينة بخـــارى الواقعة فى قلب اقليم ما وراء النهر ، وكان من واجبها أيضا التصدى لقوات الخوارزمشاه والحيلولة دون وصولهم الى المـدن المحاصرة على نهـر سيحون من ناحية الشرق ٠

كان هجوم المغول على مدينة أوترار ، مفتاح اقليم ما وراء النهر والمدينة التى حدثت فيها مذبحة التجار المغول ، وبها اينال خان حاكم المدينة وقاتل التجار ٠ وما أن علم حاكم المدينة بقدوم المغول حتى قام باصلاح حصون المدينة وقلعتها وزودها بحامية كبيرة ، ووكل أمر الدفاع عنها أحـــد قواده المهرة ٠ وحاصر كل من جغتاى وأوكتاى المدينة خمسة أشهر فقد الخوارزميون فيها رباطة جأشهم ونفـد صبرهم خصوصـــا وأنه لم يصـــلهم مدد من الخوارزمشاه ، حتى فكر القائد الخوارزمى فى التسليم ، لكن اينال خان لم يوافق على فكرة تسليم المدينة للمغول ، وقرر الدفاع عنها الى النهـــاية ٠ وأخيرا استسلمت المدينة تحت ضربات المغول الشديدة ودخلوها عنوة فى نفس السنة (٦١٦ هـ) ونهبوها وطاردوا سكانها الذين أصابهم فزع شديد ، بينما تقهقر اينال خان الى قلعة المدينة واحتمى بها نحوا من شهر ، فقـد فى أثنائه معظم رجاله وعدته وعتاده ، ومع ذلك ظل يدافع ويقاتل الى أن وجد نفسه محاصرا من كل جانب ، فقذف بنفسه الى سقف أحد المنازل والمغول ينظرون اليه ، وأخيرا تبعه جنديان مغوليان ، ورغم أنه كان لا يملك شيئا يدافع به عن نفسه الا أنه كان يقوم بقذفهما بالحجارة التى تناوله اياها بعض النسوة ٠ وأخيرا وقع فى أيدى المغول فقادوه الى جنكيز خان ، الذى كان قـد عسكر فى ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند ، فانتقم منه ونكل به بأن أمر بصب كمية من الفضة السائلة فى عينيه وأذنيه ٠ وبذلك نفذ جنكيز خان وعيـده فى قاتل تجاره ورسله ٠ وبسقوط مدينة أوترار سقط مفتاح اقليم ما وراء النهـــر واهتزت الدفاعات الخوارزمية ازاء هـذا الحادث الكبير ٠

أما المجموعة الثانية التى قادها جوجى ، فانها توجهت الى مدينة جند ، واستولت وهى فى طريقها على كثير من القلاع والمدن الواقعة على نهر سيحون ، وتمكن بذلك جوجى من السيطرة على كل مجرى النهر تقريبا ٠ وعندما اقترب من مدينة جنـد غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم ٠ ونصب المغول المجانيق حول المدينة استعـــدادا لتحطيم

أسوارها . وهال سكان مدينة جند قوة المغول واستحاماتهم التى نصبوها حول مدينتهم ، وانقسموا فيما بينهم الى فريقين ، فريق آثر الاستسلام والنجاة بأرواحهم من الوقوع تحت سيوف المغول ، وفريق رأى ضرورة الدفاع عن المدينة ورفضوا الخضوع والاستسلام للكفار مهما كلفهم الأمر من جهد ومال وأرواح . وتشاجر الفريقان كل يؤيد رأيه حتى داهمهم جوجى ودخلت الجيوش المغولية المدينة بعد أن استولت عليها عنوة ، وسلم من سلم من أهلها ، وقتل من قاتل المغول ثم وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما من قبله ، وواصل سيره بعد نجاحه الكامل فى ما كلف به وعبر نهر سيحون الى اقليم خوارزم .

أما المجموعة الثالثة فقد سارت الى مدينة « بناكت » على نهر سيحون وتمكنت من دخولها بعد أن سلمها الأهالى ، وكان المغول قد أمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم لكنهم غدروا بأهلها وما أن دخلوها حتى فصلوا الجند عن الأهالى المدنيين ، وأعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية . ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة « خجنده » الواقعة على نهر سيحون ، فتركها قائدها والتجأ الى جزيرة صغيرة فى وسط النهر بعيدة عن شاطئيه ، فحاصروه حصارا شديدا . ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقرابة خمسين ألف من شباب الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية ، فكلفهم المغول باحضار الأحجار من الجبال المجاورة والقائها فى النهر ، وأخيرا لاذ الحاكم الخوارزمى من مكمنه بالفرار من وجه المغول فى سبعين مركبا بعد أن شحن جنده وأمتعته وسار فى النهر متجها نحو الشمال ، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبى النهر الذى سدوه بقنطرة من السفن ، فما كان منه الا أن امتطى صهوه جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس واستطاع الافلات بنفسه فقط من حصارهم والوصول الى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمى علاء الدين محمد .

جنكيز خان يستولى على بخارى ويبيد أهلها ويجعلها طعمة للنيران :

أما المجموعة المغولية الرابعة والتى كان يقودها جنكيز خان وابنه

تولوى ، فانها توجهت الى مدينة بخارى ، واستولت على المدن التى صادفتها فى طريقها وجردتها مما فيها من ذهب وفضة وأشياء ثمينـة ، وسخرت من يصلح من سكانها فى حصار مدينة بخـارى ٠ وعلى الرغم من أن الجيش الخوارزمى الذى وكل اليه أمـر الدفاع عن المدينة كان يبلغ عشرين ألف مقـاتل ، فانه ما لبث أن أنهار وخارت عزيمته وفقـد حماسه أمام استعداد المغول وقـوة روحهم المعنوية ٠

وهاجم المغول المدينة أياما متتالية بعنف وقسوة شعـر المدافعون فى أثنائها باليأس ، وقرروا الانسحاب ليـلا ، وحتى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا ، وحققوا هدفهم فى فتح ثغـرة فى جيش عدوهم ، وكانت ضربات الخوارزميين قـوية حتى أن المغـول أرغموا على الارتداد ٠ وبدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين ، نجدهم يفضلون الهـرب من المعركة ، فعاد المغول وطاردوا المسلمين أثناء هروبهم واشتبكوا معهم فى قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون ، انتصر فيه المغول وقتلوا كثيرا من جند المسلمين ٠ أما من بقى من الأهالى فى المدينة ، فقد خارت قواهم رغم كثرتهم وقرروا الاستسلام ، وأرسلوا بدر الدين خان قاضى المدينة مندوبا عنهم رسولا الى جنكيز خان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمـان لسـكانها ، فلما أجابه جنكيز خان الى طلبه فتحت أبواب المدينة لجحافل المغول ٠

ودخل جنكيز خان مدينة بخارى فاتحا ونكث بعهـده الذى أعطـاه للقاضى بدر الدين خان مندوب شعب المدينة ، وبعـد أن استسلم أهلهـا قهـرا وهبها جنكيز خان لجنوده ، فنهبوها وعاثوا فيها فسـادا وارتكبوا من الفضائح والموبقات الشىء الكثير ٠ ثم سـار جنكيز خان الى قلعتهـا لاحتماء كثير من الجنـد بها ، ودافعوا عن أنفسهم ، وتمكنوا من قتل عـدد كبير من المغول ومن المسلمين الذين استخدموا فى حصـار القلعة ٠ وهـال جنكيز خان كثرة ضحاياه فانتقم من سـكان المـدينة بأن أخرجهم منهـا مجردين من أموالهم وأمتعتهم ، ثم حمل المغول على المدينة ، وأعملوا فيهـا النهب وقتـلوا من صـادفهم من السـكان أو مـن كان متـوارى ومختبئـا من وجههم ، ثم أشـعلوا النـار فى المدينة ، فاحترقت بأسرهـا وصارت طعمة للنيران ، بحيث لم يبق من سكان بخارى الا من كان خارجها

قبل دخول المغول أو نزح الى اقليم خراسان(١) • ان المذبحة التى أقدم عليها جنكيز خان لسكان مدينة بخارى ، وضحها لنا أحد الفارين الذين تمكنوا من الوصول الى خراسان ، وقال قولة مقتضبة عبر فيها تعبيرا صادقا عما حدث « آمدند ــ كشتند ــ سوختند ــ بردند ورفتند » وترجمتها « أتوا ــ قتلوا ــ أحرقوا ــ نهبو ثم ذهبوا » •

استيلاء المغـول على سمرقنـد :

وبعد أن أجهز جنكيز خان على مدينة بخارى قصد سمرقند حاضرة اقليم ما وراء النهر ، وصحب معه عددا كبيرا من الأسرى الذين أسرهم من بخارى ليستعين بهم فى حصار سمرقند • ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الذين سيقوا لحرب اخوانهم فى الدين قتل منهم جنكيز خان فى الطريق عددا كبيرا ، وبخاصة أولئك الذين ظهرت عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير(٢) • وانضم لجيش جنكيز خان أيضا الكثير من الفرق المغولية التى انجزت أعمالها ، واستعد القاهر المغولى بمن معه من رجال وعتاد للاجهاز على مدينة سمرقند(٣) •

ان عدد أفراد حامية سمرقند كان مثار نقاش لاختلاف الآراء ، ذلك أن المؤرخ الايرانى عطا ملك الجوينى ذكر أن عددهم كان ستين ألفا من الفرس(٤) ، وذكر ابن العبرى أن حامية المدينة كانت تتكون من مائة وعشرة آلاف فارس(٥) ، أما ابن الأثير فذكر أنهم كانوا خمسين ألفا(٦) • وأضاف هيوارث أنه كان بالمدينة عشرون فيلا أعدت للدفاع(٧) •

وعلى كل فان الروح المعنوية التى ظهر بها الخوارزميون واستقبلوا

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ •
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ •
(٣) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٩٣ •
(٤) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى ، ج ١ ، ص ٩٥ ــ ٩٦ •
(٥) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٥ •
(٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٦٩ •
(٧) Howorth : History of the Mongols, part 1, P. 79.

بها أعدائهم – رغم عددهم – كانت تنبىء بسقوط المدينة فى وقت سريع على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها ووفرة جنودها ٠

وما أن ظهر المغول أمام أسوار المدينة حتى دب الذعر فى نفوس المحاصرين ٠ وأمر جنكيز خان الأسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة ، فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمى سرعان ما حلت بها الهزيمة ٠ كذلك رأى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوى الأصول التركية أن يستسلموا للمغول ، ويعرض الصلح والخدمة فى الجيش المغولى على أساس أنهم والمغول من أصل واحد ، فقبل جنكيز خان فكرتهم ووعد بادخالهم فى خدمته ، فخرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا الى المعسكر المغولى ٠ وضيق جنكيز خان الخناق على المدينة وحاصرها محاصرة السوار للمعصم فلم يجد المحاصرون بدا من الاستسلام ، فخرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها ، وقصدوا معسكر جنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين سكانها على حياتهم ، فوعدهم بالاجابة وتحقيق مطالبهم ٠ وفتحت أبواب المدينة أمام المغول فدخلوها دخول الظافرين ٠ وجريا على عادة جنكيز خان فى خططه العسكرية والاجهاز على أعدائه فانه أمر السكان بالخروج من المدينة ، فخرج بعضهم وتباطأ البعض الآخر ، فأعمل القتل فى رقاب الذين لم يخرجوا ، كما ذبح كثيرا من السكان الذين خرجوا من بيوتهم طبقا لأوامره ، وحجز مجموعة كبيرة أيضا أهداها لأولاده وحريمه وقواده ، كما اختار عددا آخر للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية ٠ ولما رأى المدافعون بالقلعة ما حل بالمدينة من دمار حاولوا الاستسلام ، لكن جنكيز خان استولى عليها عنوة وقتل من كان فيها ٠ وأخيرا سمح القائد المغولى لخمسين ألفا من السكان بالعودة الى مدينتهم سمرقند بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية (٨) ٠ وهكذا تم استيلاء المغول على سمرقند فى أوائل عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ٠

كان فتح جنكيز خان لمدينة سمرقند حاضرة اقليم ما وراء النهر نصرا للعسكرية المغولية وتتويجا لأعمال العسكرية ٠ وقبل أن يغادر القائد

---

(٨) خواجه رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، جـ ١ ، ص ٩٦ ٠

المغولى سمرقند فرض على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار ، وصحب معه الى قره قورم ثلاثين ألفا من العمال والصناع الحرفيين من أهالى المدينة ليعملوا هناك ٠

ان الاجهاز على اقليم ما وراء النهر كان ضربة قاصمة للخوارزميين فى كافة النواحى حيث كانوا يعتبرونهم خط دفاعهم الأول ، فانهارت بالتبعية بقية خططهم الدفاعية ومعنوياتهم وتحطمت نفسياتهم مما سهل على المغول بعد الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية دون عناء ٠

تسخير اقليم خوارزم :

كان اقليم خوارزم ، أهم ولايات الدولة الخوارزمية ، وكان من الولايات التى تسيطر عليها تركان خاتون والدة الخوارزمشاه علاء الدين محمد ٠ وكانت تتابع أخبار المعارك والهزائم التى منى الجيش الخوارزمى بنفس مضطربة ، وما أيقن الخوارزمشاه علاء الدين محمد بالهزيمة والتشتت راسلها ينذرها بالخطر ، وطلب منها أن تتقهقر هى ومن معها الى اقليم مازندران لتكون فى مأمن من القتال ٠ وفى نفس الوقت أرسل لها جنكيز خان رسولا يستميلها الى جانبه ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم أعماله العسكرية ٠

وبعد أن سيطرت الجيوش المغولية على ما وراء النهر ، قررت تركان خاتون مغادرة اقليم خوارزم مع وصيفاتها وأحفادها أبناء علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وحملت معها كل ماتمكن حمله من كنوز قاصدة العراق العجمى ٠ وقبل أن تغادر الاقليم أمرت بقتل من كان محبوسا من الملوك عند الخوارزميين ، وكانوا بضعة عشر نفرا ، ثم سارت بالخزائن وقافلتها النسائية ومن يحرسهم من رجال الى قلعة « ايلال » بمازندران(٩) ، لكن المغول كانوا أسرع منها ، وما أن بلغهم خبر رحيلها حتى تتبعوها فوقعت أسيرة فى أيديهم ، فقادوها وحاشيتها وأبناء علاء الدين محمد الى معسكر

---

(٩) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ٥٩ وبلدان الخلافة الشرقية ص ٤٠٩ ، والنسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٤ ٠

جنكيز خـــان حيث ظلت أسيرة لديهم ، وصحبوها معهم الى العـــاصمة « قره قورم » حيث ماتت هناك سنة ٦٣٠ هجرية (١٢٣٣م) . أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغار فقـد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه جغتاى اثنتين من بنات السلطان الخوارزمى فتزوج واحدة منهما، وأهدى الثانية لأحد رجاله المقربين . كمـا أعطى جنكيز خان ابنـــة ثالثة من بنات علاء الدين محمد لحاجبه دانشمند(١٠) .

أما اقليم خوارزم نفسه ، فانه بعد مغادرة تركان خاتون وحاشيتها له فقـد خلا من الحكام الخوارزميين وأى نوع من الادارة ، وبات ينتظـر مصيره المحتوم على أيدى المغول خصوصـــا وأن الملكة فاتهـــا تعيين حاكم علـى الاقليـــم .

اما السلطان علاء الدين محمد فانه انسحب الى همدان فى نحو عشرين الفا من جنوده(١١) ولكنه ما أن بلغه خبر أسر والدته وأبنائه وما حل بهم حتى أصابه الهم والهزيمة ، ووصل آخر المطاف الى جزيرة « آبسكون » ، يقول الذهبى ان السلطان مرض بالاسهـــال وطلب الدواء فأعوزه الخبـر فمات(١٢) ، وأسلم روحه فى ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية . فما كان من أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتى وأوزلاغ شاه وآق شاه الا أنهم عبروا البحر الى اقليم خوارزم لمواصلة الكفاح حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور . واستطاع جلال الدين منكبرتى الذى خلف والده أن يجمع جيشا كبيرا لمواجهة المغول ، لكنه واجه موقفا صعبا ، ذلك أن الجيش الذى تمكن من جمعه كان يتكون من القبائل التركية التى تنتمى اليها تركان خاتون ، والتى لم ترض عن تولى جلال الدين منكبرتى الحكم بعد أبيه ، فأراد أن يخضع الجيوش الثائرة بالقوة ، فتآمروا على قتله ، فلم يجـد السلطان الجديد بدا من الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك ، ففـر الى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط .

وما ان علم جنكيز خان بقدوم أبناء السلطان الخوارزمى وتجييشهم

(١٠) ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٧ .
(١١) الذهبى : العبر ، جـ ٥ ، ص ٥٩ .
(١٢) المرجـع الســابق ، ص ٧٠

للجيوشى حتى سير جيشا كبيرا قيادة ثلاثة من ابنائه هم : جوجى وچغتاى وأوكتاى للقضاء على المقاومة فى خوارزم • ولكى يحاصر چنكيز خان أبناء السلطان الخوارزمى من كل جهة ، أمر جيوشه فى خراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء وعلى أهبة الاستعداد ، وكان ذلك فى المنطقة الصحراوية التى تفصل خوارزم عن خراسان • وعسكر سبعمائة فارس مغولى بالقرب من مدينة نسا • وعندما قدم جلال الدين منكبرتى الى خراسان التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه هزم آخر الأمر لقلة رجاله وكثرة أعدائه . ففر الى نيسابور •

اما اوزلاغ شاه وآق شاه فكانا أسوأ حظا من أخيهما جلال الدين منكبرتى ، فقد فرا الى خراسان ولحق بهما المغول بالقرب من نسا ، ثم وقعا فى الأسر . وقطع المغول رأسيهما ورشقوهما فى سهمين ، ثم طافوا بهما فى جميع أنحاء خوارزم امعانا فى السخرية بالخوارزميين ، وانذارا للمتمردين وارهابا للأهالى المستسلمين •

وتقدم المغول نحو مدينة « جرجانية » حاضرة خوارزم والتى كانت من أكبر المدن الاسلامية وأكثرها عمرانا فى ذلك الوقت ، وطلبوا من أهلها التسليم ووعدهم المغول حسن المعاملة ، وأعلنهم جوجى أن أباه الخاقان أعطاه اقليم خوارزم ليحكمه . الا أن الأهالى آثروا المقاومة ، وحاصر المغول المدينة ستة أشهر ، وتكبدوا خسائر جسيمة ، حتى أن القادة طلبوا من چنكيز خان المدد ليعوضهم عما خسروه فى المعارك ، وأخيرا استولوا على المدينة وأشعلوا النار فى منازلها ، وأمر القائد المغولى الأهالى بالخروج من المدينة ، وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا فى مكان منعزل ، وأعمل المغول السيف فى رقاب من بقى من السكان • وكان على كل جندى مغولى أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا حتى أنه لم يبق من سكان المدينة الا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول • ولم يكتف المغول بما فعلوه فى سكان المدينة ، وما أشعلوه من حرائق ، بل انهم فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت خرابا •

وبهذه الطريقة البربرية ، او المغولية الچنكيزية على أصح تعبير ، سيطر

المغول على اقليم خوارزم ، والذى كان لهم معبرا الى اقليم خراسان لينـال ضربتهم التالية ·

الاجهـاز على خراسان :

بدأ جنكيز خان هجومه على خراسان أثناء عملية اجهازه على اقليم خوارزم · وكان أول ما فعله القائد المغولى ازاء خراسـان أن أمـر بارسال فصـائل من جيشه فى ذات الوقت الذى أرسل فيـه جيشا الى اقليم خوارزم ليسد المسالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيـلا للهرب · وتعرضت خراسان قبل ذلك بفترة يسير لغزو مفاجىء قام به كل من « جبه نويان » و « سوبوتاى » حينما كانا يطاردان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور · وكان جيش الاحتلال المغولى فى خراسان قليل العدد ، ذلك لأن القائدين المغوليين لم يهتما كثيرا باخضاع خراسان قدر اهتمامهما بمطاردة الخوارزمشاه وأسرته · ومع ذلك فقد وضعا قوادا من المغول على المدن المفتوحة واستسلم الأهالى اهم نتيجة ما سمعوه من فظـائع اقترفها المغول فى البلدان الاسـلامية التى استولوا عليها بحد السيف وبخاصة تلك التى قاوم شعبها المغول · ومع ذلك حاولت بعض المدن الخراسانية الخلاص من الحكم المغولى ، مثل قتل الخوارزميين الحاكم المغولى فى مدينة طوس ، واجهازهم على من بها من جند وتخليصها من نير المغول ،أو بمعنى أدق تطهيرها من دنسهم · واستمر الوضع قائما على ذلك ، جيش احتلال مغولى قليل العـدد ، وأهالى يخشون كارثة تقـع على أيدى المغول البرابرة ، حتى صدرت الأوامر لتولوى بن جنكيز خان بالسير الى خراسان فى خريف عام ٦١٧ هجرية (١٢٢٠م) ومعه سبعين ألفا من المغول · وفى نفس الوقت عبر الخاقان بنفسه الى الضفة الغربية لنهر جيحون قاصدا احتلال مدينة بلخ ، وتم له الاستيلاء عليها عام ٦١٨ هجرية (١٢٢١م) ، ولم يعفها من التخريب ، كما لم يعف أهلها من القتل ·

وتقدمت طلائع جيش تولوى بقيادة « طغاجار Togachér » زوج ابنة جنكيز خان وتحت امرته عشرة آلاف جندى ، وعسكروا تجاه مدينة نسا ، وتمكن المحاصرون من الانفراد باحدى كتائب المغول ، وقتلوا عـددا كبيرا منهم من بينهم قائدهم ، فحاصر طغاجار المدينة مدة خمسة عشر يوما

استطاع أن يحدث ثغرة في سورها واحتلالها ليلا ٠ وما أن طلع النهار حتى بدأ المغول يثأرون من الأهالى ، فأخرجوهم من منازلهم ٠ وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر وأن يربط ذراع كل رجل وراء ظهره ٠ ثم أجهز المغول على سكان المدينة جميعهم ، نساءا ورجالا وأطفالا ٠ حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ أكثر من سبعين ألف ٠

وانتشر المغول بعد ذلك في خراسان ، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الأهالى وساقوهم أمامهم لمساعدتهم في حصار الأماكن التى يرغبون في الاستيلاء عليها ٠ كما أرغموا حكام المقاطعات واتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار ، بل والقتال ، ومن أبى منهم قتلوه شر قتلة ٠

وسار طغاجار بعد مذبحة نسا الى مدينة نيسابور في نفس السنة (٦١٧هـ) ٠ وهاجم المدينة فقتل بسهم من سهام المسلمين ، وانسحب من تولى القيادة بعده تاركا عملية فتحها لجيش تولوى ٠

وكانت المهمة الأساسية لتولوى في خراسان تنحصر في الاستيلاء على حاضرته « مرو » والتى كانت مقر سلاطين السلاجقة ، ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر ، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان سنجر في خراسان ٠ وعندما فر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من اقليم ما وراء النهر ، أمر بنقل دواوين الحكومة والمصالح العامة ووثائق الدولة من مرو الى احدى القلاع الحصينة ٠ ووضع حامية للدفاع عن المدينة وحماية الأهالى الذين يبقون فيها ٠

الاستيلاء على مرو حاضرة الدولة الخوارزمية :

ظهر تولوى أمام مدينة مرو على رأس جيش جرار يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد غفير من أسرى البلاد الاسلامية التى خضعت للمغول ٠ وكان أول عمل أقدم عليه المغول ابادة قرابة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة بعد أن استدرجوهم في كمين فقتلوا منهم عددا كبيرا ، وفر الباقون ، وغنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التى كان التركمان قد نهبوها من مرو ٠

تلى ذلك احكام حصار المدينة وسد منافذها بقوات مكثفة حتى لا يهرب أحد من أهلها ، ووجد حاكم مرو أن لا طاقة له بمحاربة المغول ، فأرسل كبار رجال الدين الى تولوى يعرضون التسليم ، بشرط تأمين من فى داخل المدينة ، فوعدهم تولوى تحقيق طلبهم . وخرج حاكم المدينة وتوجه الى معسكر المغول يحمل الهدايا الى تولوى ، الذى استقبله ووعده بتثبيته فى حكم المدينة ، وطلب منه رؤية كبار رجال مدينته وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات ، فجد الحاكم الخوارزمى فى استدعائهم . ولما حضروا الى معسكر المغول قيدهم تولوى ومعهم الحاكم المستسلم وطلب منهم اعداد قائمة باسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جئ بهم الى معسكر المغول مع نحو اربعمائة من أصحاب الحرف والمهن ، وفعلوا ما أراد . ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان الذين أمرهم تولوى بالخروج ، فوقعوا جميعا فى فخ المغول بين قتيل وجريح وشريد(١٣) .

وما أن نجح تولوى فى تحقيق هدفه والاستيلاء على المدينة وتجريد سكانها من أى مقاومة وزع سكان مدينة مرو من الرجال والنساء والأطفال على جند المغول وأمرهم بقتلهم جميعا ، ولم يبق من السكان سوى الاربعمائة رجل حرفى الذين أبقاهم المغول للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية . وأزال المغول أسوار المدينة ومبانيها ودمروا قلعتها ، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقى ، وكان بناءا فخما ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهبا وفضة . وهلك سكانها جميعهم الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفا(١٤) . أما الجوينى فذكر أن جملة قتلى مرو بلغ مليونا وثلاثمائة ألف ، عدا الجثث التى كانت فى أماكن خفية لم يستدل عليها(١٥) .

ثم أسرع تولوى بعد ذلك الى مدينة نيسابور ، فأتى عليها بعد أن وقف أهلها جميعا يدا واحدة ضد المغول ، لكن قوة المغول وكثرة عددهم أفقدتهم رباطة جأشهم ، وأرسل الأهالى نوابا عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة ، وعلى رأسهم قاضى قضاة خراسان الى معسكر المغول ، وعرضوا

---

(١٣) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١٧ .
(١٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨١ .
(١٥) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانكشا ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

على تولوى تسليم مدينتهم ، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية ، لكن تولوى رفض التسليم وقرر الانتقام لقتل زوج أخته « طغاجار » .

ولم يمض قصير وقت حتى تمكن المغول من اختراق حصون المدينة ، وإحداث ثغرات عديدة فى حوائطها مكنتهم من دخولها من جميع جهاتها بعد أن أجهزوا على الجنود المدافعين عنها ، وتمكنوا من احتلالها والقضاء على البقية الباقية من الرجال المحاربين فيها والاجهاز على من اختبأ فى المنازل ومصارف المياه والشوارع . ودخلت ابنة جنكيز خان أرملة طغاجار يصحبها عشرة آلاف رجل ، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال . ولم يتركوا حتى القطط والكلاب . وحتى يطمئن تولوى الى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولى . وفعلا ظهر عددا منهم كانوا مختبئين بين القتلى أجهز عليهم المغول . وقد قدر عدد من قتل سكان مدينة نيسابور بنحو مليون ونصف المليون(١٦) .

وانتقل تولوى بعد أن أجهز على نيسابور الى مدينة هرات ـ التى كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة ـ وعسكر فى سهل خصيب يشرف عليها . وأرسل رسولا من قبله يطالب الى أهلها التسليم والا فسيلقون جزاءا كبيرا ، غير أن القتل كان نصيب ذلك الرسول ، واستعد حاكمها للدفاع عنها . فأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها فى آن واحد . وبعد ثمانية أيام عرض حاكم المدينة التسليم بشرط تأمين الأهالى على أرواحهم ، فوافق تولوى على ذلك . وما أن دخل المدينة حتى أمر بقتل عدد كبير من جند الخوارزميين من أتباع السلطان جلال الدين منكبرتى الذى خلف أباه علاء الدين محمد على حكم الدولة الخوارزمية ومسئولية الدفاع عن الاسلام والمسلمين . كما قتل تولوى أيضا اثنى عشر ألفا من سكان المدينة المدنيين . ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكما مسلما على مدينة خوارزمية ، وان كان ذلك الحاكم هو الآخر كان تحت رقابة حاكم مغولى(١٧) .

---

(١٦) مير خواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ص ١١٧ ـ ١١٩ .
(١٧) مير خواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ١١٩ ـ ١٢٥ .

وبعــد أن أجهز تولوى على مدينة هرات ، تلقى أمرا من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان فى أعالى نهر جيحون • وكان الخاقان قــد عزم على الرحيل الى منغوليا ، وبذلك خضع اقليم خراسان برمته للمغول بعــد أن دمروه تماما •

خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول :

انتهت المرحلة الأولى من تحطيم الدولة الخوارزمية ، والتى استولى المغول فيها على أقاليم ما وراء النهر وخوارزم وخراسان • وتلى ذلك مرحلة أخرى تتمثل فى مطاردة المغول للسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه • وقــد تولى هــذه المهمة القائدان الشهيران « جبه نويان » و « سوبوتاى » ، وكانت تعليمات الخاقان لهما بالسير فى أثر السلطان الخوارزمى فاذا وجداه على رأس جيش كبير يتجنباه انتظارا لوصول المدد من الجيوش المغولية ، أما اذا ركن السلطان الى الفرار ، فيجب عليهما أن يتتبعاه بلا تردد •

وقــد ظهر اليأس على السلطان علاء الدين محمد بعــد أن رأى اكتساح المغول لبلاده ، وشلت حركته وانهارت مقاومته ، كذلك ما لبث أن تسرب اليأس الى رجــال الخوارزمشاه • أما السلطــان فآثر الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معا ، وبدأ يستعد للهرب عازما الرحيل الى الأقاليم الغربية من بلاده علـه يجد الأمن فيها • أما رجاله وقادة جيشه فان كل واحد منهم بدأ يفكر فى نفسـه ويسعى للحفاظ على حياته بعــد انهيار الدولة واكتساح المغول العالم الاسلامى •

وفى نفس الوقت الذى قرر فيه علاء الدين محمد الخوارزمشاه الهروب عقــد مجلسا طــارئا ضم وزراءه وكبار قادته للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لواجهة الموقف المتدهور • وانقسم المجتمعون فى الرأى ، فريق رأى أنه لم يعــد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر وأنه يجب التركيز لحمــاية الأقاليم الواقعة غربى نهر جيحون • وفريق آخر رأى وجـــوب انسحاب السلطان علاء الدين محمد الى غــزنة ، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها المغول بعــد تنظيمها واستعدادها للقتال ، وان حلت الهزيمة

بالجيش الخوارزمى يمكن الانسحاب الى الهند ومعاودة الكرة مرة بعد اخــــرى ٠

وفضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الرأى الثانى ، وسار فى طريقه الى غـزنة ، لكن حدث وهو فى مدينة بلخ ما دفعه الى تغيير خطته والاتجاه نحو العراق العجمى اثر ايعاز من وزيره « نظام الملك » الذى زين له الاتجاه الى الغرب لعله يجد هناك المـال والرجال لمساعدته فى محنته لصد المغول ٠ وما أن وصل السلطان علاء الدين محمد الى مدينة نيسابور ، علم أن المغول قـد عبروا نهر جيحون ، وأنهم يجدون فى البحث عنه ، لذلك بادر الى مغـادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمى ٠

وجـد القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فى السير للحـاق بالسلطان الخوارزمى كتعليمات الخاقان ، وكل منهما يقود فرقة من ألف جندى مغولى ليس أكثر ، واستوليا على مدينة الرى ٠ وقبل استيلائهم على الرى عثروا مصـادفة وهم فى الطريق على والـدة السلطان « تركان خاتون » التى انسحبت من خوارزم وأرادت أن تعتصم بقلعة فى العراق العجمى ، فأسروها ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر ، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم الى جنكيز خان ٠ وكان لسقوط مدينة الرى فى أيدى المغول أثر كبير على نفسية السلطان عـلاء الدين محمد الذى كان حتى ذلك الوقت يفكر فى المقاومة ، أما بعـد ذلك فانه أخذ يفكر فى الهرب والخلاص ٠ كذلك كان حـال الخوارزميين فانهم أيقنوا أنه لا فائدة من الدفاع ، وأخـذ كل منهم يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك ، وهرب الجنود ، وتركوا السلطان بمفرده يواجه الموقف الصعب ٠ كما استولى الفزع على الأهالى ، وبدأ كل شخص ينظر الى نفسه وتدبر حاله والتنصل من المسئولية حتى أصبحت البلاد دون قادة أو حكام ، كل يواجه مصيره بنفسه ٠ وعندما دخل المغول مدينة الرى وجدوا سكانها مختلفين مع بعضهم ، وأصحاب المذاهب الاسلامية فى قمة خلافاتهم فى تفسير بعض نصوص القرآن الكريم مما سهل على المغول الاستيلاء عليها بسهولة ويسر ، وقتلوا كل من كان فيها ٠

موت السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه :

فضل السلطان عـــلاء الدين محمد الخوارزمشاه التوجه الى اقليم مازندران ، وفعلا تمكن من الوصول الى ذلك الاقليم الذى لم يكن قـد أصيب بشىء على أيدى المغول ، واستقبله أمراء تلك الجهات بكل ترحاب ونزل بينهم بما يليق بمقامه . وكان يرافقه ثلاثة من أبنائه هم : جلال الدين منكبرتى وأوزلاغ شاه وآق شاه · ولمـا سأل عن قاعة أمينة يمكنه الاحتماء بها ، أشاوروا عليه بالالتجاء الى احدى الجزر فى بحر قزوين لا تبعد كثيرا عن ساحل مازندران · ورأى السلطان عـلاء الدين محمـد نفسه يعمل بتلك المشورة ، وانتظر عـدة أيام فى احدى القرى الواقعة على ساحل البحر ، لكن المغـول لم يلبثوا أن اقتفوا أثره واستدلوا على مكانه وهجموا على القرية ، فركب السلطان علاء الدين محمد احدى السفن وتوارى عن الساحل · وقـد أراد بعض الخيالة المغول اللحاق به فرموا أنفسهم فى المـاء فابتلعتهم الأمـــواج ·

وأخـيرا وصل السلطان الخوارزمى وأبناؤه الثلاثة الذين بقوا له الى جزيرة « آبسكون »(١٨) والتجأ اليها ، وأقام خيمة نصبها له أحـد الأهالى · وقـد ساعد السلطـان أهالى المنطقة الذين كانوا يقيمون على الشاطىء ، فقـد كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضروريات الحياة ·وفى نظير ذلك كان السلطان يوصى باقطاعهم الاقطاعات · ولمـا استعاد جلال الدين منكبرتى أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الاقطاعات لأصحابها ·

وجد السلطان الخوارزمى وحده فى جزيرة نائية بعيـدة عن العمـران بل والحياة ، وحـل عليه التعب والارهاق ، فمرض مما وقع له ولدولتـه ولشعبه · وما أن علم أن أمه تركان خاتون قـد وقعت فى أسر المغـول ، وأن بعض نسائه وأطفاله الذين كان قد أودعهم احدى القلاع قد وقعوا أيضـا فى أسر المغول وقتلوهم عن آخرهم ، ، اشتد عليه المرض ، وما أن شعر بدنو أجله حتى استدعى أبناءه الثـلاثة الذين كانوا يرافقونه فى رحلته ووكل

(١٨) يذكر حبيب الله شاملوئى فى كتابه « تاريخ ايران » أن جزيرة « آبسكون » كانت تقع عنـد مصب نهر جرجان ، ولا وجـود لها الآن ، ص ٤٤٥ ·

أمور دولته الى أرشد ابنائه جلال الدين منكبرتى ، وأعلن أنه الوحيد الذى يستطيع حماية الدولة الخوارزمية وخلع ابنه أوزلاغ شاه الذى كان قد نصبه قبل ذلك وليا لعهده . ومما قال لأبنائه ، هذه العبارة المؤثرة التى ذكرها النسوى(١٩) .

« ان عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهنت قواعدها وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتشبثت بالملك أظفاره ، وتعلقت أنيابه وليس يأخذ بثأر منه الا ولدى منكبرتى ، وها أنا موليه العهد ، فعليكما بطاعته » .

وبعد أن قضى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى جزيرة « آبسكون » شهرا ، توفى فى ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية (١٢٢١م) . ومما يؤسف له أن المحيطين بالسلطان عجزوا عن ايجاد كفن يكفنونه به ، فقام كل من « سيد شمس الدين محمود بن يلاغ جاوش » و « مهتر مهتران مقرب الدين» رئيس ومقدم الفراشين بغسله ، وخلع سيد شمس الدين محمود قميصه وكفنه به . وأمر السلطان الجديد جلال الدين منكبرتى بدفن والده فى نفس الجزيرة .

أما القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فانهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان علاء الدين محمد ، كما تمكنا من الاستيلاء على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وأحجار كريمة وآنية ذهبية وفضية ، وبعثا بها الى الخاقان .

وسارت جيوش المغول الى همدان التى فتحت صلحا ، ثم اتجهت صوب قزوين واستولت عليها أيضا بعد أن قتل من أهلها ما يزيد على أربعين ألفا . وعلى هذا النحو وضع المغول أيديهم على العراق العجمى . واتجه المغول بعد ذلك الى آذربيجان فى نفس السنة (٦١٧هـ) حيث كان يحكمها الأتابك أوزبك بن البهلوان ، ففضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد ن غمرهم بهداياه من مال وثياب ودواب ، ودخل المغول

---

(١٩) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٢٠ .

مدينة تبريز عاصمة آذربيجان وحاضرة ازوبك بن البهلوان الذى قبل ان يكون تابعا لهم ٠

المغـــول فى غزنـــــة :

بدأ السلطان جلال الدين منكبرتى عهده بأن قرر اتخاذ غزنة قاعدة للنضال الاسلامى ضـد المغول ٠ وبدأ يكاتب الأمراء والحكام ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد ، لكن المغول كانوا يتعقبـونه من مـكان لآخر لمعرفتهم انه أقوى الأمراء شوكة وأجراهم على الحرب والنزال ٠ وأخـيرا وصل جلال الدين منكبرتى الى غزنة حيث رحب به الأهالى ، وانضم تحت لوائه جموع غفيرة من مختلف الأجناس(٢٠) وتمكن جلال الدين منكبرتى بحسن سياسته وقوة شخصيته أن يؤلف بين جنود غزنة المتنافرين ، ومن أخذتهم الحمية والغيرة على الاسلام من المتطوعين ، وأتته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم على حـد سواء الذين أدركوا أن البلاد فى خطر والاسلام فى محنة ٠ وهكذا استطاع جـلال الدين منكبرتى تكوين جيش اسلامى قوى بلغ عدده قرابة سبعين ألف فارس ٠

السلطان جلال الدين منكبرتى يهزم المغـــول :

فاجـأ السلطان جـلال الدين منكبرتى فى ربيع عام ٦١٨ هجـرية (١٢٢١م) طلائع جيش المغول الذى كان يقتفى أثره ، وانتصر عليه انتصـارا ساحقا فى معركة خاطفة قتل فيها من المغول قرابة ألف رجل منهم ، ثم ظهر جيش المغول الأساسى ، وكان قوامه ثلاثين ألف رجل ٠ وكان الصراع شديدا والغلبة تتأرجح بين القوتين المتصارعتين ٠ وأخيرا انتصر جلال الدين منكبرتى على جيوش المغـول بعـد ان سالت الدماء وغطت الأودية القريبة من ميدان القتال ، وولت خيالة المغول الأدبار ، واصطادهم جنود السلطان وأجهزوا عليهم ٠ وكان انتقام الخوارزميين من المغول شديدا ، حيث كانوا يدقون الأوتاد فى آذان الأسرى ، وجلال الدين ينظر اليهم ويعلوا وجهه البشاشة بما ظفر(٢١) ٠

---

(٢٠) النسوى : سـيرة السلطـان جـلال الدين منكبرتى ، ص ١٣٢ ــ ١٣٤ ٠

(٢١) المرجع السـابق ، ص ١٣٤ ٠

ووصلت أخبار السلطان جـــلال الدين منكبرتى الى بعض المـدن الاسلامية التى خضعت للمغول ، فظنت أن انتصار السلطان ضربة قاضية لجيوش جنكيز خان ، وأن وقت الخلاص قـد حان ، فثارت فى وجه المغول . وكانت من بين تلك المدن هرات التى اشتعلت فيها نيران الثورة عندما سمع سكانها بانتصار جلال الدين منكبرتى . وتقدم جنكيز خان بنفسه الى المدينة واستطاع الاستيلاء عليها ، وقتل من أهلها مليونا وستمائة الف رجل ، كما أجهز المغول على كل شىء فيها ولم يسلم من القتل الا أصحاب المهن والحرف الذين أبقاهم المغول للاستفادة من خبرتهم ونقلهم الى منغوليا كعـــادتهم .

ولم ينعم السلطان جلال الدين منكبرتى بانتصاره على المغـول ، ذلك أنه حدث خلاف بين قادة جيشه ، انتهى بشجار بين الأطراف المتنازعة ، حتى أن بعض القادة اعتدى على آخرين باللكم والضرب بالمقارع(٢٢) ، فانسحب أحد القادة المضروبين الى مدينة بشاور ، وانضم اليه عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لاعادتهم والصلح بين الأطراف المتنازعة . ولما وجد السلطان جلال الدين منكبرتى أن جيوشه قـد أصبحت مقصورة على الأتراك الخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الاسلامى أدرك أنه لم يعـد قادرا على مواجهة المغول . واضطر الى الانسحاب الى سهل يقع غربى نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيز خان الى اقليم غزنة للانتقام من الهزيمة التى حلت بجيشه فى سهولها .

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده عله يجد مأمنا فى بلاد الهنـــد . وما أن علم البحارة الهنود من أهل السند بمقـدم جنكيز خان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمى وجنوده على الشاطىء ولم يستطع جلال الدين منكبرتى أن يحصل الا على سفينة واحدة أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه وأولاده الأطفال . لكن المركب ما لبث أن تحطمت وتعذر عبور أسرة الخوارزمشاه . وفى هـــذه الأثناء وصـل

---

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٥٥ .

جنكيز خان الى غزنة وجد فى السير للحاق بجلال الدين منكبرتى ليحول دون عبوره النهر ٠

وهكذا أجبر چنكيز خان عدوه السلطان الخوارزمى على خوض معركة غير متكافأة ، بدأها بأسر مؤخرة جيشه وأجهز عليها ، ثم حاول أن يطوق الباقى بقوات تنتشر على شكل نصف دائرة لتسد جميع المنافذ على الجنود الخوارزمية وتحصرها بين نهر السند من جهة والجيوش المغولية من جهة أخرى ٠ ورأى جلال الدين منكبرتى أن يختار أمرين ، اما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول أو يموت اما بسيوف المغول ورماحهم ، واما غرقا فى نهر السند ٠ وثبت السلطان جلال الدين منكبرتى أول الأمر لهجوم المغول حتى انه حمل بنفسه على قلب الجيش المغولى حيث يقيم چنكيز خان فمزقه وأصابه بتلفيات شديدة ، وكاد الجيش المغولى ينهزم وتدور الدائرة عليه لولا أنه تمكن من كسر ميمنة جيش السلطان ، فانهزمت وتبددت ٠ كذلك حلت الهزيمة بالميسرة ، ووقف جلال الدين منكبرتى فى القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة ويحاولون احداث ثغرة فى صفوف أعدائهم حتى يهربوا منها ٠

السلطان جلال الدين منكبرتى يفر الى الهند كلاجىء وطريد :

ولما لم يجد السلطان جلال الدين منكبرتى سبيلا الى اختراق صفوف المغول ، ولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وهو ممتط جواده من ارتفاع عشرين ذراعا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر الى الجانب الشرقى ٠ أما جيشه الذى ثبت معه فقتل عدد كبير من جنوده فى المعارك التى نشبت وغرق الباقون الذين حاولوا العبور الى الضفة الشرقية ٠ وأسر المغول أحد أبناء السلطان وكان طفلا دون الثامنة فقتله چنكيز خان بيده ٠ يقول ابن الوردى ويؤيده فى ذلك النسوى مؤرخ الخوارزميين ما يلى : « رأى (السلطان جلال الدين منكبرتى) والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن ، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا »(٢٣) ٠

---

(٢٣) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ ٠
وأيضا النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٥٩ ٠

وهم كثير من الجنود المغولية بعبور النهر والالحاق بجلال الدين ، غير ان جنكيز خان أسرع ومنع جنوده من اللحاق بالسلطان . ولما علم جنكيز خان أن عدوه الخوارزمى أمر بالقاء كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة فى نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة فى يد المغول ، أمر بعض رجاله المتخصصين فى الغوص بالبحث عن الكنوز الخوارزمية ، فغاصوا فى النهر وأمكنهم انتشال بعض هذه الكنوز(٢٤) .

وهام جلال الدين منكبرتى على وجهه فى بلاد السند يبحث عن مأوى ، ومعه قرابة أربعة آلاف من الجنود الخوارزمية الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم والعبور الى الضفة الشرقية من نهر السند واللحاق بسلطانهم . ومن المؤسف حقا أن جنود السلطان جلال الدين منكبرتى وكلهم من الترك لم يرعوا حرمة اقامتهم فى بلاد الهند ، التى استضافهم شعبها وقدم لهم ما يحتاجونه من مؤن وعتاد وملابس ، وتصرفوا وكأنهم فى ديارهم فأغاروا على بعض أقاليم الهند العامرة وخربوها وجمعوا ما بها من ذهب وفضة واغتذوا على النساء واستولوا على عدد وفير منهن ، وفرضوا الاتاوات على الحكام والأهالى ونهبوا ما وجدوه أمامهم من ملبس ومأكل وسلاح وغير ذلك من النفائس ، وباختصار عاثوا فى البلاد فسادا مما ترك أثرا سيئا لدى كافة الهنود من المسلمين وغيرهم عن هؤلاء الخوارزميين .

وفكر جلال الدين منكبرتى فى الالتجاء الى مدينة دهلى عندما علم أن فصائل مغولية تجد فى البحث عنه . وما أن علم سلطان دهلى باقتراب السلطان الخوارزمى ورجاله من المدينة عمل على ابعاده بشتى الطرق ، فأرسل اليه الهدايا وعرض عليه صداقته ، كما عرض عليه ابنته ليتزوج منها ، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه . فامتثل السلطان جلال الدين منكبرتى لنصيحة سلطان دهلى وابتعد عن المدينة .

ان الفترة التى قضاها السلطان جلال الدين منكبرتى فى الهند كانت قاسية للغاية على سلطان مثله ، وكثيرا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل

---

(٢٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ٢٣٦ .

من هول ما أصاب دولته بعامة ، وما أصاب أسرته بخاصة ، بعد موقعة السند التي فقد فيها كل شيء ، أمه وأم ولده وابنه وحريمه وجيشه وأمواله وعرشه آخر الأمر وصار طريدا مطاردا لا يعرف ماذا تخبئه الأيام ٠

نهـــاية چنكيز خـــان :

عزم چنكيز خان على العودة الى منغوليا فى ربيع عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) ، بعـد أن دمر أملاك الخوارزميين وحطم كل محاولة فيهـا ، وجعل البلاد الاسلامية أشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، وأباد سكانها وخرب مدنها وأزال عـددا منها ٠ كذلك نجح الطاغية المغولى فى تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الذى ظـل طريدا شريدا تتلقفه مدينة وتلفظه أخرى ، الى أن مات منكسر الجناح ذليلا فى جزيرة « آبسكون » ببحر قزوين ٠ كما طارد ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتى حتى ألجأه الى بلاد الهند لا يلوى على شيء يتقبل الحسنات والهبات والمواساة ٠ وأصدر چنكيز خان قرارا ــ قبل أن يبدأ رحلة العودة ــ بقتل جميع الأسرى الكثيرى العدد الذين تجمعوا فى خيام المغول ، حيث كانت كل خيمة تضم حوالى عشرين أو ثلاثين أسيرا من الحرفيين والفنانين وكبار الشخصيات والقادة الخوارزميين وغـيرهم ، فقتلوا جميعا فى ليلة واحدة ٠ ان هـذه المذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلا حيث سالت دماء هؤلاء الأسرى على شكل نـهر سريع الجريان ، وأما هؤلاء كانوا من الشباب المسلم الذين أجبرهم المغول على القتال فى صفوفهم ، أو أصحاب الحرف والفنون أو كبار القـوم وعليتهم ٠

وسارت الجيوش المغولية فى طريق التبت أولا ، لكن الخاقان أدرك مدى الصعاب التى ستواجهه أثناء عبور الأقاليم الجبلية الوعـرة المغطـاة بالثلوج ، فعاد الى بشاور وآثر أن يسلك الطريق الذى سلكه عند قدومه الى ايران ٠ ولـما وصـل الى مدينة بلخ أمر بقتـل جميع السكان الذين عادوا وسكنوا المدينة ، ثم عبر نهر جيحون فوصل الى مدينة بخارى ومنها الى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، فلما وصل اليها خرج كبار رجال الدين فيهـا لاستقباله ، ولـما مثلوا بين يديه طلب الدعـاء له فى الخطبة ، ثم أمر باعفائهم من الضريبة التى كانوا يدفعونـهـا ٠ وفى سمرقنـد طلب

چنكيز خان أبناءه جميعا ليكونوا الى جانبه حينما يرحل الى منغوليا ٠

وقضى چنكيز خان شتاء عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) فى سمرقند وضواحيها ، ولما حل الربيع بدأ فى السير ، والتقى بولديه چغتاى وأوكتاى ، والأخير كان فى قافلته أسيرة ملكية هى تركان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد وجدة السلطان جلال الدين منكبرتى ٠ وقضى چنكيز خان السنة التالية (٦٢١هـ) فى الطريق الى موطنه الأصلى ٠ وفى هذه الفترة تقابل مع حفيديه قوبيلاى وهولاكو ، وكان الأول فى الحادية عشرة من عمره ، والثانى كان فى التاسعة ٠ وأخيرا وصل چنكيز خان الى قره قورم سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥م) ، وشرع فى محاربة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية وخاصة قبائل التانجوت ، كما أعلن الحرب على امبراطورية سونج الصينية ، واشترك چنكيز خان فى هذه الحرب بنفسه ، لكنه مات فى سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧م) ، ولم تكن الحرب قد انتهت بعد ، أثر مرض لزمه نتيجة لرداءة الجو على شاطىء نهر السند أثناء مطاردته للسلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى ، وله من العمر اثنان وسبعون عاما(٢٥) ٠

---

(٢٥) عباس اقبال : ص ٦٥ ــ ٧٠ ٠

الباب الثاني



الفصل الرابع

المقاومة الاسلامية بعد وفاة جنكيز خان :

ترك جنكيز خان الدولة الخوارزمية وعاد الى منغوليا بعد أن دمر البلاد الاسلامية وصيرها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، فأباد سكانها وخرب مدنها ، وأيضا نجح جنكيز خان فى تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحطيم دولته وتدمير مدن الدولة الخوارزمية ، ولم يتركه الا بعد أن هام على وجهه وتوفى آخر الأمر بعد أن تلقفته مدينة ولفظته أخرى ، فمات منكسر الجناح ذليلا فى جزيرة « آبسكون » احدى جزر بحر قزوين وكان قد أسند ولاية العهد الى ولده جلال الدين منكبرتى أرشد أبنائه الذى كان على رأسه ساعة وفاته ۰ أما بقية أبناء السلطان فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب الى أن استولى عليه اليأس ثم فر آخر الأمر يلتمس النجاة والخلاص ۰ وقتل من أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى المعارك كل من ركن الدين غورشاه وقطب الدين أوزلاغ شاه وآق شاه ، هذا خلاف من قتل بيد المغول من أبناء صغار كانوا بصحبة جدتهم تركان خاتون ۰ وفر غياث الدين شير شاه الى مازندران واعتصم بها حتى ابتعد المغول عنها ، ثم أخذ يظهر على مسرح الأحداث من جديد منافسا أخاه السلطان الشرعى جلال الدين منكبرتى الذى فر الى الهند كما رأينا ، وظل بها لا يلوى على شىء ۰ وهكذا توارى عن مسرح الأحداث كل أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، الا ولديه جلال الدين منكبرتى وغياث الدين شير شاه ۰

غياث الدين شير شاه بن علاء الدين محمد وحكم الأقاليم الجنوبية والغربية :

كان غياث الدين شير شاه يحكم بعض الأقاليم فى جنوب وغرب

الدولة ، ابان حكم والده السلطان عـلاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وظل فيها حتى الغزو المغولى ٠ وكان يساعده فى ذلك خاله « ايغان طائيسى » الذى كان نافذ الكلمة مطاعا فى ذلك الجزء من الدولة الخوارزمية ٠ وعندما رحل المغول عن المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية بعـد وفاة جنكيز خان ، عـاد غياث الدين شير شاه الى الظهور ، واسترد ما كان تحت يـده من اقاليم ٠ وكان معه جيش قوى متماسك القيادة لم يصبه الفشل والهزيمة التى حلت ببقية الجيوش الخوارزمية نتيجة تواجـده فى قلاع مازندران الحصينة ، لكن خاله استغل الفرصة وانفرد بالحكم ، وأيده فى ذلك الخليفة الناصر لدين الله العباسى سرا وشجعه على الانفراد بالسلطة والثورة على شير شاه ، بل أعطاه تفويضا بحكم البلاد مدفوعا الى ذلك بعدائه القديم للخوارزميين ٠ واستطاع « ايغان طائيسى »أن يجذب اليه عددا كبيرا من الجنود الخوارزمية من أتباعه المخلصين ٠ على أن غياث الدين شير شاه ما لبث أن واجـه الجيوش المنشقة وهزمها شر هزيمة سنة ٦٢٠ هجـرية (١٢٢٣م) وفر المنهزمون الى آذربيجان واعتصموا بها ٠

واستتب الأمر لغياث الدين شير شاه بعـد انتصاره على خاله « ايغان طائيسى » وأراد التوسع فقرر الاستيـلاء على أتابكية فارس سنة ٦٢٠ هجرية ، فباغت صاحبها الأتابك سعد بن زنكى واستولى على حاضرة ملكه شيراز سنة ٦٢١ هجرية (١٢٢٤م) دون مقاومة تذكر ، فما كان من الأتابك سعد بن زنكى الا الاعتصام باحدى القلاع المنيعة فى نفس اقليم فارس ، ولـما لم يجد فائدة من المقاومة تصالح مع غياث الدين شير شاه واتفقا على أن يحكم كل منهما جزءا من أتابكية فارس(١) ٠

ولم ينجح غياث الدين شيرشاه فى حكم البلاد الخوارزمية التى كانت تحت حـكمه لكثرة الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحـاك من الخوارزميين أصحاب النفوذ والسلطان البائد ، وانغماس الأمير نفسه فى الملذات والشهوات ، وأيضا قيام جنوده الأتراك بنهب البلاد وتخريب ما تصل اليه أيديهم ٠ كذلك كانت أم غياث الدين شيرشاه مسيطرة على ولدها تحركه كيفما يشاء ، وهى التى حرضته على الاستيلاء على شيراز وانتزاعها

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ٠

من الأتابك سعـد بن زنكى . وما أن تم فتح شـيراز حتى تلقبت بلقب « خداوند جهـــان » أسوة بما كانت تتلقب به تركان خاتون أم والـده عـلاء الدين محمد الخوارزمشاه . واستمرت تلك الفوضى والاضطراب الادارى والسياسى والاقتصادى يسود الأقاليم التى كانت تحت سيطرة غياث الدين شيرشـاه حتى عاد أخوه الأكبر جلال الدين منكبرتى من منفاه فى بلاد الهند .

الصراع بين جلال الدين منكبرتى وغياث الدين شيرشاه :

مكث جلال الدين منكبرتى فى الهند فترة من الزمان جمع فيها قوة اسلامية كبيرة من الجند الفارين من وجه المغول الذين التجأوا الى الهند وتمكنوا من عبور نهر السند ، وأيضا من انضم اليهم من جنود مسلمين مندفعين بروح اسلامية وحمية دينية للدفاع عن الاسلام والمسلمين . كذلك انضم الى جلال الدين منكبرتى كثير من القواد الخوارزميين الذين قدموا من العراق العجمى فرارا من تسلط أخيه غياث الدين شيرشاه وسخطهم على سياسته . وساعد هـذا المدد الاسلامى الممتلىء حماسة وغـيرة ووطنيـة جلال الدين منكبرتى على مهاجمة الأقاليم الهندية الواقعة فى حوض نهر السند ، حتى أنه أخضع بعض الأقاليم الهندية لسلطانه واستولى على خيراتها ، فغنم منها مغانم كثيرة لا تقاس الا بتلك التى اسـتولى عليهـا السلطان محمود الغزنوى عند فتحه للهند ، ومما يؤخذ عليه اقدامه على قتل كل من كان يصادفه دون تمييـز بين مسلم ووثنى ، هنـدى وغير هنـدى ممـا يؤخـذ عليه .

وتحالف أمراء المسلمين حكام اقليم السند ضد جلال الدين منكبرتى بعد أن استفحـل خطره وزادت شروره وهم الذين آووه فى محنته وقـــدموا له المعونات ابان تشرده ، وانضم اليهم سلطان دهلى ، فسار الجميع مندفعين لمواجهة جلال الدين منكبرتى وطرده من بلاد الهند برمتها . ولم يستطع السلطان الخوارزمى الطريد اللاجىء الوقوف أمام القوات المتحالفة ، وانقسم قواده الى فريقين ، فريق رأى ضرورة العودة الى أراضى الدولة الخوارزمية ، خاصة وأن غياث الدين شيرشـاه تمكن من الاحتفاظ بما كان تحت يد الدولة من أقـــاليم ، الا اقليم ما وراء النهـــر واستتب الأمر له . وزين هؤلاء

لجلال الدين منكبرتى العمل على انتزاع السلطة من يد أخيه غياث الدين شيرشاه لأنه خليفة والده وأرشد أخوته . أما الفريق الآخر فأنه آثر البقاء فى بلاد الهند - رغم قساوة جوها وصعوبة الحياة فيها - ليكون السلطان الخوارزمى فى مأمن من جنكيز خان وجيوشه الى أن تتضح الأمور .

وآثر جلال الدين منكبرتى الأخذ بالرأى الأول ، فعبر نهـــر السند فى سنة ٦٢٢ هجـــرية (١٢٢٥ م) ، وأسرع الى الأقاليم الغـــربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه غياث الدين شيرشاه ، وعين وهو فى طريقه احد قواده حاكما على مدينة غـزنه وما يليها .

وصل جـــلال الدين منكبرتى الى كرمان . فاستقبلها حاكمها التركى « براق الحاجب » الذى ينتمى الى دولة الخطا . وأسس لنفسه دولة فى كرمان سنة ٦١٩ هجرية (١٢٢٢ م) فأظهر ولاءه للسلطان الخوارزمى الجديد ، وقدم له من الهدايا ما كان فى حوزته . ولكى يؤكد هـذا الولاء عرض على جلال الدين منكبرتى الزواج من احـدى بناته ، فقبل السلطان الخوارزمى ذلك . وغادر جلال الدين منكبرتى أتابكية كرمان بعد أن تأكد خضوعها لسلطانه واتجـه الى أتابكية فارس حيث أظهر له الأتابك سعد بن زنكى ولاءه وتأييده وزوجه ايضا احدى بناته . وفى أثناء اقامة الخوارزمشاه فى شيراز قدم اليه الأتابك علاء الدين صاحب يزد معلنا خضوعه وتبعيته ، وحـذا حذو كل من أتابكى كرمان وفارس فزوج الخوارزمشاه من ابنته أيضا ، فأقره جلال الدين منكبرتى على ما بيده من بلاد . ومن يزد سار الخوارزمشاه ومعـــه جيش قوى الى مدينة أصفهان التى لم تلبث أن قدمت اليه فروض الطاعة والولاء والتبعيـة والتأييد . وتقدم الخوارزمشاه لملاقاة أخيه غياث الدين شيرشاه فى حـرب غايتهـا السلطة والمنصب .

وكان غياث الدين شيرشاه يتتبع بحذر بالغ نشاط أخيه جلال الدين منكبرتى ويستعد لحربه ان لزم الأمر . وكانت تحت امرته قوة كبيرة تعسكر على مقـــربة من مدينـــة الـرى . وكان كلمـا سـمع بتفـــوق أخيـه يـزداد تحمســـا لقتـــاله واســـتعدادا للقضـــاء عليـه . وأراد جـــلال الدين منكبرتى استمـــالة أخيـه الى جانبـه وذكـــره بوصية والدهما الا أن غياث الدين شيرشاه رفض قبول عرضهوصمم على حربه .

ووجد جلال الدين منكبرتي أن قوات أخيه تفوقه عدة وعدداًفاستعمل الخديعة وحمل جنده أعلاما بيضاء ، كتلك الأعلام التي يحملها المغول ٠ فلما رأى غياث الدين شيرشاه ذلك المنظر ظن أن أمامه جيشا مغوليا فولى الأدبار ، لكن حيلة جلال الدين منكبرتي لم تلبث أن انكشفت ، فأعاد الكرة مرة أخرى على رأس جيش كبير يتألف من ثلاثين ألف جندي من الخيالة ٠ ولما وجد جلال الدين منكبرتي أنه لن يستطيع مواجهة هذا العدد الوفير من جند أخيه ، أتاه أيضا عن طريق الحيلة والغدر . وأعلن أنه لم يأت من بلاد الهند الا ليكون بجوار أخيه والوقوف أمام المغول عدوهم المشترك صفا واحدا ، والعمل معا على اعادة الدولة الخوارزمية التي أقامها أجداده الى سابق مجدها وعزها ، بل واصلاح ما خربه المغول وانه يضع نفسه تحت تصرف أخيه ورهن اشارته ٠ وخدع غياث الدين شيرشاه بهذه الحيلة وصرف جيوشه وأمرها بالعودة الى سابق مواقعها بعد أن كانت متفوقة ومتماسكة٠ ولما اطمأن جلال الدين منكبرتي الى تفكك قوة أخيه الواقفة بجواره ، انقلب عليه وأعمل السيف في رقاب جند أخيه الذين فوجئوا به ولم يكن استعدادهم كافيا ، وهزم جلال الدين منكبرتي جيوش أخيه هزيمة منكرة ، وفر غياث الدين شيرشاه من أرض المعركة واعتصم باحدى القلاع المنيعة بالقرب من مدينة الري ٠

وبانتصار جلال الدين منكبرتي على أخيه غياث الدين شيرشاه أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وتوافد عليه قواد الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت امرة أخيه ، واعتذروا ندمهم على عصيانهم وتوسلوا اليه أن يصفح عنهم ونادوا ببيعته سلطانا على الدولة الخوارزمية . فأجابهم جلال الدين منكبرتي الى طلبهم ، كذلك أسرع اليه حكام المدن والاقاليم المختلفة الذين انتهزوا فرصة القضاء على الدولة الخوارزمية واستقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العربي في الفترة التي أعقبت رحيل جنكيز خان عن البلاد الاسلامية يعلنون طاعتهم وتأييدهم له ، فمنهم من صفح عنه السلطان واعاده الى بلاده معززا مكرما ، ومنهم من عزله السلطان عما كان بيده من بلاد ، وبخاصة أولئك الذين ساعدوا المغول وخضعوا لهم وساروا في ركابهم لتثبيت مراكزهم دون النظر الى صالح رعاياهم من المسلمين ٠

وهكذا استقر جلال الدين منكبرتى على عرش أبيه ، وعمل جهده على اعادة الأمن واصلاح ما خربه المغول ، وتجهيز جيش اسلامى للوقوف على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارىء . وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، ولم يفقد من بلاد الدولة الخوارزمية سوى اقليم ما وراء النهر لتمسك المغول بالسيطرة عليه . وأعاد الدولة الخوارزمية الى ما كانت عليه قبل المحنة ، لكنه جلس على عرش دولة تختلف عن عهود آبائه وأجداده ، اذ كانت الدولة فى عهده تعانى آثار التخريب والدمار الذى لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو جنكيز خان ، فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت خاوية تماما من أى نشاط ، وباتت طعمة للمغتصبين من الحكام والقادة ، وانتشر قطاع الطرق ينهبون الناس فى وضح النهار ، وتوقفت الحركة التجارية وأقفلت كثير من الحوانيت نتيجة موت أصحابها أو فرارهم من بلادهم .

وكان أهم سمة من سمات الدولة الخوارزمية بعد المحنة ، انعدام الرابطة السياسية والعاطفية بل والروحية بين الشعب الاسلامى رغم وجود سلطان خوارزمى واحد نتيجة انفراد كل حاكم بما تحت يده من اقطاع أو مدينة ، وأصبح لايعترف للسلطان الخوارزمى الا بتبعية اسمية منتهزين فرصة انشغال السلطان بجمع الجيوش لمواجهة المغول ومحاربة أعدائه من ملوك وأمراء المسلمين . وساعد على ذلك أن السلطان جلال الدين منكبرتى عادى كل جيرانه من الحكام عندما آنس فى نفسه قوة . وكان من أثر ذلك أنه لم يجد فى النهاية من يقف الى جانبه عندما عاد المغول لغزو الدولة الخوارزمية من جديد . ومع ذلك كانت سياسته الحفاظ على ما استولى عليه من بلدان والوقوف فى وجه أعدائه الكثيرين فى الداخل والخارج . هذا فضلا عن أنه كان يرمى الى التوسع على حساب جيرانه من الأمراء المسلمين . ويحاول الانتقام من الخلافة العباسية لسابق عدائها للدولة الخوارزمية . بينما كان كثير من الأمراء المسلمين يؤثرون مسالمة السلطان جلال الدين منكبرتى ومهادنته وعقد صلح معه ، لأنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين فى فارس ويخشون استيلاء المغول على الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بالتبعية ، فآثروا الصلح على الحرب . كما كانت شخصية جلال الدين منكبرتى القوية الشجاعة دافعا لهم على ذلك ،

لأنهم وجدوا فيه ضالتهم الكبرى والذى يمكنه مواجهة الخطر المغولى الذى بات يهـدد كيان الخوارزمشاه وكياناتهم جميعا .

زوال الدولة الخوارزمية على أيدى المغـول :

توفى چنكيز خان ـ كما سبق أن ذكرنا ـ سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) وأحوال المغول غير مستقرة . ورجع أمراؤهم وكبار رجـال دولتهم وقادتهم المنتشرون فى الأقاليم الخاضعـة للمغـول فى آسيا وأوروبا الى العـاصمة « قره قورم » لانتخاب خاقان جديد . واستمر الوضـع على ذلك سنتين الى أن تم انتخـاب « أوكتاى بن چنكيز خان » سنة ٦٢٦ هجـرية (١٢٢٩ م) خاقانا ، وأخـذ على عاتقه اخضاع الدولة الخوارزمية من جـديد .

وفى سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) أى بعـد وفاة چنكيز خان مباشرة كان أول احتكاك مباشر بين السلطان جلال الدين منكبرتى والمغول ، عندما خرجت قوة من المغول قاصدة الدولة الخوارزمية وتوغلوا فى أراضيهـا حتى أصبحوا على مقربة من مدينة الرى . وتصـدى السلطان جلال الدين منكبرتى لجيش المغول ، واستطاع أن ينتصر عليه ، بل ويبيـده عن آخـره . وفى سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٨ م) نشبت معركة أخرى بين جيش خوارزمى بقيادة جلال الدين منكبرتى وفرقة مغولية قرب أصفهان . وقـد ظن المغول أنهم فى استطاعتهم أن يلعبوا نفس الدور الذى لعبه چنكيز خان مع الدولة الخوارزمية من قبل ، فانتصر عليها الخوارزمشاه وبددها تماما . يقول الحافظ الذهبى عن واقعة أصفهان ما يلى : « أخبار سنة أربع وعشرين وستمائة : فيها جاء الخبر الى السلطان جلال الدين وهو بتوريز (تبريز) أن التتار قـد قصـدوا أصبهان وبها أهله . فسار اليها وتأهب للملتقى . فلما التقى الجمعان خذله أخوه غياث الدين وولى وتبعه جهان بهلوان ، فكسرت ميمنته ميسرة التتار ، ثم حملت ميسرته على ميمنة التتار فطحنتها أيضا ، وتباشر الناس بالنصر ، ثم كرت التتار مع كمينها وحملوا حملة واحـدة كالسيل وقـد أقبل الليل . فزالت الأقدام وقتلت الأمراء واشتد القتال وتداعى بنيان جيش جلال الدين وثبت هو وطائفة يسيرة وأحيط به فانهزم على حمية ، وطعن طعنة لولا الأجل لتلف . وتمزق جيشه الا أن ميمنته زخت فى أقفية التتار ، ورجعت بعـد

يومين فلم يسمع بمثله فى الملاحم من انهزام كلا الفريقين وذلك فى رمضان»(٢).

وجهز الخاقان الجديد « أوكتاى » جيشا من ثلاثين ألف مقاتل لقتال الخوارزميين وشن حرباً شاملة على جلال الدين منكبرتى . واستطاع ذلك الجيش عبور الضفة الغربية من نهر جيحون والوصول الى خراسان بسرعة فائقة ومنها الى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، والاستيلاء على الرى وهمدان وما بينهما من البلاد(٣) . وواصلوا سيرهم الى حدود آذربيجان سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣١ م) . وفيها يقول الحافظ الذهبى أيضا : « أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة : لما علمت التتار بضعف جلال الدين خوارزم شاه بادروا الى آذربيجان . فلم يقدم جلال الدين على لقائهم . فملكوا مراغة ، وعاثوا وبدعوا وفر هو الى آمد وتفرق جنده . فبيته التتار ليلة فنجا بنفسه . وطمع الأكراد والفلاحون وكل أحد فى جنده وتخطفوهم . وانتقم الله منهم . وساقت التتار الى ديار بكر فى طلب جلال الدين لا يعلمون أى طريق سلك .....»(٤) .

وكان هدف الحملة المغولية مطاردة السلطان جلال الدين منكبرتى والقبض عليه ، حتى اذا تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ، اطمأنوا الى اخضاعها فى سهولة ويسر . لذلك كانت حركات المغول وتنقلاتهم فى أراضى الدولة الخوارزمية فى تلك الفترة مقيدة تماما بحركات الخوارزمشاه وتنقلاته فيها . وعندما رحل جلال الدين منكبرتى الى تبريز تتبعه المغول ، وأرغموه على التقهقر الى سهل موقان المجاور للساحل الغربى من بحر قزوين قبل أن يتمكن من جمع جيوشه . وحاول السلطان الخوارزمى الاستنجاد بأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسى ، لكنهم جميعا تقاعسوا عن نصرته ، وتركوه وحيداً يواجه مصيره المحتوم . فلما وصل الى مدينة آمد فى أعالى نهر دجلة ، لحق به المغول ، وهزموه شر هزيمة ، وقتلوا وأسروا الكثير من جنده . واستولوا على ما كان معه من سلاح وعتاد ، وتفرق الباقون لا يلوون

---

(٢) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ٩٧ ــ ٩٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٢٣٠ .
(٤) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ١١٠ .

على شيء ٠ وكان السلطان جلال الدين منكبرتي ضمن من ولوا الادبار ، فتبعه خمسة عشر فارسا مغوليا وأدركه اثنان منهم قتلهما جلال الدين منكبرتي ، وعاد الباقون بعد أن يئسوا من الظفر به ٠ وأخيرا لجأ السلطان الخوارزمي الشريد الى جبال كردستان(٥) ، وهام على وجهه حتى عثر عليه رجل كردي ، وأخبره أنه هو السلطان ، فأخذه الرجل الى منزله ، وتركه ذاك الكردي تحرسه زوجته وخرج لاحضار بعض خيوله ليستعين بها في ارجاعه الى بلاده ٠ وبينما كان الكردي غائبا عن منزله أتى كردي آخر وتحقق من شخصية السلطان الخوارزمية ، وكان جلال الدين منكبرتي قد قتل له أخا من قبل ، فضربه بحربة كانت بيده فأغنت عن الثانية ٠ وكانت وفاته في منتصف شعبان سنة ٦٢٨ هجرية (١٥ أغسطس ١٢٣١ م) وان ذكر الحافظ الذهبي واقعة وفاته على أنها تمت في أوائل سنة ٦٢٩ هجرية(٦) ٠

تلى هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتي وقتله اعتداء الأهالي من سكان المدن والقرى من الفلاحين والرعاة على كل من وجدوهم من الخوارزميين انتقاما منهم لما فعلوه بهم من قبل ، مما يساعد المغول على الاستيلاء على البلاد الاسلامية ونهبها بعد ذلك ٠ واستولى المغول في سنة ٦٢٨ هجرية ـ وهي السنة التي قتل فيها السلطان جلال الدين منكبرتي ـ على بعض المدن الاسلامية مثل ديار بكر وماردين ونصيبين وسنجار ، وأخذوا يعيثون فيها فسادا دون أن يجدوا مقاومة من السكان ٠

وتقدم المغول الى آذربيجان في نفس السنة التي قتل فيها الخوارزمشاه (٦٢٨ هـ) واقتربوا من حاضرتها تبريز ، فاستقبلهم وفد من سكانها وافتدوا أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا النفيسة ، ثم تمكن المغول من الاجهاز على مدن آذربيجان بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى ٠ وساعد على استيلاء المغول على تلك المدن الهزيمة التي حلت بجلال الدين منكبرتي وتفرق جيشه ، وتمزق دولته وأخيرا اختفاؤه عن المسرح العسكري والسياسي باختفاء أخباره ، اذ لم يكن معروفا على وجه التحقيق المصير الذي آل اليه لتعلق الناس به

---

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٢٣٤ ٠
(٦) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ١١٤ ٠

وتداولهم سيرته كبطل مغوار . كل ذلك شجع حكام آذربيجان وآران على الثورة ضد الخوارزميين تقربا منهم للمغول ، فقطعوا رءوس من قبضوا عليهم ، وارسلوها الى المغول ليبرهنوا على عداءهم للخوارزميين وتاييدهم للحكم المغولى .

ان نجاح المغول فى السيطرة على الأقاليم الاسلامية التى كانت تحت سيطرة الخوارزميين وغيرهم ، من أقاليم مثل آران وجورجيا وأراضى العراق العربى ، ليس نتيجة لزوال آخر شخصية خوارزمية وقفت فى وجه الغزو المغولى حيث لم يعد هناك من يحول بين المغول وبين العبث فى أراضى العالم الاسلامى دون أن يقف فى وجههم عائق دون تنفيذ أغراضهم فقط ، بل ايضا عن تقاعس المسلمين عامة ، حكاماً وشعوباً عن نصرة الخوارزمشاه وتركه بمفرده يواجه المصير المحتوم .

عوامل زوال الدولة الخوارزمية :

ان العوامل التى أدت الى انهيار الدولة الخوارزمية كثيرة ومتشعبة ، يرجع بعضها الى ضعف العالم الاسلامى عامة قبيل الغزو المغولى لدرجة أنه كان مفكك الأوصال تتنازعه أيدى المغتصبين فى الداخل والخارج ، ولم تكن هناك قوة واحدة تستطيع أن تقف فى وجه التيار المغولى الجارف عندما قرر جنكيز خان اجتياح الدولة الخوارزمية ، والبلاد الاسلامية عامة .

ان موضوع هزيمة دولة كبيرة كالدولة الخوارزمية وفنائها فى فترة زمنية قصيرة رغم ما كانت تحويه من مدن كبيرة وحضارة مزدهرة وجنود غفيرة وشعب أصيل عاش طوال حياته يدافع عن شرفه وحقه وكرامته من اى مغير أو طارىء من خارج ايران أو من مستبد يظهر داخلها على يد شعب بدوى نصف وحشى لمن الأمور الغريبة حقا . بل نقرر أن أسباب الهزيمة وموضوعاتها المتشعبة تحتاج الى كتاب مفصل أو عدة كتب مستقلة ، كما نقرر أيضا أن السبب الواحد من أسباب انهيار الدولة الخوارزمية يكفى بمفرده لدمار دولة ، بله الأسباب مجتمعة . وبصفة عامة نوجز فيما يلى أهم أسباب النكسة الخوارزمية :

١ - استبداد وغرور وتعصب السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه

الذى واجه المغول وكان هـذا السلطان الخوارزمى مصـابا بأمراض نفسية تتمثل فى حبه للسيطرة واضـافة الممتلكات ، وتأسيسه امبراطورية على حساب القوى الاسلامية وغير الاسلامية الأخرى حتى أنه طمع فى فتح الصين وبلاد الكرج · فكان من أثر سياسته تلك أن أزم الموقف الاسلامى وحاربت الجيوش الاسلامية بعضها البعض ، وخشى كل أمير من جاره ، وانتهى الأمر بضعف تلك القوى جميعها ، وضعفت الدولة الخوارزمية أيضا · وما أن فـر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول ، لم يكن هناك أمير قـوى يستطيع أن يقود العـالم الاسـلامى ويقف به فى وجـه المغـول ·

٢ ــ تدخل « تركان خاتون » والدة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى شئون المملكة واستبداد رأيها بما كان لها من قـوة ونفوذ · وكانت تلك المالكة الخوارزمية من قبائل «قنقلى » ، وأصلهم قبائل تركية سكنت السهول الواقعة شمالى اقليم خوارزم وفى الجـزء الشمالى الشرقى من بحر قزوين · واندمجوا الى أراضى الدولة الخوارزمية اثر تصاهرهم مع السلطان علاء الدين تكش من بنات احـد زعماء تلك القبائل · وكانت تركان خاتون صـاحبة سلطان قوى سواء فى حياة زوجها أو فى عصر ولدها علاء الدين محمد · وكان من اثر ذلك أن هاجر كثير من رجال تلك القبـائل التركية من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها الى أراضى الدولة الخوارزمية ، ودخلوا خدمة ولدها السلطان علاء الدين محمد ، ووصلوا الى أعلى المناصب وأرقاها حتى تكونت منهم قوة وعصبية لا يستهـان بها بعـد أن حكموا أقاليم الدولة وأطلقت أيديهم فيها · وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن قـوة الخوارزميين تأثرت تأثرا كبيرا بتلك الطائفة بزعاماتها الجاهلة واستبدادها وطيشها وقسوتها ، وتضاءلت أمام قوة تلك الارستقراطية العسكرية ، وشعر الأهالى والسلطان بالحاجة الى وقف هؤلاء عند حـدهم ، فلما شعروا بنوايا السلطـان نحوهم عمدوا الى ارهاب الأهالى المسالمين ونهب حوانيتهم وما يملكون من حبوب وحيوانات ، فاضطرب الأمن فى البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية(٧) ·

---

(٧) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ·

ومما زاد اضطراب الأمور السياسية والادارية ســوءاً داخــل الدولة الخوارزمية أن تركان خاتون كونت لها عصبية قوية من قواد عشيرتها حتى أصبح نفوذها فى الدولة لا يقل عن نفوذ ولدها السلطان نفسه • بل وصــل الأمر بها أن كل المناصب العسكرية والوظائف الهامة فى الدولة الخوارزمية كانت فى يد طائفتها وأقاربها وحاشيتها • وكان ولاء هؤلاء جميعا للملكة تركان خاتون أكثر من ولائهم للسلطان نفسه ، بل كانوا لا يهتمون بقراراته ويصدرون ما يخالفها ويحرضون على اهمال فراماناته وقراراته بأى حجة من الحجج • وآخر الأمر كان حرص هؤلاء على الحياة كطبقة ممتــازة مسيطرة على شئون الدولة أكثر من حرصهم على سلامة الوطن الاسلامى المنهار أمامهم •

٣ ـ نشوب الخلافات بين أمراء الجيش وقادته وشيوع النفاق بينهم واهمالهم تدريب قواتهم استعدادا للقتال • وكانت كل جماعة تخالف غيرها من الجماعات ، وظهر بينهم التنافس البغيض على ارتقاء العنصر التركى وغلبته دون النظر للكفاءة والمقــدرة والاخلاص والتضحية • وفى كثير من الأحيان كانت جماعات كثيرة تخالف السلطان نفسه وتعصى أوامره ، ولا تشترك فى قتال اذا أمرهم به ، بل كانوا ينظرون أول كل شىء الى ما سيعود عليهم بالفائدة من عــدمه ، ثم يقررون على ضوء ذلك اشتراكهم فى القتال أو عدمه • وكان الجيش الخوارزمى يعتمد على الاتراك الذين كانوا فى نفس الوقت مصدر قلق واضطراب الدولة ، ولم يهتموا كثيرا بالدفاع عن تلك الدولة لأنها لا تهمهم من قريب أو بعيــد ، فهم مرتزقة أوكل اليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم كانوا يدركون أنهم اذا انتصروا فى ميــدان القتال ، فلن يعود عليهم عـــذا النصــــر بخــير كثير •

كذلك كان الجيش الخوارزمى ينقصه النظام والطاعة للقادة ، والقــدرة على تحمل الصعاب وكانت تلك الصفات من أهم مميزات الجيش المغـــولى ، فكان النصــــر حليفه فى كل معــركة •

٤ ـ كانت غالبية الجيوش الخوارزمية من أتراك القبجاق وقنقلى دون غيرهم من القبائل التركية • وكان هؤلاء لا يطيعون أمرا الا صادرا من رؤسائهم حتى السلطان نفسه ، وكان ولاؤهم لسادتهم ورؤساء عشائرهم ، وليس

للدولة الخوارزمية ولا السلطان نفسه . وكانوا يسعون للقتال لا حبا فيه ولكن حبا فى الغارات التى كانوا يشنونها بعد القتال والتى كانت تدر عليهم كثيرا .

٥ ـ معاملة الخوارزمشاه وكبار رجال دولته والخوارزميين عامة الشعوب المغلوبة فى أغلب الأحيان معاملة غير انسانية ، خاصة ملوك وقادة تلك الشعوب . وأثبت التاريخ أن عددا كبيرا من زعماء الشعوب المغلوبة من الملوك والقادة والوزراء وكبار الشخصيات العسكرية والمدنية بعد انهزامهم سيقوا الى خوارزم مكبلين فى الحديد حيث يقيم السلطان الخوارزمى ، وآذوهم كثيرا حتى أن كثيرا من هؤلاء وضعوا فى سجون أشبه بالكهوف لا يعرفون ليلهم من نهارهم ، كما أغرقوا بعضهم فى نهر جيحون دون ذنب جنوه سوى دفاعهم عن شعوبهم حتى انهزموا وأصبحت مقاديرهم فى أيدى الخوارزميين ليس أكثر .

٦ ـ معاداة الخليفة الناصر لدين الله العباسى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لمحاولة الأخير السيطرة على بغداد والحجر على الخليفة العباسى ، فنشبت بينهما الحروب . وأقدم الخوارزمشاه على تعيين أحد العلويين خليفة بعد أن فشل فى الحصول على ما كان للسلاجقة ببغداد من نفوذ أدبى وسياسى لدى الخلافة العباسية ، وتصميم السلطان علاء الدين محمد على احتلال بغداد والاطاحة بالخليفة . وكانت تلك الأحداث المؤسفة سببا فى احجام سائر طبقات المسلمين عن تقديم المساعدة عندما اجتاح المغول أراضى الدولة الخوارزمية واهدارهم الكرامة الاسلامية باذلالهم المسلمين . وما كان ذلك الا لأن غالبية المسلمين كانوا يعتقدون فى الخليفة العباسى .

٧ ـ كان السلطان علاء الدين محمد ـ حتى فى أحلك الظروف وأشدها قسوة ـ يخشى تجمع الجيش فى يد قائد واحد ، قد تحدثه نفسه بالعصيان والاستئثار بالسلطة والاطاحة بالأسرة الخوارزمية ـ كما فعلوا هم من قبل . وواقع الأمر أن قواد الجيش كانوا هم رؤساء العشائر وزعماء الطوائف الذين كانوا يستمدون قوتهم وسيطرتهم من كثرة عدد أتباعهم ، ولم يكونوا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيع أحدهم قيادة جيش كبير ومواجهة المغول أصحاب الخطط والنظريات والاستراتيجية السليمة .

٨ ــ انهيار السد المحكم بين ايران ومنغوليا ، ونقصد بذلك دولة الأتراك القراخطائيين • وكان وجود هؤلاء فى حد ذاته مانعا للمغول من مجاورة الولايات الشرقية للدولة الخوارزمية ، فانفتح بذلك أمام المغول الطريق الى ايران دون أن يجدوا عائقا يوقفهم •

٩ ــ خوف السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول وخشيته منهم وأصيب بالجبن والخور فى العزيمة منذ فراره أمام جحافلهم بعد معركة صحراء القبچاق التى نشبت بينه وبين جيش مغولى بقيادة جوجى بن چنكيز خان • وكان الخوارزمشاه قبل ذلك مشهورا بالشجاعة النادرة والقوة الجسمانية الفائقة • ولازم الخوف الخوارزمشاه فى كل مرة واجه فيها المغول ، حتى أنه كان يفر أمامهم ولا يستطيع مواجهتهم ، وفعل مثله بقية الشعب الاسلامى الذى أصيب بشلل كامل فى التفكير والتصرف ومواجهة الأحداث • وكان يسبق المغول عادة دعاتهم ينشرون بين الناس الرعب والفزع ويحرضوهم على الاستسلام حتى لا يتعرضوا للقتل والذبح كما حدث ابتداء من معركة أوترار وما فعلوه بحاميتها وحاكمها غاير خان وشعب المدينة ، كل ذلك أضعف من معنويات الخوارزمشاه ووجد أن من الصعب عليه أن يلتقى بأعدائه فى ميدان القتال ، وفضل التحصن فى المدن ، وثبت فشل خطته ، ومع ذلك استمر عليها الى أن وجد نفسه آخر المطاف مطاردا شريدا ألقت به المقادير فى جزيرة « آبسكون » ليموت فيها دون أن يدرى به أحد •

١٠ ــ نفرة الشعب الاسلامى فى مختلف الولايات الايرانية مثل خراسان وأفغانستان (بلاد الغور) ومازندران والعراق العجمى من الحكم الخوارزمى بسبب الظلم وتطاول الحكام على رعاياهم ، وابتزازهم الأموال بطرق غير سليمة أقرب الى اللصوصية منها الى العمل الحكومى الرسمى • وكانوا يحصلون الضرائب بطريقة منفردة ومؤذية ومع ذلك لم يقدموا للشعب الايرانى أية خدمات مقابل ذلك ، بل كانت تلك الأموال تصرف على الخوارزمشاه وحاشيته والحكام الأتراك وطبقة العسكريين دون سواهم • هذا علاوة على اعتداء الحكام الأتراك على السكان الآمنين وهتكهم الحرمات ، وآخر الأمر كانت الطبقة الخوارزمية الحاكمة تشكل طبقة أرستقراطية تتصور فى نفسها السيادة والسيطرة وتتعامل فيما بينها

ولا تتعامل مع غيرها ٠ وعندما جد الجد وجدوا أنفسهم محاصرين من المغول من ناحية والشعب الاسلامى من ناحية أخرى مما سهل هزيمتهم ٠

١١ ـ افتقار بلاط الخوارزمشـــاه الى المستشارين الجيدين والوزراء الممتازين أصحاب الرأى والتدبير ، ولم نسمع طوال قرن من الزمان أن وزيرا خوارزميا برز على مسرح السياسة الاســـلامية والدولية مثلما كان عند العباسيين والسامانيين والغزنويين والسلاجقة ٠ وكان كل واحد منهم يسعى للحصول على الثراء بأى وسيلة وعن أى طريق ، لأنه لم يصل الى منصبه الا عن طريق ملتو دون كفاءة ادارية أو علمية ، بل وحتى فى أحلك الأوقات نجـد الوزير نظام الملك محمد بن صالح(٨) ينفرد بالسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ويؤثر عليه ، ويجعله يغير خططه العسكرية والادارية كلية ، فبدلا من قرار السلطان التوجه الى بلاد الغور والتوجه الى غـزنه لقربها من ميدان القتال نجـد الوزير ـ وهو من المناطق الغربية ـ يزين له التوجه الى العراق العجمى ومازندران أى المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية لبعدها عن الجيوش المغولية ومسرح القتال مما أودى بالسلطان الى كارثة سريعـــة وفاجعـــة غـير متوقعـــة ٠

١٢ ـ نشوب الخلاف بين أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، سواء فى زمن ابيهم او بعـــد انهيـــار الدولة ، وتم ذلك لأنهم من أمهات مختلفة ، وكل واحد منهم يعمل بطريقته ليخلف والده ويفوز بالعرش دون سواه ، وكان كل واحد منهم يعتمد على عصبية أمه ، فجاء صراعهم مؤثرا على قادة المملكة ورجالها ، فتشتت قواهم ، وأجهز عليهم المغول واحداً بعد الآخر بسهولة ويسر ، وكان الأجـدر بهم أن يتحـدوا ويواجهوا الخطر المغـولى المدمر لكن عنادهم وكراهيتهم بعض البعض عجـل بدولتهم وجعلهم عبرة لغــــيرهم ٠

١٣ ـ السرعة الفائقة للجيش المغولى فى تنفيذ أوامر الخاقان والطاعة العمياء لكافة القادة والجنود ووقوفهم صفا واحدا وبروح نشطة مما مكنهم

---

(٨) ناصر الدين منشى كرمـــانى : نسائم الأسحـــار من لطـــائم الأخبار ـ در تاريخ وزرا ص٩٦ ـ ٩٧ ٠

من عـدم اتاحة الفرصة للخوارزمشاه لتمركز قواته واعادة خططه لدرجة أن الخوارزمشاه وجـد نفسه فى نهاية الأمر يفر أمام المغول من مدينة الى أخرى وهو مشلول الحركة فاقد حرية التصرف ٠

١٤ ـ عـدم وصول المعونات اللازمة سواء فى الأفراد والمواد الغذائية والتموينية والعسكرية الى المناطق المعرضة للغزو المغـولى ، وأيضا ترك بعض الحكام المدن والأقاليم الخوارزمية مواقعهم عندما علموا بقدوم المغول،وكان تصورهم أن فرارهم هـذا حماية لأنفسهم ولأموالهم وكنوزهم التى حملوها معهم تاركين الشعب وحده يواجه المصير المحتوم ، فأصبحت البـلاد تحت رحمة المغول وتحت وطـأة أقدامهم فقضوا على مدن برمتها بمن فيها وما كان فيها مثـل أوترار ـ خجنده ـ جرجانيه ـ نيسابور ـ هرات ، ثم الهزيمة الشاملة آخر الأمر واستيلاء المغول على كافة البلاد الايرانية بسهولة ويسر ٠

١٥ ـ وجود طابور خامس لجنكيز خان منتشر فى المدن الاسلامية عامة وبلاد الدولة الخوارزمية خاصة ٠ وكان واجب هؤلاء الجواسيس موافـاة قياداتهم بأخبار الدولة الخوارزمية واشاعة الفوضى والاضطراب والخوف والرهبة فى نفوس السكان قبل المعارك حتى لا يتمكنوا من محاربة المغول ٠

١٦ ـ اقدام المغول على القتل العام وتخريب المدن واشعال الحرائق فى مدن كاملة حتى يعجز الناس عن مقاومة المغول بعـد ذلك والاستسلام آخـر الأمر للواقع الذى هم فيه ، مثل ما حـدث لنيسابور وسمرقند وبلخ وبخارى حيث كان خوف الناس من القتـل العـام سببا فى أن جعلهم يستسلمون للمغول ٠ ومع ذلك كان جزاء الكثير منهم القتل ٠

١٧ ـ استبداد السلطان جلال الدين منكبرتى برأيه ، ومعاداته أخاه غياث الدين شيرشاه الذى استتب له الأمـر ، ونشوب الحرب بينهما وهزيمة الأخير ، فى الوقت الذى كان يتحتم على أخيه جلال الدين منكبرتى الاستفادة بمجهود كل رجل فى دولته ٠ وعنـدما ظهر المغـول فى الميدان للمرة الثانية للاجهاز على الدولة الخوارزمية والقضاء على جـلال الدين منكبرتى ، كان جيش الخوارزميين مجهدا من كثرة القتال وعـدم وجود نصير له من أمراء

المسلمين فأخذه المغول على غـرة ، ووجـد نفسه آخر الأمر يفـر أمامهم حيث ألقت به المقادير فى بلاد كردستان يذبح ذبح الشاه ، وتنتهى بنهايته السيئة الدولة الخوارزمية تماما • ونتج عن ذلك أن استتب الأمر للمغول وأصبحوا حكام البلاد وسادتها بعـد زوال الدولة الخوارزمية وعلى أنقاضها بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين ، ونعنى به السلطان جـلال الدين منكبـرتى •

الفصل الخامس

المغول من چنكيز خان حتى هولاكو خان

كان چنكيز خان يرى أن خير وسيلة لتدريب أبناءه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسئوليات والاحتفاظ بدولته التى أسسها بحد سيفه ، أن يقسم امبراطوريته وهو على قيد الحياة بينهم ، وذلك طبقا للتقاليد المغولية ، فخص كل فرد من أفراد أسرته بعدد من القبائل (أولوس) ، وجعل له موطنا (يورت) يشتمل على مساحة من البرارى تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعى ، وأن يكون له من الخراج ما يكفى للانفاق على بلاطه وعسكره · وهذا الخراج تؤديه الشعوب التى خضعت للمغول فى الصين وتركستان وايران · وطبقا للقانون المغولى (الياسا) يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وفعلا تم التقسيم على النحو التالى :

١ ـ كان نصيب جوجى وهو أكبر أبناء چنكيز ، وكان يشرف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها ، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين · وتسمى عادة تلك المنطقة بالقبچاق ، ويطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » (آلتون أوردو Golden Horde) نسبة الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى ، وكان غالب أهلها من الترك والتركمان(١) · ولما رحل جوجى قبل والده قرر چنكيز خان أن تكون تلك المناطق من نصيب حفيده « باتو » وهو ابن جوجى الذى اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث ، والتعقل والرزانة التى أوصلته ليكون رأس بيت چنكيز خان ، وظهر ذلك بوضوح عندما قام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش فى البيت الچنكيزى ·

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، حاشية ٤ ·

٢ ــ اختص جغتاى بن جنكيز خان ببلاد الأويغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة . وكان جغتاى فى حياة أبيه يشرف على القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقوانينه (الياسا) وتوقيع الجزاء والعقاب للمقصرين .

٣ ــ نال أوكتاى بن جنكيز خان المنطقة المنحصرة بين جبال «تارباجاى» وأطراف بحيرة «ألاجول» وحوض نهر « ايميل » الذى يصب فى بحيرة ألاجول ويقع غربى منغوليا . وتعد هذه المنطقة أقل نصيب وزعه جنكيز خان على أبنائه ، وكان أوكتاى مختصا بالشئون المالية والادارية وتنظيم شئون الملك وتدبير مصالح الناس والاشراف على الرعايا .

٤ ــ أما تولوى أصغر أبناء جنكيز خان ، وهو الذى كان يباشر شئون الدفاع واعداد الجيوش وأحد مستشارى والده الخاقان حتى لقب بأولغ نويان أى الأمير الكبير(٢) . فقد حصل على منغوليا وهى الوطن الأصلى لجنكيز خان والمغول ، والتى تشمل وديان وأنهار كرولين وأونون وأرخن ومنطقة قره قورم . وهو الذى استمر يحكم الامبراطورية المغولية بعد وفاة والده جنكيز خان طبقا للقانون الجنكيزى مدة عامين من سنة ٦٢٤ حتى ٦٢٦ هجرية (١٢٢٧ــ١٢٢٩م) بصفته وصيا على العرش وبمساعدة ثلاثة من المستشارين الى أن انتخب خاقان جديد خلفا لجنكيز خان .

وكان جنكيز خان قد وقع اختياره على ابنه أوكتاى ليكون ولى عهده وخليفته من بعده ، خاصة وأن جوجى الابن الأكبر مشكوك فى شرعية بنوة أبيه جنكيز خان له ، حيث ولدته أمه بعد اختطافها بمدة تؤكد ذلك وأعادها جنكيز خان مع ولدها واعتبره ابنه البكر ، وأيضا لما كان يمتاز به أوكتاى من اتساع الأفق وعمق التفكير ونفاذ البصيرة رغم ما كان لأخوته من صيت ذائع مثل شهرة تولوى فى الشئون العسكرية وما اتصف به جغتاى من صرامة يستطيع أن يفيد منها فى تحقيق المبادىء الأساسية التى تشكل نظام جنكيز خان الادارى والاجتماعى .

---

(٢) خواندمير : حبيب السير ، جـ ٣ ، ص ١٨ .

انتخاب أوكتـــاى خاقانا للمغـــول :

توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤ هجرية ، وظل العرش المغولى أو ما أطلق عليه بالعرش الذهبى خاليا من ملك مدة عامين اثنين ، وأخيرا رأى كبار الأمراء من البيت الجنكيزى ضرورة التعجيل بتنصيب خاقان جديد حتى لا يتطرق الفساد والخلل والطمع الى أساس الملك · واجتمع مجلس الشورى المغولى (القوريلتاى) فى ربيع عام ٦٢٦ هجرية فى منغوليا ، وأجمعوا على تولية أوكتاى عرش الخاقانية ، وأعلنوا تنصيبه « خاقانا » للامبراطورية المغولية ·

سار أوكتاى على نهج والده ، واهتم اهتماما كبيرا باتمام الفتوحات التى بدأها والده جنكيز خان وجيش الجيوش اللازمة لغزو ايران والصين وأوروبا · ويهمنا فى هـذا المقام حروب المغول فى ايران أكثر من غيرها ·

وسبق أن ذكرنا أن السلطـان جـلال الدين منكبرتى انتهز فرصة انصراف المغول عن البلاد الايرانية اثر وفاة جنكيز خان لاهتمامهم بشئونهم الداخلية وانشغالهم بأمور الملك والاعداد لمن سيتولاه خاصة وأنه قـد ساهم فى الانتخاب القواد والحكام والأمراء المغول المتواجـدون فى أماكن بعيدة عن الوطن الأصلى وعادوا الى منغوليا ·

وفى هـذه الفترة التى انشغل فيها المغول بأمورهم الداخلية ، انتهز السلطان جلال الدين منكبرتى الفرصة ورجع من الهند ، وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية من جـديد ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا بحيث لم تفقـد الدولة من ممتلكاتها سوى اقليم ما وراء النهر فقط ، ووفق الخوارزمشاه فى خطته الى حـد كبير وأعـاد للدولة الخوارزمية مكانتها فشملت خراسان وكرمان وفارس والعـراق العجمى وآذ ربيجان ، كما نهب الخـــوارزمشاه حصون الاسماعيلية عندما بلغه أنهم على اتصال بالمغول أعداء الاسلام وقتل منهم خلقا كثيرا وفرض علهم جزية ثقيلة · وأخذ المغول يناوئون الخوارزمشاه بغير نجاح فى أول الأمر ، حتى اذا ما تولى أوكتاى العرش الذهبى أرســـل جيشا قويا استولى به على الرى وهمـدان وما بينهما من بـلاد ، ثم قصد آذ ربيجان وأستطاع أن يوقع بالسلطان جـلال الدين منكبرتى ليلا وهـو بظاهر آمد عام ٦٢٨ هجرية (١٢٣١ م) فهزم هزيمة منكرة وتشتت جنده ، وفر السلطان الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد كما أن ذكرنا ·وبذلك تخلص

المغـول من أخطر عـدو استطاع أن يواجههم فى بسالة منقطعة النظـير ، وأصبح الطريق أمامهم ممهدا للغزو والفتح دون أن يعوقهم عائق ، وبالتالى استطاعوا فى سهولة ويسر أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الاسلامية ، وينشروا فيها الخراب والدمار ٠

واستمر أوكتاى قا آن يحكم الامبراطورية المغولية مدة ثلاث عشرةسنة الى أن توفى سنة ٦٣٩ هجرية بسبب افراطه فى اللهو والشراب ، بعـد أن ضم الى دولته البلاد الايرانية ٠ وشرعت جيوشه تناوش جيوش الخلافة العبـاسية فى العراق العربى ٠ وكانت أهم معـــركة نشبت بين المسلمين والمغول تلك التى وقعت سنة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٦م) عندما تقدمت الجيوش المغولية الى مدينة سامراء ، لكن جيوش الخليفة العباسى بقيادة مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت فى منطقة تقع ما بين دجلة وجبل حمرين ، وأن يفك عـدد كبير من المسلمين كانواقـد وقعوا أسرى فى أيدى المغول أثناء قتالهم فى أربـل ٠ وفى العام التالى عاود المغـول الكرة مرة أخرى (أى فى سنة ٦٣٥هـ) وهزموا المسلمين فى خانقين وقتلوا عـددا كبيرا منهم ٠

واشتهر الخاقان المغولى أوكتاى فى الشرق الاسلامى بكرمه ومروءته ، وهناك حكايات كثيرة تروى عن جوده وعطاياه لدرجة أنه كان يطلق عليه « حاتم آخر الزمان » ٠ هـذا الى جانب ما عرف عنه من عـدل وحب للرعية وعطف على المسلمين ، فكان على العكس من أخيه جغتاى الذى كان فظا غليظ القلب شديد الوطأة على الاسلام والمسلمين ٠

وعندما توفى أوكتاى قاآن تمكنت زوجته « توراكينا خاتون » المسيحية بداهائها وسياستها أن تحافظ على عرش المغول لابنها كيوك ، بعـد أن اختار أوكتاى قبيل وفاته ابنه الثالث « كوچو » وليا لعهـده لأنه كان يؤثره بحبه ، لكن كوچو توفى أثناء حياة أبيه ، فاختار أوكتاى حفيده « شيرامون بن كوچو» وليا لعهـده ، وكان لا يزال طفلا صغـــيرا ٠ وجريا على عادة المغول شرعت توراكينا خاتون أرملة أوكتاى فى مباشرة مهام الحكم الى أن عقد القوريلتاى لانتخاب الخاقان الجديد ٠ وكانت هـذه السيدة التى امتازت بالحزم والذكاء وقـدرات خاصة أهمها قوة الشخصية تحرص حرصا شديدا على أن يتولى

ابنها الأكبر كيوك هذا المنصب ، فعملت على أن يطول أمد وصايتها لكى تمهد السبيل لتحقيق هدفها .

كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧هـ) - (١٢٤٦ - ١٢٤٩م)

تولى كيوك خان العرش المغولى بعد مداولات دامت قرابة أربع سنوات بين أفراد الأسرة الجنكيزية ، حيث بدأت تظهر الأطماع على السلطنة والخلاف بين أفراد العائلة الواحدة . وفى عام ٦٤٤ هجرية (١٢٤٦ م) انعقد القوريلتاى لهذا الغرض على ضفاف احدى البحيرات غربى منغوليا ، حضره جميع أفراد الأسرة الجنكيزية والشخصيات المغولية البارزة ما عدا « باتو »(٣) ابن جوجى كبير أفراد البيت الجنكيزى الذى اعتذر لمرضه ، وأرسل اخوته بدلا منه ، كذلك حضره عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للمغول ، ومندوبون عن الدول الأخرى فى الشرق والغرب ، فكان من بين هؤلاء أمراء الخطا والأمير أرغون حاكم خراسان وفى صحبته أمراء وعظماء الاقاليم ، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، ومندوبون عن كرمان وفارس الموصل ، والمطالبان بعرش مملكة الكرج ، وممثلون عن الملك علاء الدين خورشاه الحاكم الاسماعيلى ، كما أرسل الخليفة العباسى مندوبا عنه .

واقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خان خاقانا للمغول ، ورغم أنه كان يتعذر عن تلبية رغبة الحاضرين محتجا بضعفه ومرضه ، إلا أنه فى النهاية قبل أن يتقلد المنصب نزولا على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وراثيا فى سلالته . فوافق الجميع على ذلك ، وأعلنوا انتخابه رسميا خاقانا للمغول . وتذكر المصادر التاريخية(٤) أن الخاقان كيوك خان عامل رسول الخليفة معاملة حسنة ، لكنه سلمه رسالة كلها تهديد ووعيد ، أما ممثلو

---

(٣) هو الأمير باتو بن جوجى ملك خانات روسيا ووادى القبچاق ومؤسس دولة القبيلة الذهبية التى اتخذت من مدينة « سراى » عاصمة لها ، وأحد كبار أمراء البيت الجنكيزى فى عهده .

(٤) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهان گشاى ، ج ١ ، ص ٢١٣ ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

علاء الدين خورشاه الملك الاسماعيلي ، فراح كيوك يصب عليهم جام غضبه وصرفهم أذلاء مهانين ، ورد على زعيمهم ردا جافا الى أقصى حد .

وكان كيوك خان على خلاف أبيه رجلا مغامرا محاربا ميالا الى الغزو والفتح ، فكان فى تلك الناحية أقرب الشبه الى جده جنكيز خان ، وصرف وقته فى تعبئة الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بذلك الى القائد المغولى الشهير « سوبوتاى » ، وأوفد « ايلچكتاى » الى ايران لفتح بقية الممالك الاسلامية ، وجعل له السلطة العليا فى الاشراف على شئون بلاد الروم والكرج والموصل وديار بكر ، ونصب محمود يلواج حاكما على ممالك الخطا ، وولى ابنه الأمير مسعود بك حاكما على ما وراء النهر وتركستان ، وعين الأمير أرغون واليا على بلاد خراسان والعراق العجمى وآذربيجان وشيروان واللور وكرمان وفارس وأطراف الهند ، وقلد السلطان ركن الدين قلج أرسلان السلجوقى حكم بلاد الروم لأنه قدم الى منغوليا بمناسبة تنصيبه امبراطورا للمغول .

وكان الأمير أرغون حاكم ايران على صلة قديمة بها ، فقد عينته « توراكينا خاتون » الوصية على العرش حاكما على ايران سنة ٦٤١ هجرية ، وحضر الى خراسان فى نفس السنة ومنها قصد الى العراق العجمى وآذربيجان ، وصار يعمل على تخليص البلاد من ظلم واستبداد الحكام المغول الذين سبقوه ، كما سلك مع الرعية سلوكا حسنا(٥) ، ومن أعمال أرغون اختياره بهاء الدين الجوينى والد المؤرخ عطا ملك نائبا عنه فى حكم آذربيجان وجورجيا وبلاد الروم (آسيا الصغرى السلجوقية) . ولم يعمر كيوك كثيرا حيث توفى سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) .

منكوقا آن (٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ) ـ (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م)

توفى كيوك خان عام ٦٤٧ هجرية ، فقامت أرملته «أقول قيمش خاتون» بمباشرة مهام الحكم الى حين انتخاب خاقان جديد طبقا لرسوم المغول وعاداتهم . وكانت الوصية على العرش المغولى ترى تولية ابن أخى كيوك خان ، غير أن أغلب الأمراء لم يوافقوها على اختيارها لصغر سن الأمير

---

(٥) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .

المرشح للعرش الذهبى وقله خبرته ، وكانوا يرون أن الأمير منكو بن تولوى أحق أمراء المغول بهذا المنصب حيث تجتمع فيه صفات القائد المحنك والادارى الحازم ٠ وكان على رأس المؤيدين ، بل وزعيمهم الأمير باتو بن جوجى الذى كان يعد أعظم شخصية مغــولية فى وقته ، كما كانت له الكلمة الأولى فى اختيــار الخاقان الجـديد ٠

وكان الخلاف على تنصيب الخاقان الجديد فى هــذه المرة شديدا ، ذلك أنه على أثر وفاة كيوك خان أراد أبناء أوكتاى وأتباعه أن يقيموا الأمــير « شيرامون » خاقانا للمغول ، ولكن كان لا بد من الحصول على موافقة الأمير باتو باعتباره أكبر الأمراء سنا ومقاما ، فأرسلوا اليه يطالبون حضوره الى منغوليا لعقد القوريلتاى وتنصيب الخاقان الجديد ، فرد عليهم معتذرا بعدم قدرته على السفر الى منغوليا بسبب مرضه ، وفى نفس الوقت وجه الدعوة الى كبار الأمراء والقادة العسكريين للحضور الى القبجــاق حيث يقيم ، والاشتراك فى القوريلتاى لانتخاب الخاقان ٠ ولكن أبناء أوكتاى وچغتاى عارضوا هــذا الاقتراح وأصروا على عقده فى المقر الأصلى لچنكيز خان جريا على العادة المتبعة ٠ وعلى هذا النحو امتنعوا عن الذهاب الى القبچاق ، واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين ٠ أما منكو واخوته فقد لبوا الدعوة وأسرعوا الى مدينة « سراى » عاصمة باتــو حيث عقــد القوريلتاى ، ونودى بمنكو خاقانا ، وتلقب بلقب « منكو قا آن » ٠ وبهذا انتقل الحكم الى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة چنكيز خان ٠

وحدث خلاف شــديد بين جماعة باتو ومنكو وبين المعــارضين لهمــا والممثلين فى بعض أبناء أوكتاى وچغتاى من جهة أخرى حيث تمســكوا بأن يظل الحكم فى أسرة أوكتاى وكيوك ، واستمر النزاع سائدا بين الطرفين مدة عامين ، وأخيرا حسم باتو الموقف واقترح عقد القوريلتاى فى شهر ذى الحجة عام ٦٤٨ هجرية (ابريل ١٢٥٠ م) فى منطقة قراقورم ، وفيه أعلن انتخــاب منكو قا آن رسميا ٠ وقــد استطاع الخاقان الجــديد أن يضرب على أيدى المناوئين له من أمراء المغول ، خاصة أسرة أوكتاى حيث أمر الخاقان الجديد منكو قا آن بوضعهم فى أكياس مغلقة ورميهم تحت حوافر الخيول فهشمت عظامهم ، وأمر باعدام أتباعهم رميــا بالحجــارة ٠

وإذ تولى منكو قا آن العرش المغولى ، أحيا سياسة المغول التوسعية ، وأمر كبار الأمراء بالعودة الى مراكزهم وحكوماتهم وأجرى تعديلا بين المناصب الكبيرة لتنفيذ سياسته ، فأعطى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية المغولية الى ثانى اخوته « قوبيلاى » وفوضه فى حكم الصين وما يقدر على فتحه من بلاد ، ونهض قوبيلاى لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذه من أساليب سياسية وطرق حربية . وتحول قوبيلاى الى البوذية وتشرب الحضارة الصينية ، واتسمت حروبه ومعاملته للمغولبين على أمرهم بالانسانية والرفق . وبقى فى منغوليا منكو قا آن وشقيقه الأصغر أريق بوقا للاشراف على ضبط الامبراطورية المغولية المترامية الأطراف . أما ورثة چغتاى فى تركستان ، فانهم شرعوا فى القيام بمحاولات تمهيدية لمد سلطانهم الى الهند عبر هضبة البامير . ونقل باتو مقر سلطته الى الروافد السفلى لنهر الفلجا حتى يتسنى له السيطرة على أتباعه الأمراء فى روسيا . وأنشأ بتلك البلاد الخانية التى أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم دولة دشت القبچاق والتى اشتهرت عند المغول والروس باسم دولة القبيلة الذهبية (Golden Horde) ، أما حكومة فارس فانتقلت الى يد هولاكو ثالث اخوة منكو قا آن فأضحت جهود المغول الرئيسية موجهة الى طرفين اثنين ، طرف فارس فى الغرب وطرف الصين فى الشرق(٦) .

وفى السنة الثانية من حكم منكو قا آن توجه الى الغزو والفتح بعد أن استقرت الأحوال الداخلية ، وصمم على فتح البلاد التى لم يتيسر فتحها من قبل ، ودفعه هذا التصميم الى تجهيز حملتين كبيرتين ، الأولى نصب عليها أخيه الأصغر هولاكو وعهد اليه بالقضاء على طائفة الاسماعيلية واخضاع الخليفة العباسى ، والثانية نصب عليها أخاه الأوسط قوبيلاى على رأس حملة لفتح جنوب الصين . ويعنينا هنا فقط ذكر حملة هولاكو على ايران .

ولم تقف استعدادات منكو قا آن على النواحى العسكرية فقط بل تعدى ذلك الى تحول فى سياسته الخارجية أيضا ، فاتصل منكو بالعالم المسيحى واتخذه سندا له وقصده وفد الامبراطور لويس التاسع الذى أرسله أثناء اقامته فى عكا . وكان الوفد برئاسة الراهب الفرنسسكانى روبروك . ومما يذكره الأخير أن منكو قا آن كان يرغب فى ايجاد سبب مشترك مع

(٦) Grousset; L'Empire des Steppes, P. 312 - 313, 364-366.

امبراطور فرنسا لمهاجمة الشرق · ودارت محاورات لطيفة وطريفة بين روبروك والخاقان المغولى تنبأ فيها الأول بأن منكو سوف يحكم العالم ويسبغ عليه العدل والسلام · وعلى كل فان المفاوضات التى تمت بين لويس التاسع ومنكو قا آن لم ترتفع الى مستوى الاتفاق نظرا لغطرسة المغول وعدم قبولهم التحالف مع أى جهة تعتبر نفسها على قدم المساواة فى السيادة والسلطة مع الخاقان المغولى ؛ ذلك أن منكو قا آن طلب من لويس التاسع أن يكون تابعا له ·

أما التحالف الحقيقى والواقعى الذى تمكن منكو قا آن من تحقيقه فكان مع هيتوم (حاتم) ملك دولة أرمينيا الصغرى بعد أن أصبح الأخير تابعا للمغول ، وذلك من أجل بسط النفوذ المغولى فى جهات الشرق حسب الاتفاق المعقود بين الجانبين فى شهر يوليو سنة ١٢٥٤م ، والذى تضمن :

١ ــ تبعية هيتوم لامبراطور المغول ·

٢ ــ التعاون مع كافة الدول المسيحية لاسترجاع بيت المقدس ·

٣ ــ يعين ملك أرمينيا مستشارا للخاقان فى شئون المشرق ·

٤ ــ اعفاء الكنائس فى الامبراطورية المغولية من الضرائب كافة أنواعها ·

ان الاتفاق الذى وقعه هيتوم ملك دولة أرمينية الصغرى المسيحية يظهر هيتوم وكأنه يتكلم باسم كافة ملوك أوروبا المسيحيين ، بل وعن كافة أوروبا اللاتينية والدولة الصليبية ·

حملة هولاكو على ايران :

حرص منكو قا آن على اعداد حملة أخيه هولاكو اعدادا دقيقا ، وباشر ذلك بنفسه ، فأمده بكثير من القوات التى مارست الطعن والنزال واقتحمت ميادين القتال · ولم يكتف بذلك ، بل أرسل رسله الى بلاد الخطا لاستدعاء ألف أسرة من الذين مهروا فى استخدام أدوات الحرب مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمى السهام ، كما قام باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان ليكون حرسا خاصا لهولاكو ، وأوصل تعداد الجيش المغولى الزاحف نحو الغرب الى ١٢٠ر٠٠٠ جندى من خيرة محاربى المغول · وما أن سار هولاكو بجيشه نحو ايران حتى انضم اليه الأمير أرغون الحاكم المغولى على ايران الذى وضع نفسه وقواته تحت امرة هولاكو ، فأبقاه فى منصبه ·

وقبل أن يتحرك الجيش المغولى من العاصمة المغولية « قراقورم » أرسل منكو الرسل والمرشدين لاختبار الطريق الذى سيسلكه الجيش ابتداء من قراقورم حتى شاطىء نهر جيحون ، ووضعوا أيديهم على جميع المزارع والمراعى التى تمتد على طول الطريق ، وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجارى المياه السريعة ٠ ويذكر رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول الخطة التى رسمها منكو قا آن لأخيه هولاكو فى نصيحة أشبه بوصية ، فقال له : « انك الآن على رأس جيش كبير ، وقوات لا حصر لها ، فينبغى أن تسير من توران الى ايران ، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه فى الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك فى الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر ـ بلطفك وبأنواع عطفك وانعامك ـ ، أما من يعصيك فاغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به ٠ وابدأ باقليم قهستان فى خراسان ، فخرب القلاع والحصون ٠ واذا فرغت من هذه المهمة ، فعليك أن تتوجه الى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها ٠ واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا ٠ أما اذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين ٠ كذلك ينبغى أن تجعل رائدك فى جميع الأمور العقل الحكيم والرأى السديد ، وأن تكون فى جميع الأحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم ٠ وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها فى الحال ٠ وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشات عديدة ٠ وشاور دوقوز خاتون(٧) فى جميع القضايا والشئون »(٨) ٠

وخرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم سنة ٦٥١ هجرية (١٢٥٣ م) وأسرع أمراء الأطراف الى تقديم كافة التسهيلات لتموين

---

(٧) كانت زوجة تولوى المفضلة ، ثم آلت من بعده الى ابنه هولاكو ، فتزوج منها جريا على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون نساء آبائهم ٠ وكانت امرأة حازمة ذات شخصية قوية وتدين بالمسيحية ٠ وكان هولاكو يعزها ويحترمها ويستشيرها فى مهام الامور ٠

(٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، نشر كاترمير (الترجمة العربية) ص ٢٣٤ وما بعدها ٠

الجيش ، كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك · وعلى هذا النحو صار هولاكو وجنوده يقطعون المراحل والمنازل حتى وصلوا الى سمرقند فى شعبان سنة ٦٥٣ هجرية (فبراير ١٢٥٥ م) ·

وسلك هولاكو بعد ذلك طريق مراعى « كان كل » ، وكان مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب ، فأمضى فيها هولاكو ما يقرب من أربعين يوما ، ثم رحل منها الى مدينة كش جنوب غربى سمرقند ، فمكث فيها مدة شهر كان خلاله موضع تكريم الوجوه والأعيان فى اقليم خراسان الذين أسرعوا اليه حاملين هداياهم ، ومقدمين له فروض الطاعة والخضوع · وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم ايران من قبل المغول ·

ووجه هولاكو خان عدة رسائل الى الملوك والأمراء فى ايران ، قال فيها : لقد أتينا هنا بناء على أمر الخان الأعظم ، وعزمنا على تحطيم قلاع الاسماعيلية ، والقضاء على تلك الطائفة · فاذا ساهمتم معنا فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم · أما اذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ، فاننا حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة ، فسوف لا نقبل عذركم ، ونتوجه اليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم »(٩) ·

وعندما وصل هولاكو خان الى الأراضى الايرانية كانت قد سبقته أخبار قوته وما يقصده ، فتلقى الترحيب من أتباع جدد ابتداء من شمس الدين كرت ملك هرات ، والأتابك سعد بن زنكى أتابك فارس وكيكاووس الثانى وقلج أرسلان الرابع سلطانى سلاجقة الروم والقائمين بالحكم فى آسيا الصغرى(١٠) ·

وفى الوقت ذاته كانت جماعة الاسماعيلية تستوطن الجبال فى ولاية

---

(٩) رشيد الديم فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ، ص ٣٤٠ ·

(١٠) Grosset, L'Empire des Steppes, P. 247.

طالقان ورودبار والموت ، والأخيرة كما ذكرها القزوينى « قلعة حصينة تبعد عن قزوين مسافة ستة فراسخ ، وتقع على قلة جبل ، وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ، ولا يبلغها النشاب . وكانت المركز الرئيسى لتجمع الاسماعيلية وكرسى ملكها »(١١) ، وهى بلغة الديلم « عش النسر أو ملجأ العقبان » وكانت هذه القلعة الحصينة ذات الموقع الخطير أحد حصون السلاجقة . وكانت لهم قلاع أخرى محكمة تصل الى الخمسين فى قومس وقهستان بخراسان يحكمها حاكم يقال له « محتشم » .

وأمر هولاكو خان القائد المغولى « كتبغا نويان » بالتقدم فى طليعة الجيش المغولى الى قهستان ، وهى المناطق الجبلية الوعرة الواقعة بين هرات ونيسابور ، فاستطاع أن يستولى على كثير من القلاع الموجودة هناك . غير أنه عندما تقدم الى قلعة « كرد كوه » وجدها حصينة محكمة ، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها .

وفى غرة ذى الحجة سنة ٦٥٣ هجرية (٢ يناير ١٢٥٦ م) عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون وتقدم بجحافله نحو القلاع المنيعة ، وأخذ هو وقواده يعملون على تخريبها وتحطيمها لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه اذا اعتمد على القوة فى الاستيلاء على تلك القلاع ، فان ذلك سيكلفه مزيدا من التضحية فضلا عن طول الوقت نظرا لمناعة تلك القلاع ولاستماتة المدافعين فى الدفاع عنها ، فلجأ هولاكو خان الى سياسة الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . ونجحت سياسته بالفعل ، فعندما أرسل هولاكو خان الملك شمس الدين كرت ملك هرات ، والذى كان مرافقا له فى فتوحاته ، برسالة الى ناصر الدين محتشم قهستان الاسماعيلى فى قلعة « سرتخت » يدعوه الى الدخول فى طاعته ، امتثل لهذا الأمر ، وقصد هولاكو خان فى صحبة شمس الدين كرت ، وقدم لهولاكو جملة من الهدايا والتحف وقبل الأرض بين يديه ، فقبل هولاكو الهدايا وعامله بلطف ورقه ونصبه حاكما على مدينة « تون » واستمر فى منصبه الجديد الى أن توفى فى شهر صفر سنة ٦٥٥ هجرية (يناير ١٢٥٧ م) .

ثم أرسل هولاكو خان رسله الى ركن الدين خورشاه ملك الاسماعيلية

---

(١١) زكريا بن محمد القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٠ .

وزعيم الطائفة ، يطلب اليه الخضوع والتسليم . وفى الوقت نفسه لم ينتظر الرد من ملك الاسماعيلية ، وشرع جنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى حتى تمت لهم الغلبة على أكثرها ، ولم تستعص عليهم أول الأمر الا قلعتا « ميمون دز » و « ألموت » . وأخيرا أرسل هولاكو خان رسله مرة أخرى الى قلعة ميمون دز حيث كان يقيم ركن الدين خورشاه لتهديده وتخفويه حتى يسارع الى التسليم . وكان يقيم فى قلعة « ميمون دز » فى تلك الاثناء خواجه نصير الدين الطوسى وموفق الدولة جد المؤرخ الايرانى الشهير رشيد الدين فضل الله اقامة جبرية ، وكانا قد سئما الاقامة عند الاسماعيلية ومالا الى هولاكو خان ، وودا لو وجدا على يديه الخلاص من سجنهما ، وصار خواجه نصير الدين الطوسى يزين لركن الدين خورشاه النزول على حكم هولاكو وعدم مقاومته لأن فى هذا نجاة له ولأسرته .

وبرغم الحصار المضروب على القلعة من جميع الجهات وقوة المغول الجبارة لكن هولاكو خان تعذر عليه اقتحام القلعة ، وأرسل رسله الى ركن الدين خورشاه يهدده فيها بالتسليم ويوعده بالنظر فى أمره ان فعل ذلك وقام بتسليم القلعة . وكانت تلك الرسالة ذات أثر بالغ على خورشاه ونفسيته ، فاستشار أركان دولته ، واستقر الرأى على أن يرسل الى هولاكو خان الخواجه نصير الدين الطوسى مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة محملين بالتحف والطرائف الكثيرة ، فوصلوا الى معسكر هولاكو فى يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة ٦٥٤ هجرية .

وأخيرا وجد ركن الدين خورشاه أن الأمر قد خرج من يده ، ولم تعد له طاقة على المقاومة ، كذلك تطرق اليأس الى نفوس رجاله المحاصرين وفقدوا كل أمل فى الصمود ، فنزل خورشاه الملك الاسماعيلى من قلعة ميمون دز ، وسلم نفسه لهولاكو مظهرا الخضوع والطاعة . وكان ذلك فى صباح يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة ٦٥٤ هجرية . وبذلك دالت دولة الاسماعيلية بعد أن استمرت ١٧١ سنة تثير الرعب والفزع فى بلاد العالم الاسلامى كافة . ونظم خواجه نصير الدين الطوسى بيتين من الشعر فى تاريخ تلك الواقعة ، هما :

سال عرب چو ششصد وپنجاه وچهار شد
يك شنبه أول مه ذى القعده بامداد
خورشاه پادشاه سماعيليان زتخت
بر خاست پيش تخت هولاكو باستاد(١٢)

وهكذا خرج خورشاه من حصنه فى قلعة ميمون دز ، وقدم خضوعه لهولاكو الذى استغل خضوع ملك الاسماعيلية أبرع استغلال ، فعامله معاملة كريمة حتى أطاعه ، وأوحى اليه هولاكو أن يدعو قلاع الاسماعيلية الى التسليم للمغول ، وسلمت له نتيجة دعوته تلك أكثر من خمسين قلعة ٠ أما القلاع التى أبت الاستماع الى نصيحة ملك الاسماعيلية مثل قلعتى «كرد كوه» و «ألموت » فقد فتحهما المغول عنوة بعد قتال مرير(١٣) ٠

وبعد فتح قلعة ألموت فى شهر ديسمبر ١٢٥٦م ، حطم المغول ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال التى كانت لدى الاسماعيلية ، واستولوا على الكنوز والأموال المخفية التى كانت فى مخازن خاصة ولا يعلم مكانها سوى قلة من المسئولين الاسماعيليين ، كما وقعت فى أيديهم المكتبة النفيسة التى كانت تعد أقيم مكتبة في عصرها ، بل كانت تعد التراث الاسماعيلى الوحيد المتبقى منهم ، وجمعها الاسماعيليون طوال قرنين من الزمان حتى اقترنت شهرتهم وبعد صيتهم بمكتبتهم تلك المحتوية على عقائدهم ونظمهم ٠ واستأذن المؤرخ الايرانى عطا ملك الجوينى هولاكو خان فى الاطلاع على المكتبة والنفائس الاسماعيلية الأخرى ليبقى منها الصالح ويحرق منها الباقى الذى يتعلق بعقيدتهم ٠ وبذلك استطاع عطا ملك الجوينى أن يخرج كثيرا من

---

(١٢) وترجمة البيتين :
عندما صارت السنة الهجرية ستمائة وأربع وخمسين
فجر يوم الجمعة أول شهر ذى القعدة
قام خورشاه ملك الاسماعيلية من على العرش
ليقف تحت عرش هولاكو
(١٣) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢١٦ ٠

المصاحف والكتب النفيسة وآلات الرصد والنجوم ، ومن بين النفائس عثر الجوينى على كتاب « سر گذشت سيدنا » الذى يتناول تاريخا لحسن الصباح مؤسس الدولة الاسماعيلية فى ايران ، وقد لخص الجوينى ذلك الكتاب فى الجزء الثالث من كتابه التاريخى « جهاى گشاى » فحفظ لنا تاريخ تلك الجماعة من الضياع(١٤) ٠

ولما تأكد هولاكو خان من صدق نيات نصير الدين الطوسى واخلاصه شمله بعطفه وألحقه بخدمته ، ثم أمر فأعطيت له الدواب اللازمة لحمل أسرته وأمتعته ، وكل ما يتعلق به الى معسكره وصيره من أتباعه وملازميه ، وصحبه فى حملاته التالية بوصفه منجم البلاط ، ثم عهد اليه فى انشاء المرصد الفلكى الكبير فى مدينة مراغة بآذربيجان ٠

مصير ركن الدين خورشاه وشعبه الاسماعيلى :

عامل هولاكو خان ملك الاسماعيلية ركن الدين خورشاه فى بداية الأمر معاملة حسنة لدرجة أن خورشاه وثق فى هولاكو واعتقد أنه ضمن الابقاء على حياته ٠ وكان ذلك احدى أساليب هولاكو المغولية التى استدرج بها خورشاه ، فأعطاه أسراره وأسرار دولته وشعبه ، وأرشده الى مخابىء كنوز الاسماعيلية وثرواتها ، وغالى هولاكو فى معاملة خورشاه ، فمنحه فتاة مغولية تزوج بها ، واختار له مدينة قزوين لتكون مكان اقامته وحفظ أمتعته وأمواله ، ويتخذها سكنا له ولأتباعه ٠ وبذلك ظهر هولاكو أمام أمراء المسلمين أنه يحافظ على عهده باعطائه الأمان لخورشاه على حياته وأمواله ٠

ثم سمح هولاكو لركن الدين خورشاه ، ملك الاسماعيلية بالذهاب الى العاصمة قره قورم ليقابل الخاقان منكو قا آن عساه أن ينعم عليه بفرمان يعيد اليه بعض ممتلكاته ، وأن يتشفع لبقية الاسماعيلية ٠ لكن الخاقان المغولى رفض مقابلة ملك الاسماعيلية ، وأشار بامتعاض وازدراء « لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثا على الدولة التى يركبها ، انه من المؤسف حقا

---

(١٤) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانگشاى ، جـ ٣ ، ص ٢٧٠ ٠

أن تنهك قوى خيول مغولية على مهمة تافهة كهذه »(١٥) ٠

وأمر الخاقان بارجاعه ، وأرسل من قبله شخصا فتك به أثناء عودته فى الطريق ، كما أمر بابادة كافة الاسماعيلية وتدمير آثارهم فى ايران ٠ ونفذ هولاكو اوامر منكو قا آن بكل دقة فى شأن الاسماعيلية فى ايران ، وحبك خطة محكمة للقضاء عليهم ، اذ تظاهر بالعفو عنهم لكى يخرجهم من مكامنهم بحجة أنه يود عمل احصاء عام للنفوس ٠ وعندما تم اكتشاف هؤلاء ، أمر باعدامهم جميعا ، وتبع ذلك حركة تقتيل فى جميع أفراد أسرة ركن الدين خورشاه وأقاربه من الرجال والنساء والأطفال ٠ وكان ذلك فى موقع ما بين أبهر وقزوين ٠

وهكذا حقق الخاقان الأعظم للمغول هدفه الكبير بقضائه على جماعة الاسماعيلية قبل أن يشتبك مع الخليفة العباسى ٠ ولما اطمأن الى نجاح خطته ، أمر أخاه هولاكو بالاستعداد للقضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد حاضرة العالم الاسلامى ٠

وبرغم القضاء على طائفة الاسماعيلية على يد المغول وابادة الشعب الاسماعيلى كافة ، الا أنه كان لاندحارهم وابادتهم رنه فرح وسرور عمت العالم الاسلامى ، رغم ما يعانيه من المغول ، وبرغم ما كان يتوقعه على أيديهم من احداث جسام قد تصل الى ما وصل اليه الشعب الاسماعيلى ٠ وما ذلك الا لأن الاسماعيلية قد بثت الرعب والفزع فى النفوس ، وأشاعت المفاسد والمنكرات ٠ وكان يخشى بأسها الملوك والسلاطين والخلفاء ، كما كانت عاملا فى افساد العالم الاسلامى وتفككه وتحطيم معنوياته والحد من تقدمه ، وقد علق على ذلك المؤرخ الايرانى عطا ملك الجوينى بقوله : « حقا ، لقد كان هذا العمل مرهما لجراح المسلمين ، وتداركا للدين من الخلل ٠ وأن الناس الذين يبقون من هذا العهد يعرفون الى أى حد بلغت فتنة هذه الطائفة ، والى أى مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم ، وان الشخص الذى على وفاق معهم منذ عهد الملوك السابقين حتى عهد ملوك هذا العصر ٠

---

(١٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ٠

انما كان فقط مدفوعا بدافع الخوف منهم • أما اذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجينا خوفا من رعاعهم • لقد كان كأسا طافحا وريحا عاتية ، ولكنها أخمدت • ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين »(١٦) •

سقوط الخلافة العباسية :

طمع هولاكو ، منذ البداية ، أن ينشىء لنفسه بوصفه تابعا لأخيه منكوقا آن امبراطورية خاصة فى الغرب ، وقد يكون أخوه الخاقان قد أوعز له بذلك ليكون فى بيتهم الملك والسلطان • وحقق هولاكو هدفه الأول بالقضاء على طائفة الاسماعيلية وجعلها عبرة لغيرهم ممن يفكرون فى المقاومة ، ثم سار لتحقيق هدفه الثانى وهو القضاء على الخلافة العباسية وفتح بغداد • فانتقل الى همدان وعسكر فيها ليكون قريبا من العاصمة العباسية • وكان أول عمل أقدم عليه هولاكو أن أرسل الى المستعصم ، آخر الخلفاء العباسيين ، فى شهر رمضان سنة ٦٥٥ هجرية (= مارس سنة ١٢٥٧ م) رسالة يدعوه فيها الى تجريد حصون بغداد وأسوارها من أدوات الدفاع ، كما دعاه الى الحضور بنفسه شخصيا وتسليم المدينة له ، فان فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه، وان أبى واستكبر أحل بنفسه وبأهله وبلاده الدمار والخراب ، لأن جيوش المغول سوف تسير الى بغداد لا محالة وتستولى عليها وتنتزعها من سلطانه. ولن تدع أحدا على قيد الحياة فى كل مملكته ، كما ضمن رسالته لوما شديدا على عدم امداده بالجند عند محاربته طائفة الاسماعيلية •

وجاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديدا ، وان حرص أن يصوغه فى قالب مرن ، اذ دعاه الى الاقلاع عن غيه والرجوع الى خراسان ، وقال

---

(١٦) وهذا هو النص الفارسى من كتاب الجوينى (تاريخ جهانكشاى جـ ٣ ، ص ٢٧٨) :

« راستى آن بودكه اين كار مرهم جراحتهاى مسلمانى بود ، وتدارك خللهاى دينى ، جماعتى كه بعد ازاين دور وعهد در رسند بدانند كه فتنه ايشان تابچه غايت بود وتشويش در دل عالم تابچه حد كشيده ، كسى راكه بايشان دم موافقت بودى از عهد پادشاهان گذشته تاوقت شاهان وقت خوف وبيم بودى ، واز مخاصمت ايشان پيمانه بود كه بسر آمد وبادى مى نمودكه بسته شد ، ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين » •

له(١٧) : « أيها الشاب الحدث ... الذى لم يخبر الايام بعد ، والذى يتمنى قصر العمر،والذى أغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منى شيئا لن تجده عندى ؟ .. ألا يعلم الامير نه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الاديان ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى ؟ .... اننى عندما أشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم ايران ثم أتوجه منها الى بلاد توران ، وأضع كل شخص فى موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءا بالقلق والاضطراب . غير أنى لا أود الحقد والخصام ، ولا أشترى ضرر الناس وايذائهم ، كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش ، أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح ، خصوصا وأننى مع الخاقان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد .

فاذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فماشأنك بخنادق رعيتى وحصونهم؟ ... أسلك طريق الود وعد الى خراسان . وان كنت تريد الحرب والقتال ، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فان لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على أهبة الاستعداد للقتال » .

ثم أرسل هولاكو رسالة أخرى الى الخليفة ، ذكر فيها أنه سوف يبقيه فى منصبه بعد اعترافه بالتبعية للدولة المغولية وتقديم الاتاوات السنوية ، فاعتذر الخليفة المستعصم بعدم جواز ذلك شرعا ، الا أنه على استعداد تام لدفع الاموال التى يطلبها هولاكو مقابل عودته من حيث أتى . ومما زاد فى غضب هولاكو أن وثب الناس فى بغداد على أعضاء الوفد المغولى وفتكوا بهم .

وعندما وصل رسل الخليفة الى هولاكو ، واطلع الاخير على رسالة خليفة المسلمين أعاد الرسل الى بغداد ، وحملهم رسالة أخرى تتضمن انذارا نهائيا للخليفة ، صيغ فى لهجة شديدة عنيفة . فما أن عرضت الرسالة على الخليفة ، جمع كبار رجال دولته واستشارهم فيما عساه أن يفعل ، فكان

---

(١٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ، ص ٢٧٠ .

الوزير الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى يرى أن يبذل الخليفة الاموال والتحف والهدايا ويرسلها الى هولاكو فى معسكره مع تقديم الاعتذار اليه . كذلك رأى أن يذكر اسم هولاكو فى الخطبة ، وأن ينقش اســـمه على السكة على نحو ما كانت تسير عليه الامور أيام البويهيين والسلاجقة . وكان ابن العلقمى يرى أن مثل هذه الاجراءات تثنى هولاكو عن عزمه على فتح بغداد،ولايتعرض للخليفة بسوء . وكان المستعصم بعد أن فقد رباطة جاشه ووجـــد الطريق مسدودا أمامه يميل الى الاخذ بهذا الرأى ، غير أن الوزير مجاهد الدين أيبــك الدويدار الصغير رفض مقترحات الوزير ابن العلقمى ، وأصر على المقاومة ، بل واتهم ابن العلقمى بالخيانـــة والتواطؤ مع هولاكو ، فعـــدل الخليفة المستعصم بكل بساطة عن رأى ابـن العلقمى ووافق على ما ارتآه الدويدار الصـــغير .

وفى الجانب المقابل استشار هولاكو منجمـــه الخواجة نصير الدين الطوسى فى فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية ، فأقره على خطتـــه . وكان نصير الدين الطوسى يكره الخليفة ويعمل على اسقاطه ، بل لعله هو الذى زين لهولاكو الاستيلاء على بغـداد وتملكها .

حصـــار بغـــداد :

شرع هولاكو بعد أن يئس من اقناع الخليفة المستعصم بالله العباسى بالتسليم ، فى الزحف نحو العراق . فأمر بعض جيوشه بالتحرك من أطراف بلاد الروم عن طريق أربل والموصل ، وأن تتجه نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية . وكان هذا الجيش جناحه الايمن . وأمره أن ينتظر حتى تصل جيوش هولاكو وتتمركز فى الناحية الشرقية ، وكان الجيش المرافـق لهولاكو يشكل القلب للجيش المغولى والقوة الضاربة . أما الجناح الايسر ، والذى قاده « كيتو بوقا » فقـــد اتجه صوب بغـــداد عن طريق لورستان وخوزســـتان .

وعسكر هولاكو بجيشه فى الناحية الشرقية من مدينة بغداد . ووافاه المدد من بعض أمراء المسلمين الذين أجبرهم هولاكو على تقـــديم المعونات للجيش المغولى ، فأمده كل من بـــدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك

أبى بكر سعد بن زنكى السلغرى حاكم اقليم فارس بالرجال والمال • كما قدم بعض أمراء المغول المقيمين فى آذربيجان بقواتهم عن طريق كردستان ، وبذلك أحكم الجيش المغولى حصار بغداد وسد جميع منافذها •

وكانت المدينة بالبائسة بغداد تضم أربعة أبواب رئيسية فى ذلك الوقت ، هى باب السلطان (ويسمى حاليا الباب المعظم) ، ثم باب خراسان ، والذى اطلق عليه مؤخرا بالباب الوسطانى ، وباب الحلبة وباب كلواذى (وهو الباب الشرقى للمدينة) • واتخذ هولاكو معسكره فى الجهة الشرقية الممتدة بين بابى السلطان وكلواذى بعد أن استسلمت له الكرخ والكاظمية •

وحاول الجيش العباسى الذى جهزه الخليفة وأنفق عليه الاموال بقيادة مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول فى أماكنهم ، وعدم تمكينهم من اتخاذ مواقع ثابتة ، فكان نصيب ذلك الجيش الهزيمة من أول جولة وقتل عدد كبير من جنوده نتيجة عدم انضباطهم العسكرى وعدم خبرتهم فى القتال حيث كانوا أقرب الى رجال العسس منهم بالمقاتلين ، ولم يجد قائدهم مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير الا الهرب مع من نجى بنفسه ولاذ الى بغداد حيث اختبأ خلف أسوارها •

وكان الجيش المغولى ضخما يقرب من مائتى ألف مقاتل من الفرسان ، وبين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين • وكانت خطة هولاكو العسكرية حصار بغداد بجيوشه من جميع النواحى وسد جميع المنافذ المؤدية اليها حتى تسقط سهلة فى يده دون جهد كبير لتصوره أن بها جندا جرارا وقوى خفية لم تظهر حتى حصارها ، وفى نفس الوقت كان يخشى أن يتعاطف الامراء المسلمون مع خليفة المسلمين ويمدونه بقوات أو يشتركون فى القتال • وأيضا حاول هولاكو وهو يقيم على أسوار المدينة بغداد استمالة الفرق التركية العاملة بجيش الخلافة ، لكن هؤلاء ظلوا على ولائهم واخلاصهم لخليفة المسلمين حتى النهاية ، بل وصمموا على الدفاع عن بغداد حتى آخر قطرة من دمائهم •

وقبل أن يبدأ القتال ، أراد هولاكو مراوغة الخليفة لكسب الوقت ،

فأرسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما على التسليم ، فليأت بنفسه الينا ، واذا كان عازما على محاربتنا فليرسل الوزير سليمان شاه والدويدار الصغير قبل كل شيء ليصغوا الى مطالبنا »(١٨) ، ثم تبع ذلك ارسال هولاكو ثلاثة من قواده مع فرقهم على عجل وكلفهم بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب وبسرعة خاطفة ٠

ونجح هولاكو فى مناورته تلك ، ذلك أن قوات الخليفة العباسى عندما علمت بالهجوم المغولى من الناحية الغربية ، تحركت من مواقعها ، وعبرت نهر دجلة لصدهم ، فتركت هولاكو حرا طليقا وسار حتى وصل شاطىء نهر حلوان ٠ وبعد أن عسكر جيش هولاكو فى خانقين بضعة يام واصل سيره حتى أقام معسكره شرقى بغداد فى ١٨ يناير ١٢٥٨م ٠

وفى ٣٠ يناير من نفس السنة (١٢٥٨ م) ، اشتد القصف المغولى وصارت منجنيقاتهم تقذف بصخور جىء بها من جبل حمرين القريب من بغداد ، وتمكنت بعض الوحدات المغولية فى اليوم الخامس من شهر فبراير من نفس السنة من اعتلاء الاسوار فى جهة برج الفرس ٠ وفى صباح اليوم السادس من فبراير (أى اليوم التالى) سيطرت القوات المغولية على السور الممتد من باب الحلبة الى ما وراء البرج الفارسى ، فأصبحت المدينة تحت رحمتهم(١٩) ٠

سفارة ابن العلقمى الوزير الى هولاكو :

أحس الخليفة المستعصم العباسى بالخطر الفادح وأن الأمر قد فلت من أيدى المسلمين وأن ملكه مهدد وشعب المدينة قد أصبحوا تحت رحمة المغول وسيواجهون المصير الذى واجهته مدن ما وراء النهر وخوارزم وخراسان من دمار ، فبدأ يفكر فى طريقة مثلى يمكنه بها انقاذ الخلافة الاسلامية من السقوط فى أيدى المغول ٠ وهداه تفكيره أن يعمل لاستمالة

---

(١٨) Quatremere; Histoire des Mongols, P. 279.

(١٩) Glubb J., The Lost Centuries 1145 - 1453, London, P. 252.

هولاكو وارضائه ، فأرسل وزيره مؤيد الدين بن العلقمى فى أول الامر وأمره أن يقول لهولاكو : « لقد طلب منى الامير المغولى أن أرسل وزيرى ، وهأنذا اليوم قد اقتنعت بما طلب ، راجيا أن يحفظ الأمير كلمته .... »(٢٠) .
وكان الخليفة يهدف من وراء ذلك اقناع هولاكو بالرجوع من حيث أتى بعد أن نفذ له ما طلبه منه .

وقام ابن العلقمى بتنفيذ المهمة التى كلف بها وصاحبه فيها بطريق النساطرة فى بغداد الذى أرسله الخليفة مع الوزير عندما علم بأن هولاكو متزوج من مسيحية ، لكن هولاكو رد على الخليفة بقوله : « عندما قطعت على نفسى هذا الوعد كنت لا أزال تحت أسوار همدان ، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد ، وقد هاج وماج بحر المشكلات والعداوة ، كيف أكتفى باستقبال أحد كبار رجال الدولة ، يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة : الوزير (أى ابن العلقمى) والدويدار الصغير وسليمان شاه » .

وفى اليوم التالى أرسل الخليفة الوزير ابن العلقمى دون أن يرافقه الدويدار الصغير وسليمان شاه كطلب هولاكو ، ورافقه تسعة من حاشية الخليفة وخاصته وعددا آخر من كبار رجالات الدولة العباسية ، لكن الوزير ابن العلقمى لم يستطع أن يحقق هدفه ، وردهم هولاكو دون أن يعيرهم أدنى التفات »(٢١) .

وفى اليوم الثالث أرسل الخليفة ابنه الاكبر أبا بكر وبصحبته الوزير وعددا من رجال الحاشية ، وأيضا لم يستمع اليهم هولاكو وردهم جميعا يجرون أذيال الخيبة والفشل . وكان هولاكو يصر فى كل مرة على ارسال الدويدار الصغير وسليمان شاه . ولما تأكد الخليفة المستعصم من أن هولاكو لا يزال مصمما على اتباع طريق العنف معه ، بادر الى اجابة مطالبه حتى يسلم من أذاه ، وأرسل فى اليوم الرابع كلا من الدويدار الصغير وسليمان شاه . فكان ذلك ايذانا من الخليفة العباسى بأنه فى سبيله الى التسليم .
وقبض هولاكو على مبعوثى الخليفة ، الدويدار الصغير وسليمان شاه ،

---

(٢٠) Howorth; History of the Mongols, Vol. I, P. 199.
(٢١) Ibid; P. 199.

ومرافقيهما ، وأمر بقتل كليهما فنفذ ذلك أمامه ، ثم أمر بتوزيع المرافقين على الجنود المغولية فذبحوهم عن آخرهم .

ولما تسامع أهل بغداد بما حدث طارت نفوسهم شعاعا ، واصيبوا بذعر شديد واضطراب كامل وشلل فى التصرف والتفكير ، وأخذ كل واحد منهم يدبر أمره بنفسه ، فأخذ فريق منهم يختبىء فى المغارات وفى أفران الحمامات ، وخرج بعض كبرائهم من المدينة ليعرضوا تسليمها الى هولاكو ويرحبوا به قائلين بأن الخليفة انما أراد بارسال أولاده أولا أن يحضر بنفسه بعد ذلك . ولكن هولاكو لم يستمع لهم ولم يجبهم الى مطالبهم . أما الخليفة فقد تسرب الخوف الى قلبه ، وتحقق من المصير الرهيب الذى ينتظر بغداد وأهلها . ومما زاد وضعه سوءا أن الوزير ابن العلقمى أخذ فى تثبيط همته وادخال الخوف الى قلبه والخليفة يستمع اليه ويزداد رعبا وهلعا .

موقف الوزير ابن العلقمى :

أجمعت المصادر الاسلامية أن الوزير مؤيدالدين بن العلقمى كان شيعيا ، وأنه كاتب المغول يحثهم على فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية . وفى ذلك يقول الحافظ الذهبى(٢٢) :

« كان الوزير المؤيد بن العلقمى قد كاتب التتار وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على اخوانه الرافضة من النهب والخزى . وظن المخذول أن الأمر تم ، وأنه يقيم خليفة علويا . فأرسل أخاه ومملوكه الى هولاوو (يقصد هولاكو) وسهل عليه فتح بغداد ، وطلب أن يكون نائبا لهم عليها ، فوعدوه بالأمان ، ثم ان ابن العلقمى عندما ذهب الى هولاوو وتمكن له عاد فأخبر المستعصم بأن الملك (يقصد هولاكو) قد رغب فى أن يزوج بنته بابنك الأمير أبى بكر ، وأن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلجوقية . ثم يرحل . فخرج اليه المستعصم فى أعيان الدولة . ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه فخرجوا ، فضربت رقاب الجميع .

---

(٢٢) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ٢٢٥ـ٢٢٦ .

وصار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعيـــة بـــلا راع » ٠

واضطر الخليفة العباسي الى الخروج من بغـــداد وتسليم نفســه وعاصمته للمغول دون قيـد أو شرط ، وذلك في يوم الاحد الموافق الرابـــع من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٠ فبراير ١٢٥٨ م) ومعه أهله وولده بعد أن وعده هولاكو خان بالأمان ٠ وكان برفقته ثـــلاثة آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة ٠ فما أن وصلوا الى معسكر هولاكو حتى أمر بوضعهم في مكان خاص ، وأمر بتقسيم مرافقى الخليفة الى جماعات ٠ وفي البداية أخذ هولاكو يلاطف الخليفة المستعصم بالله ويطيب خاطره ، ثم طلب اليه أن ينادى في الناس بالقاء أسلحتهم والخـروج من المدينة لاحصائهم ، فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا طبقـا لتعليمـات هولاكو قتلهم المغـــول جميعهم ، أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بـــه فوضعهم هولاكو بالقرب منه في مكان بجوار باب كلواذى ، وفرض عليهم حراسة مشددة ، وهنا أحس الخليفة أنه هالك لا محالة ٠

ثم أمر هولاكو بردم الخنادق وازالة أسوار المدينة ، واقامة جسر على نهر دجلة ، ولمـا تم له ذلك أمـر القـوات المغولية المعسكرة في الناحيـــة الشرقية للمدينـــة بدخولها من جهتهم ، وأمر أيضـــا قواته المعسكرة على الشاطىء الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغـــرب ، فدخلها أولئك وهؤلاء كالجراد وأتوا على أهلها جميعهم ولم يسلم الا من اختفى في بئر أو قناة ٠ أما المدينة كتراث حضارى فقد قام المغول بتخريب المساجد بقصـــد الحصول على قبابها الذهبية وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة ومنقولات قيمة ، واستمر الجنود المغولية في غارتهم الوحشية تـــلك أربعين يوما ، وكلما يمشطون منطقة يشعلون فيها النيران من كل جانب ، فكانت تلتهم كل ما يصادفها ، فأتت على الأخضر واليابس ، وخربت أكثر الأبنيـــة وجامع الخليفة ومشهد الامام موسى الكاظم وقبور الخلفـــاء في الرصـــــــافة(٢٣) ٠

---

(٢٣) لاسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشـــير فرنسيس ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ٠

وبالغ المؤرخون مبالغة شديدة فى عـــدد من أزهقهم المغول أو أبادوهم بطريقة أو بأخرى حين دخلوا بغداد ، فقدر بعضهم القتلى بمليون وثمانمائة ألف نسمة ، وقدرهم آخرون بمليون نسمة ، وقدرهم فريق ثالث بثمانمائة ألف نسمة ، وهناك من قدرهم بألفى ألف نسمة • يقول الحافظ الذهبى وهو ممن كتبوا عن المغول عن ذلك « ويقال ان هولاوو أمر بعد القتلى فبلغوا ألف ألف وثمان مائة ألف وكسر ، فعند ذلك نودى بالأمان »(٢٤) وعلى كل فقد أزال هولاكو معالم بغداد ومبانيها التى كانت آية من آيات الفن الاسلامى ، كما ضاعت الثروة الادبية والفنية الاسلامية التى اشتهرت بها بغداد دون غيرها من البلدان الاسلامية وأصبحت أثرا بعد عين ، ولم يبق منهـــا سوى حطام المدينة ليس أكثر •

وفى اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٥ فبراير ١٢٥٨م) دخل هولاكو مع حاشيته من أمراء المغول وقادتهم مدينة بغـداد ، وقصـد قصر الخليفة المستعصم الذى كان يرافقهم ، وكانت الجنود المغولية لم تمس قصر الخليفة بسوء • وأمر هولاكو باحضـــار الخليفة والمثـول بين يديه ، وقـــال له : « أنت الضيف ونحن الضيوف ، فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة » • وكان الخليفة المستعصم فى حالة نفسية سيئة بعد أن شـــاهد بعينيه ما حدث لملكه وشعبه والدين الاسلامى من نكبات على يد المغول ، وكان ينتظر القتل كل لحظة تمر عليه ، فصدق قول هولاكو واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول ، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه ، فأمر بكسر الأقفال وأخرج ألفين من الثياب وعشرة آلاف دينار وجواهر عديدة قدمها هدية لهولاكو ، فأخذها منه بازدراء وعدممبالاة ، وقدمها الىأمرائه،وقال للخليفة : « ان الكنوز التى تملكها والتى توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها ، وهى تحت تصرفى وتصرف أتباعى ، انما ما أريده هو أن تظهــر لنـــا ثروتك المدفونة ، وتبين لنـــا موضعها •••• » • ولمـــا أخبره الخليفة العباسى أن فى وسط القصر جرة مملوءة بالذهب ، أمر هولاكـــو بالحفــر فى الموضع الذى عينه ، فوجدوا الجرة مملوءة بالذهب الابريز ، وبها عــدد من

(٢٤) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٢٦ •

القطع الذهبية تزن الواحدة منها مائة مثقال . ثم أن هولاكو أمر بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته ، فوجدهم سبعمائة من النساء والسريا وثلاثمائة خادم خصى ، ولم يدع هولاكو للخليفة الا مائة فقط من النسوة ممن أقاربه والمحببات اليه من الجوارى ، ثم باشر هولاكو بنفسه ما جمع من قصر الخليفة من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون فى مدة خلافتهم الطويلة ووضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم . وفى ذلك يقول ابن العبرى : « أمر هولاكو الخليفة أن يفرزجميع النساء اللائىباشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن،ففعل فكن سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصى .... »(٢٥) .

مصرع الخليفة المستعصم بالله العباسى :

وفى الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله الذى يعد آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد ومعه ولده الأكبر وخمسة من رجاله المخلصين الذين آثروا البقاء معه ولم يتركوه عندما نزلت به كل تلك المصائب والنكبات . يقول ابن العبرى ما يفيد ذلك بطريقة أخرى « .... وفى رابع عشر صفر رحل هولاكو من بغداد ، وفى أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذ »(٢٦) . واختلف كثير من المؤرخين العرب والفرس والفرنجة فى تاريخ قتل المستعصم وطريقته ، فكثير من المؤرخين العرب يذكرون أن قتل الخليفة تم فى شهر المحرم من عام ٦٥٦ هجرية دون تحديد لليوم الذى تمت فيه ، بينما يذكر المؤرخون الايرانيون ومعهم ابن العبرى أن القتل حدث مساء يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) ، وعنهم أخذ مؤرخوا الفرنجة . يقول الحافظ الذهبى « ان الكافر هولاكو أمر به (أى الخليفة المستعصم) وبولده أبى بكر فرفسا حتى ماتا ، وذلك فى حدود آخر المحرم . وكان الأمر أشغل من أن يوجد مؤرخ لموته أو موار لجسده »(٢٧) .

كذلك اختلف المؤرخون فى الطريقة البشعة التى قتل بها الخليفة

---

(٢٥) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧١ .
(٢٦) ابن العبرى : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .
(٢٧) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

العباسي ، فيقول بعض مؤرخي العرب أنه قتل رفسا بأن وضع في عدل حتى مات ، ويذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول آخرون أن جسده مزق اربا ، وجماعة ذكروا أنه لف في بساط وألقى به في نهر دجلة(٢٨) ٠ أما مؤرخو الفرس وعنهم أخذ مؤرخو الفرنجة فقالوا أن هولاكو وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها اذا أراد بعد أن وضعه هولاكو في حجرة مغلقة(٢٩) ٠

ولا شك في أن الطريقة التي قتل بها الخليفة العباسي المستعصم يكتنفها الغموض ، وما ذلك الا أن هولاكو قد أخفى على الناس قتل الخليفة ردحا من الزمن لذلك لم يقف المؤرخون على الطريقة التي لقى بها الخليفة المستعصم حتفه فهي واقعة من الوقائع التاريخية غير المتفق عليها في توقيتها وطريقتها ٠

وفي اليوم التالي لمصرع الخليفة العباسي المستعصم ، أمر هولاكو بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ،ويقال انه ظفر بهم ولم ينج منهم سوى أصغر أبناء الخليفة المقتول ، ويدعى أبا المناقب مبارك ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاكو ٠ وقد أرسل الأمير العباسي مبارك هذا الى الشرق حيث تزوج بامرأة مغولية ٠ وممن نجا أيضا من أفراد أسرة الخليفة المستعصم احدى بناته التي أرسلها هولاكو الى أخيه منكو قا آن ٠ ويقال ان تلك الأميرة عندما وصلت الى سمرقند استأذنت مرافقيها لزيارة قبر قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق عبد الله بن العباس وقد استشهد في سمرقند ، ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « رب اذا كان لقثم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدتك اليك ونجها من أيدي هؤلاء الناس » فاستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة(٣٠) ٠

وما أن فرغ هولاكو من فتح بغداد وتنظيم شئون الدولة في البلاد المفتوحة حتى رحل من بغداد في الرابع عشر من صفر بعد أن فوض أمر بغداد

---

(٢٨) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ٠

(٢٩) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ٠

(٣٠) D'Ohsson; Histoire des Mongols. Tome III, P. 242-244.

الى شمس الدين صاحب الديوان الجويني والوزير ابن درنوش ، توجه الى آذربيجان حيث اختار مدينة مراغه عاصمة لملكه ، وأقام أيضا عدة أبنية فى اقليم أورميه ، كما شيد عـدة معابد وثنية (بت خانه ها) فى مدينة خوى فى آذربيجان . وكلف مستشاره الخواجه نصير الدين الطوسى ببناء المرصد فى مدينة مراغه سنة ٦٥٧ هجرية .

وقع انتصارات هولاكو على الدويلات الاسلامية المجاورة لبغداد :

لا شك فى أنه رغم الخلافات السياسية والأحقاد الشخصية التى كانت سائدة العالم الاسلامى فى ذلك الوقت وكثرة الحروب بين الدويلات الاسلامية والفتن الداخلية ، الدينية منهـا وغيرها ، الا أن سقوط بغداد وقتـل الخليفة العبـاسى أصـاب المسلمين بحسرة وحزن عميق ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد من ملوك المسلمين وقادتهم على الوقوف بجانب بغداد أو مناصرتها فى محنتهـا خوفا من المغول ورهبة من عقابهم . وكان الأمراء المسلمون المجاورون لبغـداد ينظرون بعيون زائغة الى تقدم هولاكو نحو بغـداد والاجهاز عليهـا ، وهم فى حالة من الهلع لا يعرفون معهـا كيف يتصرفون . ان الخـلافات بين الحكـام المسلمين وصلت الى درجة سيئة وطريق مسدود ، وكان النفاق والعداء وحب السيطرة والظهور هـو المسـيطر عليهم ، كان كبيرهم يريد ابتلاع صغيرهم والجميع يعيش فى ذلك الجو المضطرب لا يعرف هـل سيأتى عليه يوم جـديد فى منصبه أم لا حتى داهمهم هولاكو بجيوشه وسقطت الخلافة العباسية التى كانت تعد فى نظرهم قلعة الاسلام وملاذ المسلمين ، كما سقطت بغداد وقتـل أهلها وشردهم وأصبحت المدينة التى اشتهرت بعظمتها مسرحا لجنود المغول يعيثون فيها الفساد والدمار والخراب ، فملأ الرعب والفزع والهلع قلوب أكثرية أمراء الجزيرة وسورية وآسيا الصغرى من جراء الفظائع التى ارتكبها الجيش المغولى بالعراق والخلافة العبـاسية ، فهرعوا جميعـا الى هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والولاء والتهنئة بما ناله من فتح وأحرزه من انتصـار ، ويتملقونه خوفا من بطشه واتقاء لشره . ان الفزع جعل كل واحـد منهم يتلمس طريقـا للنجاة بنفسه أولا مهمـا كانت الطريقة . فكان ممن حضر لتهنئته فى بغـداد « بـدر الـدين لؤلؤ » أتابك الموصـل ، وكان شـيخا فى الثمانين من عمـره ، واستدعاه هولاكو ليشكره على تعاونه معه بما قدمه من جند وعتاد وخيول ،

فأتى على عجل وأسرع بتقديم التهنئة بفتح بغداد ، وقدم لهولاكو هدية قبلها الأخير منه ، ولازمه فترة من الزمان الى أن غادر هولاكو المدينة البائسة متوجها الى آذربيجان التى اتخذها مقرا له ٠ كما أرسل أبو بكر السلغرى أتابك فارس ابنه للغرض نفسه ٠

وفى مدينة مراغه حيث عسكر هولاكو ، وفد اليه اثنان من سلاطين سلاجقه الروم ، هما الأخوان المتنافسان على العرش السلجوقى فى آسيا الصغرى ، السلطان عز الدين كيكاووس الثانى ، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع ، وكلاهما يمنى نفسه أن يقوم هولاكو بانصافه والوقوف بجانبه ضد أخيه ٠ أما عز الدين كيكاووس الثانى فكان يرتجف رعبا،ويخشى أن يعاقبه هولاكو على اشتباك جنوده مع المغول بقيادة « بايجو نويان » الذين هزموه قرب مدينة « آقسرا »(٣١) فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس عز الدين كيكاووس الثانى بحرج موقفه ومركزه وخشى بطش الخان المغولى يسبق أخاه الى زيارة هولاكو وحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذى يحمل طابع الخضوع والذلة والولاء ، فرسم صورته على نعل زوج من الأحذية ، وقدمهما الى هولاكو قائلا له : « عبدك يأمل أن يتفضل الملك ، فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها »(٣٢) ٠

أسباب سقوط بغداد :

هناك أسباب أدت الى سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، ترجع الى المواقف المتنافرة بين طبقات الشعب وفئاته ، وتصرفات الخليفة العباسى نفسه التى كانت لا تبشر بمستقبل سليم ، بل كانت كلها مواقف اتسمت بخلافات شخصية وعقائدية وحب للسيطرة ، وفقر فى الأخلاق وتملص من المسئوليات ، حتى داهم هولاكو بجيوشه تلك القوى المتنافرة وقضى عليها كلها ، نذكر من هذه الأسباب :

---

(٣١) Grousset; L'Empire des Steppes, P. 433.

(٣٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول فى ايران) الترجمة العربية ص ٣٠١ ، وأيضا الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ ٠

أولا ـ موقف الخليفة المستعصم بالله ورجاله المقربين :

ورث الخليفة المستعصم بالله عن أسلافه دولة ضعيفة مفككة ، وكان الفناء قد دب فى جسدها المتهالك · ان الخليفة نفسه كان رجلا تقيا صالحا ، طيب القلب ، الا أن آفته كانت فى ضعف ارادته وانقيـاده لأتباعه وتردده الأمر الذى جر عليه وعلى الاسـلام الخراب والدمار · ولم تكن شخصية الخليفة المستعصم بالله مؤهلة لقيادة جيوش أو زعامة سياسية ، بل كانت شخصيته ضعيفة مستكينة ولم يهتم بتجييش الجيوش واستنفار أمـراء المسلمين وحكام البلاد والشعب الاسلامى لمواجهة المخاطرة فكان لتقاعسه فى الوقوف فى وجه هولاكو أكبر الأثر فى جعل سقوط بغداد أمرا محتوما ، وكان دائما يقول للمقربين اليه « ان بغداد تكفينى وهى مصونة بعناية الهية ومن قصدها بسوء أباده الله » · ومع ذلك نحمد له موقفه البطولى الشريف الذى وقفه بمفرده دون مساعدة من أحـد ·

ثانيـا ـ موقف أهـل السـنة :

كان هؤلاء أصحاب الأمر والنهى فى بغداد ، وكان المذهب السنى هـو المذهب الرسمى للخلافة العباسية · وكان أهـل السنة يحيطون الخليفـة برعايتهم ويعتبرون سقوط بغداد سقوطا لهم وضياعا لنفـوذهم ، لذلك نجدهم يقفون أمام الغـزاة من المغول فى صمود وصـلابة · وقبل سقوط المدينة بعام واحد (أى سنة ٦٥٥ هجرية) نشبت فتن طائفية بين السنة وبين الشيعة ، وهاجم السنيون محلات الشيعة وخاصة محلة الكرخ ـ وشاركهم فى غارتهم تلك رجال الشرطة والحكومة ، وقاد الحملة وتزعمها أبو بكر الابن الأكبر للخليفة المستعصم نفسه ومعه الدويدار الصغير ، فنهبوا محلة الكرخ ، وهتكوا النساء الشيعيات الأمر الذى أحفظ قلوب أهل الشيعة عليهم ·

ثالثـا ـ موقف أهـل الشـيعة :

كان موقف هؤلاء ازاء تلك الكارثة الرهيبة من أسوأ المواقف التى وقفتها احدى الطوائف فى أية أمة عبر التاريخ ، اذ لم يراع الشيعة أن العراق هـو وطنهم الأمر الذى يجب الدفاع عنه أمام زحف المغيرين وأن الهزيمة التى وقعت انما هى هزيمة للاسلام والمسلمين جميعا · وحاول مؤرخو الشيعة الدفاع عن

ذلك الموقف السلبى لطائفتهم أثناء نشوب القتـــال بين الخلافة العباسية والمغول وان يجدوا لهم عذرا ومخرجا ، فذكروا فى كتبهم أنهم ثأروا لأنفسهم مما حل بهم من بلاء فى الفتنة التى وقعت ببغداد عام ٦٥٥ هجرية على أيدى أهل السنة ورجال الشرطة ٠ ان موقف الوزير مؤيد الدين بن العلقمى الذى كان وزير الخليفة المستعصم ومن أكبـر الشخصيات الشيعية البارزة كان يحوطه الشك والريبة فى تصرفاته مع هولاكو والمغول ٠ وقـد اتهم كثير من المؤرخين المسلمين الوزير ابن العلقمى بالخيانة وحملوا عليه حملة ضارية ، وان كان يؤخذ عليهم أنهم كانوا يدينون باحدى فرق المذهب السنى ، فقـد ذكر كل من ابن شاكر الكتبى فى كتابه « فوات الوفيات » وأبى الفـداء فى كتابه « المختصر فى أخبار البشر » وابن خلدون فى كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» والسيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » والمقريزى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » والذهبى فى كتابه « دول الاسلام » أن ابن العلقمى حث المغول على الاستيلاء على بغداد ، وكانت له رغبة فى ازالة الخلافة العباسية واقـامة خلافة علوية مكانها ، وأنه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة العباسى المستعصم بالله انقاص الجيش توفيرا للنفـقـات ، ثم دعا الى بذل المـــال المتوفر لديه من جـراء ذلك فى استمالة المغـول ٠

رابعـا ـ موقف أهـــل الذمـــة :

كان النصارى واليهود من رعايا الدولة العباسية يتمتعون بالطمأنينة فى احيائهم ، وينعمون بالغنى والاحترام والحـــرية الدينية المطلقة فى أداء شعائرهم الدينية ، وكان كل ذلك يتم فى رعاية الخلفاء ، بل وكثير من أهـل الذمة وصل الى أرقى المناصب بجده وتفوقه ونبوغه ، وحدث أن وقف اليهود ازاء غـزو المغول لبغداد موقفا مشرفا ، فحاربوا مع المسلمين حتى آخر لحظة وقاسوا معهم ويلات المذابح التى أعقبت سقوط بغداد ٠ أما المسيحيون ، وكانوا يفوقون اليهود عددا فلم يفعلوا ذلك رغم أنهم كانوا أكثر تقربا الى الخلفاء واتصالا بالحياة العامة فى بغداد ، بل سالموا المغول ، وتقربوا اليهم ، وتمكنوا من الحصول على عطف هولاكو بفضل تأثير زوجته المحبوبة « دوقوز خاتون » المسيحية ٠ وأمر هولاكو البطريق النسطورى بجمع المسيحيين فى احدى الكنائس حتى يتميزوا عن غيرهم ، فلا يتعرض لهم جند المغول عنـد دخولهم بغداد ، وحاول بعض المسلمين اللجوء الى تلك الكنيسة ، وعرضوا

تقديم كل ثرواتهم مقابل الحفاظ على أرواحهم ، فلم يقبل البطريق النسطورى ذلك وتركهم تحت رحمة سيوف المغول وهم يتوسلون اليه ٠ وهكذا لم يدافع عن بغداد فى محنتها وبلاقى من الغزاة العذاب والهوان الا أهل السنة واليهود ٠

نتائج سقوط بغداد :

تعد واقعة سقوط مدينة بغداد وانقراض الدولة العباسية من أكبر الوقائع التى حدثت فى تاريخ البشرية حيث كانت لها أبعاد عدة على مستقبل الشعوب الاسلامية ودولهم وثقافتهم ولغاتهم ، وتبدو واضحة فى النواحى التالية :

١ ـ **الناحية الروحية :** ويتجلى ذلك فى شعور المسلمين بفداحة الواقعة التى حلت بشعوب العالم الاسلامى قاطبة الأمر الذى جعلهم يعتقدون أن الساعة قادمة لا ريب فيها ، واستوى فى ذلك الاعتقاد العالم والجاهل ٠ وأشار الى تلك النقطة التى سيطرت على أذهان العامة والخاصة بعض المؤرخين فى محاولة منهم تعليل الحوادث والكوارث الطبيعية التى سبقت سقوط بغداد بأنها اشارات ربانية على قرب نهاية العالم ، وأورد الذهبى(٣٣) والسيوطى(٣٤) بأنه ظهرت فى ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هجرية فى المدينة المنورة حيث قبر الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم ، نار عظيمة فى احدى الحرات (صخور بركانية) القريبة منها ، وسالت منها أودية ، وطار منها شرر هائل ، حتى شاهد ضوءها من كان بمكة أو فى الفلاة ٠ واجتمع الناس الى قبر النبى الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، من هولها مستغفرين تائبين ٠ واستمرت تلك النار أكثر من شهر ٠ أما المؤرخ ابن خلدون فقد وصف مجىء المغول واسقاطهم بغداد وقتلهم الخليفة العباسى بها بأنهم « طمسوا معالم الملة ، وكادت تكون من أشراط الساعة »(٣٥) ٠

وكان المسلمون يتطلعون الى الخلافة على أنها رمز للممالك الاسلامية

---

(٣٣) الذهبى : دول الاسلام ، طبع الهند سنة ١٣٦٥ هـ ٠ ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ٠

(٣٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ ٠

(٣٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، طبع القاهرة ، ص ٣٦٤ ٠

جميعها ، يجب أن يظل قائما ، وكانوا ينظرون الى خليفة المسلمين نظرة اجلال واحترام ، حيث كان نفوذه الدينى بعيد الأثر فى نفوس المسلمين جميعا ٠ ورغم أن الخلافة العباسية كانت قد فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من سلطانها الادارى والأدبى والروحى ومن قوتها المادية الا أنها كانت لا تزال تدخر قدرا كبيرا من سلطانها الأدبى والروحى ، فلما سقطت بغداد وقتل الخليفة ، قضى على ذلك النفوذ وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة ٠

لا شك فى أن شعور المسلمين بسقوط بغداد ونظرتهم الى الواقعة كان فى حد ذاته مأساة يقر بها المتعلم والجاهل ، كما يقر المسلم فى ذلك الوقت بأنه هو السبب فى الكارثة لعدم الوحدة والوقوف فى وجه كل مصلح والسير وراء كل طامع فى السلطة ، فاعتبروا ذلك خسارة عظيمة لهم لفقدهم المدينة التى عاصرت أمجادهم وعاش فيها فقهاؤهم وفنانوهم وأدباؤهم ففقدوا تراثها الحضارى ومكانتها الدينية ٠ وهذا ما عبر عنه فى شعر الشعراء ونثر الأدباء ، فمن الشعراء الذين رثوا بغداد الشيخ تقى الدين اسماعيل بن ابراهيم ابن أبى اليسر التنوخى بقصيدة دامعة فى ستة وستين بيتا ، مطلعها(٣٦) :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار   فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين الى الزوار لا تفدوا   فما بذلك الحمى والدار ديار

كذلك نظم الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى قصيدتين ، احداهما بالعربية والأخرى بالفارسية فى رثاء المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين وذكر واقعة سقوط بغداد ، يقول فى مطلع قصيدته العربية(٣٧) :

حبست بجفنى المدامع لا تجرى   فلما طغى الماء استطاع على السكر

نسيم صبا بغداد بعد خرابها   تمنيت لو كانت تمر على قبرى

لأن هلاك النفس عند أولى النهى   أحب له من عيش منقبض الصدر

---

(٣٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ ٠
(٣٧) كليات شيخ سعدى ، نشر مكتبة علمى بطهران ، ص ٤١٠ ٠

أما قصيدته الفارسية ، فيقول الشيخ سعدى فى مطلعها(٣٨) :

آسـمانرا حق بـود گرخـون بگريد بر زمين
بر زوال ملك مسـتعصم أمـير المؤمنـين

أى محمـد گرقيامت مى بر آرى سر زخاك
سر بر آور وين قيامت در ميان خلق بين

وترجمة البيتـين :

يحق للسماء أن تمطر الأرض دمـا   على زوال الملك المستعصم أمير المؤمنين

يا محمد ! اذا كنت ستطل برأسك من الثرى يوم القيامة
فأطل بها الآن،وانظر هذه القيامة وسط الخلق

كذلك من الكتاب والأدباء الذين أثرت فيهم حادثة سقوط بغداد وأهاجت مشاعرهم الفنية ظهير الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ هجرية (١٢٩٨ م) فأنشأ مقامة وصف فيها ما كانت عليه دولة الخلافة العباسية ، وخاصة دار الخلافة ، وما كانت تحويه بغداد من دواوين للوزارة والحجاب والمخـازن وحجرات نساء الخليفة ، وغيرها مظهرا عزها ومجدها المندثر(٣٩) ٠

٢ ـ **الناحية السياسية** : كانت بغداد قبل حملة المغول مركزا للنشاط السياسى لكافة أنحاء الشرق الاسلامى ، وكذلك كانت لا تزال رغم ضعفها لها سيطرة سياسية على العالم الاسلامى كافة ومؤثرة فى كافة المسـائل السياسية الدولية ٠ وكان اسمها ماثلا فى الأذهان بالنسبة لكافة المسلمين وحكام الدول الاسلامية ٠ وأوضح ذلك الخليفة العباسى نفسه عندما أرسل رسله الى هولاكو كى يثنيه عن عزمه فتح مدينة بغداد باعتبارها مدينة خالدة ، وحتى يخيفه ذكر له أنجميع من تصدوا لها اندثروا وأصيبوا بلعنة من السماء . فلما سقطت بغـداد فى أيدى المغول أصبحت مجرد مدينة تابعة لامبراطورية

---

(٣٨) كليات شيخ سعدى : مرجع سابق ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ٠

(٣٩) الكازرونى : مقامة فى قواعد بغـداد فى الدولة العباسية ، نشر كوركيس عواد وميخائيل عواد ، بغداد سنة ١٩٦٢م ٠

المغول(٤٠) • وانتقل مركز بغداد السياسى والروحى الى القاهرة التى تصدرت العالم الاسلامى وتزعمت المقاومة الاسلامية نتيجة احياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٨ هجرية بعد مرور سنتين على قتل آخر خليفة عباسى فى بغداد وتمكن سلاطين المماليك حكام مصر من هـزيمة المغول • وان كانت الخلافة العباسية فى مصر لم تزد عن كونها روحا بغير جسد ، حيث وضـع الخليفة العباسى فى قصر السلطان أشبه بالسجين يمنح البركات لمن يطلبها ، ولا يأبه به أحـد لحين ارتقاء عرش السلطنة سلطان جديد ، وعند ذلك يخرج الخليفة من مكمنه كى يعطى تقليد السلطنة ويعود الى مكانه مرة أخـرى ، وبذلك يكسب السـلطان الجـديد صفة الشرعية أمام الرعية وأمام الأمراء المتنـافسين(٤١) •

كذلك انتقل النشاط السياسى المغولى الى مدن الشمال فى آذربيجان فى مراغة وتبريز وخوى • وأخـذت تلك المدن تلعب دور العواصم ، يقـول رينسمان : « أخذت بغداد تستعيد رويدا رويدا نظافتها ، وتعود الى سـابق عهدها من النظام والترتيب ، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة اقليمية وافرة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق »(٤٢) •

٣ ـ **الناحية الاجتماعية :** كانت غالبية الشعب الأيرانى يتبعـون مذهب أهل السنة والجماعة ، وكانت الحكومات التركية تحارب التشيع ، وتناصر الخليفة العباسى السنى • وبالقضاء على الخـلافة العباسية انتشر التشيع فى المشرق الاسلامى نتيجة نفوذ رجال من الشيعة كانوا يتبوأون مراكز هامة عند المغول ، كنصير الدين الطوسى الذى كان مستشارا لهولاكو ومؤيد الدين بن العلقمى الذى أسند اليه حكم بغداد بعد سقوطها ، وكان قبل ذلك وزيرا بها عند آخر خليفة عباسى • والشيعة بصفة عامة عاونوا المغول

---

(٤٠) مصطفى طـه بـدر : محنـة الاسـلام الكبرى ، القـاهرة سنة ١٩٤٧م ، ص ١٨٢ •

(٤١) الذهبى : دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهـرة جـ ٧ ، ص ٦٤ •

(٤٢) رينسمان : تاريخ الحـروب الصليبية (الترجمة العربية) ، جـ ٣ ، ص ٥٢٢ •

وتقربوا الى هولاكو ، فحظوا عندهم بالتقرب والمناصب سواء فى عهد هولاكو أو فى عهد ايلخانات فارس • وفى عهد السلطان محمود غازان خان ازداد نفوذ الشيعة وقرب اليه أهل البيت وقام ببنساء تكايا عرفت باسم « دار السادة » خصصها لأحفاد الامام على بن أبى طالب ، أما أخوه « أولجايتو محمد خدابنده » فانه اعتنق التشيع وحاول فرضه بالقوة على المغول وغيرهم ولم يقرب اليه أحدا من رجال المذاهب الأخرى ، لذلك اشتهر بين العامة باسم « خربنده » (أى عبد الحمار) • وفى الوقت نفسه عاش أهل السنة وهم الغالبية العظمى من الشعب الايرانى تحت الحكم المغولى أسوأ حياة ، وتحملوا من أساليب العنف والاضطهاد ما تنوء به الجبال •

أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاكو فى فتح بغداد فانهم لاقوا من ايلخانات فارس كثيرا من العسف والاضطهاد ، وفقدوا ما كان لهم من حقوق وامتيازات التى كانت لهم أيام الخلافة العباسية وأيام هولاكو . كما فقدوا الود والصداقة التى كانت قائمة بينهم وبين كافة طبقات الشعب الاسلامى ، وبلغ من سوء حالهم أن البطريق النسطورى اضطر الى نقل مقره الدينى من بغداد الى اربل ليتفادى ما كان ينزل به من اضطهاد وعسف • كما أن جميع مسيحى بغداد اضطروا أيام السلطان محمود غازان خان الى التزام منازلهم عندما قوى الشعور ضدهم ، حتى صارت نساؤهم يذهبن الى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لانهن كن يلبسن ثياب المسلمات فلا يمكن تمييزهن •

٤ ــ **الناحية العلمية :** كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والفنون والآداب ، يهرع اليها العلماء وطلاب العلم حيث كانت غنية بمدارسها ومكتباتها وبعلمائها وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وفنانيها ، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وموجهين وملهمين لرجال العلم والأدب فى مختلف عواصم الشرق الاسلامى ، فما حلت النكبة ببغداد على أيدى المغول قتل آلاف من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين ، وأحرقت المكتبات واتلفت الكتب وخربت المدارس والمعاهد العلمية وقضى على الآثار الاسلامية التى كانت تتميز بها بغداد •

ان النكبة التى حلت ببغداد أضاعت الكثير من التراث العربى الإسلامى

لا سيما وأن المغول عبثوا عمدا بالكتب لافتقارهم الى الحضارة والثقافة وعدم معرفتهم قيمة الكتاب أو قيمة ما فى الكتاب من علم أو أدب أو غيره من الفنون ، وقيل أنهم بنوا بالكتب العربية الاصطبلات للخيول والمعالف(٤٣) ٠ كما قيل أيضا أنهم بنوا بها جسرا مع الطين والماء بدلا من الآجر(٤٤) ، وذكر المؤرخون أيضا أن المجاعة التى حلت ببغداد فى ذلك الوقت دفعت كثيرا من الناس لبيع ما سلم من كتبهم ٠ ونتج عن ذلك أن انتشرت كتب مكتبات بغداد فى عدة مدن(٤٥) ٠

كذلك كان أهم أثر علمى نتج تلقائيا عن نكبة بغداد أن فقدت اللغة العربية المكانة الممتازة التى كانت تتمتع بها قبل الغزو المغولى فى ميادين الثقافة والعلوم والآداب ، ومهدت الظروف الجديدة تحت ظل الحكم الجديد تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية فى الاقاليم الفارسية ٠ يقول المستشرق الانجليزى ادوارد براون فى هذا المعنى : « ان تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين وانزالها الى مرتبة المدن الاقليمية ، قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم والشعوب الاسلامية بلطمة شديدة ، كما أصاب مكانة اللغة العربية فى ايران بضربة قاصمة ، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية ، فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) لم نعد نصادف الا القليل النادر من الكتب العربية التى تم تاليفها فى ايران »(٤٦) ٠

---

(٤٣) كتاب مختصر أخبار الخلفاء ـ مجهول المؤلف وينسب خطأ لابن الساعى ، بولاق ١٣٠٩ هـ صفحة ١٢٧ ٠

(٤٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٥١ ٠

(٤٥) الحوادث الجامعة ـ مجهول المؤلف ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ ٠ (١٢٥٨ م) ٠

(٤٦) ادوارد براون : تاريخ الأدب فى ايران ـ من الفردوسى الى السعدى ، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٩٥٤م ، ص ٥٦٤ ٠

الفصل السادس

حمـــلة هولاكو على الشـــام

وما أن تم لهولاكو فتح بغداد وتحطيم الخلافة العباسية حتى رنا ببصره صوب الغرب حيث بلاد الشام ومصر ، وكان أول شيء أقدم عليه أن كلف أحد قواده ويدعى « أرقيو نويان » بالسير الى اربل ، وكان يعيش بها آنئذ خليط من الناس ما بين عرب وايرانيين ، وكان العنصر الكردى هو السائد ٠ وتمكن أرقيو بوقا من فتح مدينة اربل وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام.

حالة البلاد الشامية قبيل الغـزو المغولى :

كانت بلاد الشـــام فى ذلك الوقت فى يد ثلاث سلطات متنازعة بل وفى خصومة شـــديد تتمثل فى ســلطة الأوروبيين والصليبيين وسلطة الأرمن المسيحيين وسلطة الحكام المسلمين الذين كانوا يتمثلون فى البيت الأيوبى ٠ وكان هؤلاء الأيوبيون يحكمون مدن ميافارقين وماردين وحصن كيفا والكرك ودمشق وحمـــاة وحمص ٠ ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الأمراء وهم من أسرة واحدة وينتسبون الى البطل صلاح الدين الأيوبى كانوا فى نزاع دائموخلافات مستمرة وتطاحن على السلطــة والسلطـــان ٠ ورغم الخطر الذى بدأ يلوح فى الأفق وظهر مدمرا مخيفا ، الا أن أمـراء البيت الأيوبى لم يقـــدروا الموقف وداهمهم هولاكو وهم على خـــلافاتهم فاصطادهم الواحد تلو الآخر وقضى عليهم جميعـــا ٠ أما مصر فكانت تحت سيطرة أمراء المماليك البحرية وهم الذين حلوا محل الدولة الأيوبية وبين الفريقين نزاع وخصام ٠ ورأى سلاطين مصر ومماليكها وهم من الجركس وأتراك القبچاق أن يضعفوا شوكة المغول ويقفوا فى وجههم انتقاما منهم لمـــا حل بالاسلام من خطوب ومحن على أيديهم وحفاظا على سلطتهم فى مصر ٠

الحـرب بين الأيوبيين والمغــول :

كان الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق (٦٤٠ـ٦٥٩هـ) أكثر الأمراء الأيوبيين قـدرة واقتـدارا ، لكنه أعلن خضوعه لهولاكو بعـد سقوط بغــداد مباشرة ، وأرسل ابنه العزيز ـ وكان صغيرا ـ الى هولاكو يحمل اليه الهدايا والتحف ويقدم صك العبودية ، وطلب الناصر يوسف الأيوبى من ابنه أن ينقل الى الخان المغولى على لسان أبيه امداده بنجدة تســاعده فى الاستيلاء على مصر وتخليصها من المماليك الذين انتزعوها من بيته(١) ٠ لكن هولاكو رأى أن الوفد الذى أرسله الملك النــاصر يوسف الأيوبى اليه لا يناسب مقامه ، فأرسل اليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجئ اليه وتقديم الخضوع والتبعية دون قيد أو شرط(٢) ، وقال له فيها : « اذا وقفت على كتابى هـذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك الى طاعة سلطان الأرض تأمن شره وتنل خيره ، وقـد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى « كروان كسرى » (أى مصر بلغة المغول) فان كانوا فى الجبال نسفناها ، وان كانوا فى الأرض خسفناها »(٣) ٠ وانزعج السلطان النــاصر يوسـف الأيوبى صاحب دمشق انزعاجا شديدا واضطربت أحواله وفقد رباطة جأشه مع اشتهاره بالشجاعة والاقدام وأيقن أنه هالك لا محــالة ، فبعث بأسرته وأمواله الى مصر وحاول فى غمرة يأسه الوقوف فى وجه المغول ٠

وفى شهر رمضان سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ م) توجه هولاكو مع حلفائه من أمراء جورجيا وأرمينيا من عاصمة ملكه « مراغة » فى آذربيجان قاصـدا سورية ومعه جيش يزيد عدده على مائة وخمسين ألف جندى ، واستولى جيش مغولى على مدينة ميافارقين عاصمة دياربكر وكانت تحت سـيطرة « الملك الكامل محمد الأيوبى » الذى أظهر هو وشعبه ضروبا من الشجاعة والفـداء منقطعة النظير ، ولم تسقط المدينة الا بعد أن عم القحط وانتشرت الأوبئة ، وقلت المؤن حتى اضطر الناس أن يأكل بعضهم بعضا وهلك أكثر السكان ٠ ولما تأكد الملك الكامل محمد أن المقاومة أصبحت عديمة الجدوى وأنه لا فائدة

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤١١ ٠
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٨ ٠
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٠ ٠

فى الصمود استسلم للمغول فقتلوه شر قتلة · وفى شأن تلك الواقعة يقول محمد كرد على ما يلى(٤) « واستولى التتار على ميافارقين (٦٥٨) بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر بن العادل أبى بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطافوا به فى الأرجاء ، فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغانى والطبول وعلقوه فى شبكة بسور باب الفراديس الى أن عادت دمشق الى المسلمين » ·

وما أن تم للمغول فتح ميافارقين حتى تقدموا نحو ماردين . وكانت فى قبضة الملك السعيد فوقف فى وجه المغول أيضا ، وحاصر المغول المدينة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا فى اقتحامها · وأخيرا حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثنى أباه عن عزمه ، ويحمله على التسليم للمغول ، فلما لم يفلح ، لم ير الابن بدا من قتل أبيه ، حقنا لدماء المسلمين ، فتخلص منه وسلم القلعة للمغول فكافأه هولاكو على اخلاصه ونصبه واليا على ماردين بدلا من أبيه ·

وفى أثناء حصار كل من ميافارقين وماردين كان هولاكو يغزو الامارات الاسلامية الواحدة بعد الأخرى فى سورية ، فاستولى على نصيبين واستسلمت له حران والرها ، ثم تقدم على رأس جيش كبير يعاونه حلفاءه الفرنج والأرمن لحصار حلب ، وكان واليها « الملك المعظم تورانشاه » ، وجريا على عادة المغول أرسل اليه هولاكو رسالة يطلب فيها أن يسلمه المدينة وأن يلقى سلاحه ويهدم أسوار القلعة وتحصنات المدينة ، ووعده بأنه سوف يؤمنه على حياته ويؤمن أتباعه · فلم يجبه توران شاه الى طلبه وصمم على محاربته والوقوف فى وجه المغول مهما كانت الظروف والنتائج ·

وكانت مدينة حلب البائسة أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، باعتبارها مفتاح البلاد الشامية ، وكانت أخبار سقوط بغداد وما ارتكبه المغول فيها من فظائع قد أثارت موجة من الرعب والفزع ، واتحد شعب المدينة مع حاكمهم الأيوبى وتحصنوا خلف أسوارها المنيعة ، ونشب قتال

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ ·

شديد بين الطرفين ، وفشل المغول فى اقتحام أسوار حلب أول الأمر على الرغم من فتكهم بجانب كبير من حاميتها ، واضطروا الى رفع الحصار والرحيل عنها • ولم يلبث هولاكو أن أعاد الكرة مرة أخرى وشدد الحصار على منافذ المدينة ، وأرسل الى حاكمها الملك المعظم تورانشاه للمرة الثانية يدعوه الى تسليم القلعة ونزع سلاح جنوده ، لكن الأخير رفض انذار هولاكو الذى قال فيه : « انكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن قصدنا النـاصر والعساكر ، فأجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ، ونتوجه نحن الى العسكر ، فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنـا وتكونون قـد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين ، ان شئتم طردتموهما وان شئتم قتلتموهما » ، فلم يجب المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف • فتعجب هولاكو من هـذا الجواب وتألم ، لمـا علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك »(٥) •

وزحف المغول صوب مدينة حلب وأحكموا حصارها ، ويكمل الحـافظ الذهبى ما فعله المغول بعد ذلك بقوله : « وحفر المغول خندقا عمق قامة وعرض أربعة أذرع وبنو حائطا بارتفاع خمسة أذرع ، ونصبوا عشرين منجنيقا ، وألحوا بالرمى وشرعوا فى نقب السور • وفى تاسع صفر ركبوا الأسوار »(٦) • وبذلك اقتحم المغول أسوار مدينة حلب المنيعـة واضطرت الى التسليم ، واستباحها هولاكو لجنوده سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا ، وسـبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الدور والمتاجر ونشروا فى أرجاء المدينة الخـراب والدمار وقبل أن يغادر المغول المدينة تركوها شعلة من اللهب والدخان • يقول محمد كرد على فى شأن ما فعله المغول فى حلب : « وأحاط التتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخى مردكين ودار البـازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفى وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم • وقيل انه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس • ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر ، واستمر الحصار

---

(٥) محمـد كـرد على : خطط الشـام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ •
(٦) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٤١ •

عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان ، وأمر هولاكو أن يمضى كل من سلم الى داره وأن لا يعارض ، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزوينى »(٧) • وكان ابن العبرى المؤرخ صاحب كتاب « تاريخ مختصر الدول » فى ذلك الوقت يشغل منصب رئيس أساقفة حلب فسارع الى المغول وقدم طاعته وولاءه الى هولاكو خان • واستغل « هيثوم » ملك أرمينية وحليف المغول وشريكهم فى فتح حلب الفرصة فأحرق الجامع الكبير انتقاما من المسلمين • كما قام هولاكو خان باعطاء حليفه ملك الأرمن جزءا من الأنفال ، وأعاد اليه الأقاليم والقصور التى كان قد استولى عليها مسلمو حلب • كما رد هولاكو أيضا الى « بوهمند » ملك كيليكية الصليبى جميع الأراضى التى كان المسلمون قد اقتطعوها منه • وقبل أن يغادر هولاكو خان المنطقة حمل من الأسرى مائة ألف من النساء والشباب وأمر بقتل بقية السكان وتدمير مدينه حلب •

وجاء دور دمشق اثر حلب حيث قام حاكمها الملك الناصر يوسف بحشد كل ما استطاع جمعه من قوات عند « برزة » لصد المغول والوقوف فى وجههم ، وانضم اليه كثير من المتطوعين من المدن الشامية وكذلك البدو الذين تواغدوا على دمشق لمساندتها فى محنتها حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل • ولكن ما أن بلغ نبأ اقتراب المغول الى مسامع هؤلاء حتى انفضوا ، وفر كل واحد منهم لا يلوى على شىء بعد أن أيقنوا أنهم أعجز من أن يقفوا فى وجه هذا السيل العرم ، وتركوا مواقعهم المخصصة لهم فى ميدان القتال والحراسات ، وفروا صوب الجنوب • كذلك فعل الملك الناصر يوسف الأيوبى ، فقد انسحب من دمشق هو الآخر وفى صحبته أمير حماة وعدد ضخم من الحاشية والأتباع وما جمعه من أموال وممتلكات واتجه الى غزة بفلسطين ، وتركوا المدينة وشعبها لمصيرها التعس المحتوم •

وقرر سكان دمشق أن يستسلموا للمغول بعد فرار ملكهم وهروب المدافعين من حصونها وقرر وفد من أعيان المدينة التوجه الى معسكر المغول والاتصال بهولاكو ليطلبوا منه الأمان لأنفسهم ويعرضون تسليم مدينتهم •

---

(٧) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ •

وفى هــذه الفترة التاريخية العصيبة حدث حادث اضــطر هولاكو خان الى مغادرة البلاد الشامية والعودة الى العاصمة المغولية عند سماعه خبر وفاة أخيه الخاقان « منكو » وعهد بمهمة مواصلة فتوحاته فى الشــام ومصر ومطاردة الملك الناصر يوسف الأيوبى الى أحد قواده ويدعى « كيتوبوقا » ، وكان يعتبر من كبار قادة المغول العسكريين وهو الذى تمكن من احتلال دمشق ودخولها دخول الظافرين فى سنة ٦٥٨ هجرية (أول مارس ١٢٦٠ م) دون مقــاومة ٠ وهكذا سقطت مدينة دمشق حاضرة الأمويين ودرة الشام صريعة تحت أقــدام الغــزاة المغول ، كما سقطت من قبل بغداد درة العراق وحــاضرة الخــلافة العباسية ٠ أما قلعة المدينة ، فانها امتنعت على المغول ، فحاصروها ونصبوا المجانيق التى قام بتشييدها مهندسون صينيون ، وبدأ المغــول يقذفون المدافعين بوابل من نيرانهم وسهامهم وحجــارتهم الى أن استسلمت لهم ، وقتلوا من كان بها من أهالى وجنود على السواء ٠ وما فعلوه بحلب كرروه فى دمشق فنهبوا جميع دورها ومتاجرها وهدموا جميع جوامعها ، وأشعلوا فيها النيران فأتت عليهــا ٠

وأجمع المؤرخون المسلمون على أنه اثر فتح المغول مدينة دمشق انتظم المسيحيون فى مواكب عامة اظهارا لفرحتهم بانكسار المسلمين ، وتأييــدهم للمغول والترحيب بهم ، واعتبروا ذلك عنوانا للتشفى والانتقام من المسلمين ٠ وكانوا ينشدون الأناشيد ويحملون الصلبان ، ويجبرون المسلمين على الوقوف لهم احتراما ، ومن امتنع من المسلمين كان يتعرض للسب والاهانة ٠ وبلغ بهم التحدى مداه ، فقد كانوا يدقون نواقيس الكنائس ويشربون الخمر جهارا فى شهر رمضان ، وكانوا يرشونها على ثيــاب المسلمين وهم يســيرون فى الطرقات ، كما صبوه على أبواب المساجد ، ولم يستثنوا من ذلك حتى الجامع الأموى ٠ فضجر المسلمون من تلك الأفعال ، ورفعوا شكواهم الى قائد المغول « كيتو بوقا » ، فلم يحفل بهم ، بل زجرهم وأهــانهم وضرب بعضــهم ، وأخذته موجة من التقــوى ، فجعــل يزور الكنائس ويعظم رجــالها على اختلاف مذاهبهم(٨) ٠

---

(٨) انظر : الذهبى : دول الاسلام ج ٢ ص ١٢٥ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ ٠

أما الملك الناصر يوسف فانه بعد أو وصله أنباء سقوط دمشق وتدميرها ، انفض رجاله من حوله ، وفر هائما على وجهه لا يلوى على شىء ، الى ان القى كيتو بوقا القبض عليه فى جهات الأردن ، فأرسله الى هولاكو خان فى تبريز بعد أن وعده باسناد حكومة الشام اليه عندما يستولى على مصر(٩) . وفى تبريز قتله هولاكو خان بنفسه . يقول محمد كرد على فى كتابه « خطط الشام » تكملة لما ذكرناه ما يلى : « وظل التتر يتنقلون فى الشام حتى فتحوه الى غزة ، واستقرت شحائنهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من دمشق فى عسكره الى الديار المصرية ، وفى صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تخلى ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها الى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة تكون عندهم ، فأمنهم هولاكو خان وأرسل الى حماة شحنة رجلا أعجميا اسمه خسرو شاه ، فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتر (٦٥٨ هـ) على ميافارقين »(١٠) .

وعلى هذا النحو خضعت بلاد الشام للمغول بعد أن فتحوها بحد السيف وأرغموا أهلها على الخضوع لهم وهولاكو بعيدا عنها , وبقى اتمام الخطوة التالية وهى فتح فلسطين ومصر . لقائده « كيتو بوقا » ومعه عشرة آلاف جندى مغولى يعاونه فى ذلك حلفاء المغول من المسيحيين وعلى رأسهم « هيتوم » ملك أرمينية الذى كان يطمع فى استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين .

هزيمة المغول على أيدى المماليك :

قدر للمماليك حكام مصر قهر المغول فى الصدام الرابع بين المغول والمسلمين وايقاف زحفهم مبددين خرافة الجيش المغولى القهار . وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت « الملك المظفر سيف الدين قطز » الذى أيقن بحاسته العسكرية منذ البداية أن اندفاع المغول غربا بعد أن احتلوا ايران والعراق

---

(٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ص ٣٠٨ .

(١٠) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

سيكون هدفه مصر وميدانه أرضها ، فهى أقوى وأغنى أقاليم العالم الاسلامى قاطبة وأكثرها رخاء • وتمكن قطز بقوة شخصيته وصلابة عزيمته من جمع المماليك حوله فقرروا اسناد الحكم اليه عام ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ م) حتى يواجه الخطر المغولى الذى بات يهددهم •

وكان هولاكو خان وهو فى بلاد الشام قبل عودته الى عاصمته بآذربيجان لرغبته فى الاشتراك فى انتخاب خلف لأخيه « منكو قا آن » الذى قضى نحبه سنة ٦٥٨ هجرية (١٢٥٧ م) ، قد أرسل خطابا الى السلطان قطز ـ جريا على عادته ـ مع أربعة من رسله كله تهديد ووعيد لحمله على الخضوع والتسليم ، قال فيها : « من ملك الملوك شرقا وغربا ، القائد الأعظم ، يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية أنا نحن جند الله فى أرضه ، سلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، ليس لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم »(١١) •

جمع السلطان قطز الأمراء وكبار رجال الجيش والدولة واستشارهم فيما يجب عمله ، ولم يكن قادته فى أول الأمر يشاركونه منازلة المغول • ووقف قطز وجماعة من الأمراء وأعلنوا استعدادهم لمواجهة المغول والتضحية فى سبيل الاسلام • ومع أنه خاطب أولئك المتخاذلين يحثهم على التضحية الا أنهم كانوا بين نارين ، مواجهة المغول وهم قوة اشتهرت فى العالم بقسوتها وانتصاراتها أو فنائهم مؤثرين الاستسلام • وما أن رأى السلطان قطز ذبذبة بعض قادته أظهر امتعاضه منهم فى مؤتمر عقده لتلك الغاية بعد أن غادر القاعة صائحا بأعلى صوته « سأقاتل بمفردى •••• » • فاضطر القادة المماليك ازاء ذلك المشاركة فى الحرب والوقوف فى وجه المغول وتصافوا فيما بينهم وأنهوا مشاكلهم وتوجهوا الى عدوهم بقلب واحد ، واستدعى قطز رسل هولاكو خان الأربعة واستقبلهم استقبالا جافا ، وأمر بالقبض عليهم وترك صبيا كان برفقتهم واستبقاه فى خدمته ، وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب

---

(١١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٦٣ •

القاهرة ، ثم علق رؤوسهم الأربعة على باب زويلة . فكان الاجراء الذى أقدم عليه السلطان قطز بمثابة اعلان الحرب ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من رؤوس المغـــول(١٢) .

تحركت طلائع الجيوش المصرية نحو فلسطين فى ٢٦ يوليو ١٢٦٠ م بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى (الملك الظاهر بيبرس فيما بعد) ليتجسس أخبار المغول ويستطلع تجمعاتهم ويمهد الطريق للقوات الرئيسية المصرية الزاحفة نحو فلسطين بالقضاء على أية مقاومة تصادفها وكان من ضمن ما قام بـــه الأمير ركن الدين بيبرس أن هيأ طـريقا لعبور الجيوش المصرية عـــبر الاراضى الصليبية حيث رحب زعمـــاء مملكة عكا ببيبرس وتعاطفوا معه وعرضوا تقديم المساعدة فى الحرب التى سيخوضها الجيش المصرى ضـــد المغول لما لحقهم من أذى وخوفهم من مستقبل مجهول على يـــد المغول الذين نهبوا صور وبيروت ولم يفرقوا بين مسلمين ومسيحيين . ثم خرج السلطان قطـــز على رأس الجيش المصرى من قلعة الجبل تتقـدمه الطبول وتنفخ أمامه الابواق وتشيعه قلوب الشعب نحو الصالحية فى طريقـه الى فلسطين فى مظاهرة وطنية سلمية اشترك فيها جميع أفراد القاهرة ومن وفدوا اليهـــا وامتزج حب الوطن والتضحية فى سبيله بالتعصب الـــدينى الاسلامى الذى نتج ممـــا فعـله المغول بالاسلام والمسلمين ، وذكر المؤرخون المسلمون الذين شاركوا فى هذا العمل الوطنى أن العيون انهمرت بالدموع من الفرحة وان القلوب خفقت تدعو الله سبحانه وتعالى بنصر جنده وتبـــديد شمل عدوه . وفى الناحية المقابلة كان كل فرد من أفراد القوات المصرية راكبا أو راجلا قـد نسى نفسه فى غمرة هذا اللهيب الوطنى الدينى ولا هم له سوى التضحية والفـــداء .

وفى صباح يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية (٦ سبتمبر ١٢٦٠ م) بدأت المعركة بهجوم عنيف من فرسان المغول على صفوف المصريين فى عين جالوت قرب الناصرة بين بيسان ونابلس وحمل قطز بنفسه على المغول

---

(١٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

في تلك الموقعة ، وكاد أن يفقد فيها حياته غدرا ، اذ سدد اليه ذلك الصبي المغولي رفيق وفد هولاكو والذي استبقاه في خدمته سهما من الخلف ، فوقع السلطان قطز على الأرض ، وأسعفه الفرسان وفتكوا بالصبي . وانزل الجيش المملوكي المصري بالمغول هزيمة منكرة نتيجة الخطة المحكمة التي وضعها قطز بنفسه فشتت قواهم وبدد شملهم ووقع القائد المغولي « كيتوبوقا »(١٣) أسيرا واقتيد الى السلطان قطز . وجرت محاورة قصيرة بين الطرفين ، قال قطز لكيتوبوقا : أترى كيف أصبحت مأسورا بعد أن كنت آسرا ..؟ فأجاب كيتوبوقا : ان أمرت بقتلي فهي ارادة الله وليست ارادتك ، والويل لكم ان سمع هولاكو بقتلي يا سفاكي دماء أسيادكم » . فأمر السلطان قطز بقطع رأسه فضربه الأمير المملوكي جمال الدين أقوس الشمسي بسيفه ، ويذكر الذهبي « أنه كان عظيما عند التتار معتمدا عليه لشجاعته ورأيه ، وكان هولاكو يتيمن برأيه ويحترمه وكان شيخا مسنا كافرا يميل الى النصارى »(١٤) .

وأعمل الجنود المصريون السيف في الرقاب ، وذبحوا كل مغولي كان على أرض المعركة في الفترة ما بين الصباح حتى الظهيرة . ووجد المغول أنفسهم للمرة الاولى قد جردوا من مقدرتهم على القتال حيث كانوا يفرضون على أعدائهم ميدان المعركة نفسها وطريقة القتال التي تحلو لهم فتكون لهم الغلبة والنصر . ومن أهم أسباب انكسارهم فقدهم القدرة على المناورة بالخيل كما هي عادتهم عندما ينازلون أعداء لهم ، ولم يغنهم مهارتهم في ركوب الخيل والضرب بالقوس في احراز النصر وكسب المعركة . وقتل في معركة « عين جالوت » معظم قادة المغول وجزء كبير من مقاتليهم ونجت قلة قليلة تمكنت من الهروب حيث تفرقوا شراذم قليلة في كل اتجاه بحيث أنه ما أن جاء العصر حتى كانت أرض المعركة خالية تماما من المغول ، واستولى المماليك على غنائم هائلة لا تعد ولا تحصى .

ولم يكتف السلطان قطز بما أحرزه من نصر ، فأمر فرقة من الفرسان

---

(١٣) تكتبه المصادر العربية ولا سيما المصرية منها « كتبغا » .
(١٤) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .

بمتابعة المغول الفارين والاجهاز عليهم قادها الأمير بيبرس البندقدارى فأتى عليهم ، ومن استطاع النجاة من حراب المصريين وسيوفهم ، لم ينج من أهل البلاد الشامية الموتورين • واستمر الأمير بيبرس يتتبع فلول المغول ويجهز عليها حتى تطهرت منهم كل أراضى الشام وفلسطين •

وعندما وصلت أنباء هذا النصر الى دمشق ثار أهلها على جيش الاحتلال المغولى وفتكوا بالمغول المقيمين بالمدينة ، وكذلك اليهود والنصارى الذين انضموا الى الغزاة ضد المسلمين ، فأعملوا فيهم السيف ومزقوهم شر ممزق • ويذكر محمد كرد على ما قاله الذهبى فى هذه الواقعة وهى متممة لحديثنا ، يقول الذهبى : « ان نصارى دمشق شمخت أثناء مجيء هولاكو الى البلاد ، ورفعوا الصليب فى البلد وألزموا الناس بالقيام له ونقضوا العهد ، وصاحوا ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح • فلما انتصر المسلمون على هولاكو فى عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق ، فوقع النهب والقتل فى النصارى وأحرقت كنيستهم العظمى • وقال أبو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع • قال فى الذيل : ان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتر وتردد كبار المغول وقادتهم الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاكو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم وتوجه فى حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الاسلام ، ويرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد ، فركب (المسلمون) من ذلك هم عظيم ، فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة واخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوما ، والحيطان حولها تعمل النار فى أخشابها ، وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين ، ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى »(١٥) •

---

(١٥) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ – ١٠٨ •

أما السلطان قطز فقد غدا عقب معركة عين جالوت سيد الموقف فى بــلاد الشام حيث لم تستطع بقايا البيت الأيوبى فى بلاد الشام مقاومته أو الوقوف فى وجهه ، فدخل دمشق دخول الظافرين وقال أبو شامة : ومن العجائب أن التتر كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقيل فى ذلك :

غلب التتــار على البلاد فجـــاءهم   من مصر تركى يجـود بنفســــه
بالشـــام أهلكهم وبدد شــملهم   ولكل شىء آفــه من جنســه(١٦)

وبعد أن أطمأن السلطان قطز الى تطهير بلاد الشام من بقايا المغول ، أعاد أمراء بلاد الشام من أيوبين وغير أيوبين الى مناصبهم بشرط اعترافهم له بالتبعية · وبذلك استطاع أن يمد سيادة الدولة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا امارة الكرك الصليبية · أما فى مصر فقد حملت الى القاهرة رأس « كيتوبوقا » قائد المغول ، وطوف بها فى أهم شوارعها وتدافع الناس الى المساجد يشكرون الله على انتصار جيشهم ودحر أعدائهم · ان معركة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة بالنسبة لمصر ، اذ أنقــذت البلاد المصرية من خطر الدمار ، ولم يجرؤ المغول بعد ذلك على التقدم نحــو مصر · ومن ناحية أخرى عملت على رفع المعنويات الاسلامية وبددت خرافة الجيش المغولى القهار ·

أما هولاكو خان فانه لم يستطع أن يتقـــدم نحو الغرب لانشغاله فى حرب مع منافسيه من نفس البيت الجنكيزى ، وكان على رأسهم «بركه خان» ابن جوجى وخان القبيلة الذهبية « آلتون أوردو » الذى شعر بالخطر يهدده من جانب هولاكو خان بعــد أن ثبت كفاءة ومقدرة فى قيادة الجيوش المغولية التى قدمت من منغوليا وفتحت قلاع الاسماعيلية وحطمت الخلافة العباسية · وأراد بركه خان أن يستخلص لنفسه البلاد التى فتحها هولاكو خان ويوسع مملكة « الآلتون أوردو » ، فاستمرت الحرب بينهما فترة طويلة انتصر فيها هـــولاكو ·

---

(١٦) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الشهير بأبى شامه : ذيل الروضـــتين ، حوادث ســنة ٦٥٨ هـ ، طبع القــاهرة سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م ، ص ١٨٠ ·

وراسل هولاكو خان الخاقان « قوبيلاى قا آن » وأخبره بما حل بالمغول من هزيمة على يـد سلطان مصر ، ويستفاد من الرسالة التى أرسلها هولاكو للخاقان أن المغول أصيبوا بصدمة قوية حلت بهم لعظم خسائرهم فى الرجال والعتاد ، وأبلغه أنـه مصمم على الثأر والانتقام ومهاجمة المماليك والقضـاء عليهم ، فما كان من « قوبيلاى قا آن » الا أن أصدر مرسوما يقضى بأن يتولى هولاكو خان وذريته البلاد الواقعة بين شط نهر جيحون حتى بـلاد الشام ومصر ، وقام هولاكو خان بعـد صدور المرسوم (يرلغ) بتقسيم مملكته على النحو التـالى :

١ ــ العراق وخراسان ومازندران الى ابنه الأكبر « أباقا خان » ٠

٢ ــ أران وآذربيجان الى ابنه « يشموت » ٠

٣ ــ بلاد الروم (آسيا الصغرى) الى معين الدين سليمان پروانه ، الذى كان وزيرا لسلاجقة الروم ودخل فى طاعة المغول ٠

وبدأ هولاكو خان يستعد لحرب المماليك المصريين لكن الموت عاجـله سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٧٥م) حيث توفى فى ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣هجرية وله من العمر ٤٨ سنة بعد أن حكم ايران وغرب آسيا مدة ١٢ سنة ٠ ويذكر الحافظ الذهبى وصـفا لهولاكو يقول فيه : « طوى الممالك وأخـذ حصون الاسماعيلية وآذربيجان والروم والعراق والجزيرة والشام ٠ وكان ذا سطوة ومهابة وعقل وغور وحزم ودهاء ، وخبرة بالحروب وشجاعة ظاهـرة وكرم مفرط ومحبة لعلوم الأوائل من غير أن يفهمها ٠٠ مات على كفره فى هـذه السنة (٦٦٤) بعلة الصرع ، فانه اعتراه منذ قتل الشهيد صاحب ميافارقين الملك محمد بن غازى ، حتى كان يصرع فى اليوم مرة ومرتين ٠ وقيل مات فى ربيع الآخر من العام المـاضى بمراغه ، ونقلوه الى قلعة تلا وبنو عليه قبة ٠ وخلف سبعة عشر ابنـا ٠ تملك عليهم ابنه أبغا ٠ وكان القان قـد استناب هولاوو لا رحمة لـه ، على خراسان وأذربيجان وما يفتحه « أهـ »(١) ٠

والى جانب الفظائع التى ارتكبها هولاكو كقائد مغولى فى حق الاسلام والمسلمين ، وأصبح فى نظرهم وفى صفحة التاريخ الاسلامى شخصية منفرة

دريهة ، الا أنه كان يميل الى البناء والعمران وترك آثارا عديدة فى مدينة مراغة .. وكان هولاكو يميل الى العلوم وتعلمها ، وله عشق زائد بالحكمة والنجوم وعلاقة بالكيمياء . وكان بوذى المذهب وان مال الى المسيحية نتيجة علاقته بزوجته « دوقوز خاتون المسيحية » وكان من مستشاريه أرمنى يدعى « وارطان » فازداد فى عهده نفوذ الارمن والمسيحيين حتى أنهم بدلوا المساجد الى كنائس وتطاولوا على المسلمين أيما تطاول .

الباب الثالث

الفصل السابع

ايلخانات فارس من عهد أباقا حتى بايدو (العصر الوثنى)

اباقا خان (٦٦٣ ـ ٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢ م) :

تولى أباقا خان العرش الايلخانى بعد وفاة والده هولاكو خان سنة ٦٦٣ هجرية ، وكانت الدولة المغولية فى ايران والتى أرسى قواعدها والده هولاكو تشمل جميع الاراضى الممتدة بين نهر جيجون الى المحيط الهندى ومن السند الى الفرات مع جزء كبير من الاناضول وبعض أقاليم القفقاز ٠ وقد اجتمع ممثلو الاسرة الجنكيزية المتواجدون فى غرب آسيا وشكلوا قوريلتايا مصغرا أشبه بذلك الذى يشكل فى منغوليا والصين وانتخبوا أباقا ايلخانا على ايران وتوابعها ٠ وقد أسهمت والدته « دوقوز خاتون » أرملة هولاكو المسيحية فى انتخابه بالتعاون مع مستشارها الارمنى « وارطان » ، وتم ذلك فى الثالث من رمضان سنة ٦٦٣ هجرية ٠ وبعد خمس سنوات أيد اختياره « قوبيلاى قا آن » الخان الاعظم للمغول فى خانبالق (پيكين) ٠

ولد أباقا خان فى منغوليا فى شهر مارس سنة ١٢٣٤ م ، ووفد على ايران عام ١٢٥٦ م مع أبيه هولاكو ، واشترك فى معظم الحروب التى تمت فى عهد أبيه ٠ ونلاحظ منذ تولية أبقا خان أن نفوذ المغول الأصليين فى قراقورم وپيكين كان ينمحى بالتدريج حيث أن خلفاء هولاكو كانوا يسيرون على سنن سلاطين ايران المحليين منذ استقرارهم فى ايران ، كما اتبعوا رسومهم وتقاليدهم بجوار السنن المغولية والياسا الچنكيزية حتى يمكن وضعهم فى عداد طبقة من سلاطين ايران ٠

وكان حكام ايران من المغول يحملون لقب « ايلخان » للدلالة على أنهم كانوا يتبعون الخاقان فى پيكين ، ولذلك ظل هذا الاسم قائما حتى وفاة

قوبيلاى سنة ١٢٩٤م . وقد حلت تلك الرابطة الوثيقة الصلة بدخول حكام ايران المغول فى الاسلام نهائيا سنة ١٢٩٥ م . ومنذ ذلك الوقت اختفى اسم الخاقان من السكة الايرانية وحل لقب « الخان » محل لقب « ايلخان » . ومع ذلك فقد جرت عادة المؤرخين على أن يطلقوا على حكام المغول فى ايران حتى نهاية دولتهم فى سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) اسم « العصر الايلخانى » .

وكان أباقا بوذيا فساعد ذلك على انتشار الديانة البوذية بين مغول ايران ، ونشط الرهبان البوذيون فى التبشير ، وهم المعروفون باسم « البخشوية » (بخشيلر) . وفى الوقت نفسه أظهرت الدولة الايلخانية ايثارها للمسيحيين ، وخاصة النساطرة الذين كانت تنتمى اليهم زوجة هولاكو الاثيرة « دوقوز خاتون » وأم أباقا ، وان كانت قد توفيت فى نفس العام الذى توفى فيه زوجها هولاكو (أى سنة ١٢٦٥ م) . كذلك ناصب الايلخانيون فى عهد أباقا خان المسلمين العداء ، خاصة أهل السنة والجماعة الذين كان العباسيون والمماليك منهم . وفى مقابل ذلك نجد المغول يتسامحون مع الشيعة . وكان لهذا التسامح آثار واضحة تظهر لنا فى مركز الشيعة الاجتماعى ونشاطهم فى نشر المذهب الشيعى والسماح لهم بالاشتراك فى حكم الدولة .

وما أن خلف أباقا والده على العرش الايلخانى حتى بادر الى العمل على اعادة سمعة المغول الحربية الى سابق عهدها ، ومن ثم سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين والمسيحيين عامة ، وقام بتنظيم شئون الدولة داخليا فولى قائده الأمير « سونجاق » حكم فارس وبلاد الجزيرة ، وهذا بدوره فوض حكومة العراق الى علاء الدين عطا ملك بن محمد الجوينى فى نفس المنصب الذى كان يتولاه على بغداد منذ عام ٦٦١ هجرية . كما رأس أخوه شمس الدين محمد بن محمد الجوينى الادارة فى فارس ، وكان يطلق عليه « صاحب الديوان » (أى وزير المالية) . واتخذ أباقا من تبريز عاصمة لدولته ، واحتلت فى عهده مكانة ممتازة ساعدها على ذلك أنها لم تصب بأضرار جسيمة ابان العهد المغولى الأول . وان كان يرجع السبب

الرئيسى فى ازدهارها الى الاخوين شمس الدين محمد الجوينى وعلاء الدين عطـــا ملك ٠

وكانت علاقة **أباقا خان** بالمسيحيين حسنة للغاية خصوصا وأنه سار على سياسة والدته «دوقوز خاتون» التى كانت تمنح الامتيازاتللمسيحيين٠ ومع أنه كان بوذيا الا أن المسيحيين أصبحوا فى عهده أصحاب قدرة وسطوة كبيرة ٠ كذلك تزوج أباقا بمريم ابنة امبراطور القسطنطينية والمعروفة فى التاريخ باسم « ديسبينا خاتون » ٠ وكان والدها ميخائيل باليولوجوس قد زوجها لهولاكو فقدمت ايران على هذا الاساس ، الا أن هولاكو كان قـــد توفى قبل وصولها الى تبريز فتزوجها ابنه أباقا ، ولما كانت مريم مسيحية فانها اشترطت على زوجها أباقا أن يتنصر فوافقها على ذلك لكنه استمر على وثنيته ، ونتج عن هذه الزيجة أن ازداد نفوذ المسيحيين بصفة عامـة والأرامنة منهم بصفة خاصة وسعى أولئك وهؤلاء الى الايقـاع بالمسلمين والعمل على القضـاء عليهم ٠

وكانت سياسة أباقا التى انتهجها حيال المسيحيين قد مكنت الدولة من الدخول فى علاقات دبلوماسية مع الغرب المسيحى ، تلك العلاقات التى بدأت بالفعل منذ عهد هولاكو ، لكنها أصبحت مشهودة وراسخة فى عهـــد أباقا ، فأدى ذلك الى قيام علاقات أوثق مع المقر البابوى فى عهد البابا كليمنت الرابع Clement IV وجريجورى العاشر Gregory X ونيقولا الثالث ، كذلك مع فرنسا فى عهد لويس التاسع (القديس لويس) ، وكان أباقا يأمل من توطيد علاقاته بالغرب المسيحى تنظيم حملة مشتركة ضـــد المماليك فى مصر وسورية ، وان كانت الآمال التى كان يرمى أباقا الى تحقيقها من وراء تحالفه مع المسيحيين لم تتحقق حيث كانت الروح الدينية والمعنوية عنـد الصليبيين قد ضعفت ، ومن ناحية أخـــرى ضعفت سلطة البابوات حتى أصبحوا أتباعا للأباطرة والملوك ٠

وفى سنة ٦٧٣ هجرية (١٢٧٤ م) أوفدأباقا خان وفدا مغوليا اشترك فى المؤتمر الدينى المسيحى الذى عقد فى مدينة ليون بفرنسا ، وهو المؤتمـــر الذى أمر بتشكيله ، ورأسه البابا جريجورى العاشر ٠ وكان أباقا يأمل من

وراء اشتراكه فى ذلك المؤتمر الكنسى الكبير أن يصل الى اتفاق مع الدول المسيحية للاشتراك فى اتحاد ضد المسلمين ، لكن هذا الحلف لم يؤد الى نتائج حاسمة لعدم اطمئنان الأوروبيين من حليفهم الجديد لما اشتهر عن المغول من وحشية وتطرف وغدر ٠ وهناك مكاتبات متبادلة فى هذا الشأن أيضا مع كل من البابا جان الحادى والعشرين ونقولا الثالث ولكنها لم تصل الى حل نهائى نتيجة السمعة الرهيبة والخوف منخيانة المغول المحتملة وانفضاضهم من الحلف اذا ما وجدوه فى غير صالحهم ٠ وقد نتج عن اتصال أباقا بالمسيحيين وايثاره اياهم أن نفر المسلمون فى كل من ايران والعراق من أباقا خان ٠ وأخذوا ينظرون الى تصرفاته العدائية حيالهم بألم وحسرة وهم لا يستطيعون مقاومتها أو ايقافها ٠

وكانت هناك أحداث هامة وقعت فى عهد أباقا خان لها تأثير كبير على سياسة الدولة الايلخانية الخارجية والداخلية تتمثل فى الحروب التى نشبت بين مغول ايران الايلخانيين ومغول القبچاق بقيادة « بركه خان بن جوجى » من ناحية ، ومغول التركستان بقيادة « براق خان » من ناحية أخرى ٠ وفى الحرب الاولى التى شنها أباقا خان على خان القبيلة الذهبية « بركه خان » تمكن من هزيمة أعدائه وقتل منهم عددا كبيرا ، وكان سبب الحرب بين الفئتين المغوليتين أن تمكن « نوقاى » قائد بركه خان من هزيمة يشموت ابن هولاكو حاكم أران وآذربيجان فانتهز أباقا خان الفرصة التى واتته بموت « بركه خان » فى سنة ٦٦٤ هجرية فهجم على أعدائه فى الشرق وهزمهم ٠

أما المعركة الثانية فكانت فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ٦٦٨هـ (١٢٧٠ م) عندما نجحت جيوش أباقا خان نجاحا باهرا من ايقاع الهزيمة بجيش چغتائى كان يقوده براق خان بالقرب من مدينة هرات وعلى بعد ثلاثين كيلو متر منها ٠ وكان أباقا خان يريد من وراء حملته تلك القضاء على الهجمات التى يشنها أبناء عمومته المغول على أراضى مملكته ، فانتهز فرصة نشوب القلاقل فى بلاد ما وراء النهر وتوجه الى بخارى فى شهر يناير عام ١٢٧٣ م وخربها تماما بحجة أنها الملجأ والقاعدة الحربية للجيوش المغيرة ٠ ولا شك أن الخلاف الذى قام بين أفراد البيت المغولى قد ساعد على

ضعف وتشتيت قواهم ولم يتمكنوا من الايقاع بالمماليك حكام مصر والشام ٠

كذلك كان من أهم الأحداث التى وقعت فى عهد أباقا خان حربه مع المماليك فى بلاد الشام ، واذا كان أباقا قد نجح فى ايقاع الهزيمة بأعدائه من أمراء المغول القبچاق والتركستان الا أنه لم يتمكن من الانتصار على أعدائه المماليك حكام مصر حيث كانت كفة المماليك راجحه على المغول والصليبيين فى آن واحد ٠

حروب المماليك والمغول فى بلاد الشام :

وقعت حروب ثلاثة بين المغول والمماليك انتصر فيها المماليك انتصارا باهرا ، وثأروا لما وقع للمسلمين من قتل وتشريد واذلال فى التركستان وايران وخوارزم والسند والعراق ، فأوقفوا بذلك المغول عند حدهم ، وأثبتوا للعالم أجمع تفوقهم الحربى ، وأرهبوا الصليبيين وأجبروهم على الانصراف عن حربهم فلم يفكروا فى شن حروب جديدة أو الاشتراك فى معارك خاسرة ، وانصرفوا كلية عن حرب المماليك ٠ وتوفى الملك المظفر سيف الدين قطز فى عام ٦٥٨ هجرية ، وهى السنة التى انتصر فيها على المغول وقضى على قوتهم فى معركةعين جالوت ، وخلفه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذى وضع سياسته الحربية بحيث يمكنها الوقوف فى وجه المغول وأعوانهم ، وجهز جيشا قويا ذا استعداد سليم وقدرة قتالية فائقة ووضع خططه بحيث تكون الغلبة للجيش المصرى باستمرار ٠ وكان أول شىء فعله أن أراد معاقبة مملكة أرمينيا الصغرى وامارة انطاكية / طرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة الامير سيف الدين قلاوون استولت على القليعات وحلباء وعرقة ، وهى المراكز الثلاثة التى كانت تكون شبه مثلث تحمى طرابلس من جهة الشمال والشمال الغربى ، فجاء الاستيلاء على تلك المدن مهددا لطرابلس ذاتها ٠ وانتهز المماليك فرصة انشغال أباقا خان بالحرب ضد مغول القبچاق المسلمين من جهة ، ومغول التركستان الچغتائيين من جهة أخرى ، فانفردوا بملك أرمينية الصغرى « هيثوم الأول » حليف المغول ومستشار هولاكو والمغول ومحرضهم الاكبر على قتال المسلمين، وكان هيثوم الأول قد اتبع سياسة جديدة فى حربه المماليك فى مصر حيث فرض حصارا عليهم ، ومنع تصدير الاخشاب والحديد من آسيا الصغرى الى

مصر • وزحف الجيش المملوكى فى صيف عام ١٢٦٦ م تحت قيادة الامير قلاوون (السلطان قلاوون فيما بعد) والملك المنصور الثانى الايوبى صاحب حماة لمهاجمة دولة أرمينية الصغرى • واستطاع الحلف الاسلامى أن يوقع الهزيمة بالأرمن وحلفائهم الصليبيين والمغول فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ م عند « دير بساك » قرب انطاكية ، وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول وأسر ابن ثان له فى حين كان هيثوم نفسه متغيبا عن بلاده فى تبريز يستجدى مساعدة المغول(١) •

ولم يلبث الأمير قلاوون أن أغار على المدن الأرمنية الرئيسية الثلاث فى قيليقية وهى المصيصة وأذنة وطرسوس ، فضلا عن ميناء اياس • أما الملك المنصور الثانى الايوبى فقد اتجه الى سيس عاصمة دولة أرمينية الصغرى واستولى عليها وجعل عاليها سافلها ، ثم أشعل النار فيها فدمرتها وأتت على كنيستها ومقابر ملوك أرمينية السابقين(٢) • وبعد أن قضى جيوش الحلف الاسلامى المشكل من المماليك أساسا وحلفائهم من أمراء البيت الأيوبى بالشام التابعين لهم فى أرمينية عشرين يوما ، عادوا الى بلاد الشام ومعهم أربعون ألف أسير ، ومن الغنائم مالا يعد ولا يحصى « حتى بيع رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه »(٣) •

وأخيرا عاد هيثوم الأول الى مملكته ومعه بعض المغول ، ولكن بعد أن وقعت الواقعة ودمرت دولته وتشتت شعبه ، وانتهت العملية العسكرية الانتقامية التى قام بها المماليك وحلفاؤهم فحاول هيثوم الأول أن يسترد ابنه الأسير من الامير قلاوون لكنه لم يتمكن من ذلك الا بعد أن تخلى للمماليك عن عدة مراكز استراتيجية هامة تتحكم فى طريق المواصلات بين أرمينية والجزيرة حيث يقيم المغول حلفاء هيثوم الأول •

أما الحرب الثانية التى شنها المماليك على المغول ، فكانت بسبب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ ، وأيضا ابو الفداء : المختصر حوادث سنة ٦٦٤ هجرية •

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٥٢ •

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٢ •

محاولة المغول تكوين حلف صليبى مشترك للوقوف فى وجـــه المماليك أو القضاء عليهم ان أمكن ٠ ذلك أن أباقا خان قام بارسال مجموعة من الرسائل الى بابا روما والى ادوارد الأول ملك انجلترا فى أواخر عام ١٢٧٣م ، وكان الأخير قد قدم الى بلاد الشام على رأس حملة صليبية صغيرة عام ١٢٧١ م وعاد الى بلاده بخفى حنين دون الوصول الى شىء يذكر ، وكان ادوارد الأول من أشد المتحمسين لسياسة التحالف مع المغول والاستعانة بهم فى القضاء على قوة المماليك فى مصر والشام ٠ وعندما عقد مجمع ليون الكنسى فى المدة ما بين شهرى مايو ويوليو عام ١٢٧٤ م حضره مبعوثان من قبل أباقا خان عرضا على قادة الغرب من جديد مشروع تحالف صليبى مغولى ٠ وبعد أن تم تعميد المبعوثين المغوليين على المذهب الكاثوليكى انصرفا دون أن يظفرا بوعد بتجهيز حملة صليبية جديدة تخرج من الغرب لحرب المسلمين على أن تتقابل مع جيش مغولى يأتى من الشرق لتطويق المماليك ، والواقع أن الحماســـة الصليبية لحرب المسلمين كانت قد فترت فى ذلك الوقت عند الغرب الأوروبى ٠ وكان أباقا خان دائب الاتصال بملوك الغرب ويرسل السفارات بين الحين والحين لأنه جعل همـه الشاغل ابادة المماليك لا أقل مهما كلفه من تضحيات وبأى تحالف أو قوى أخـــرى من أى جنس أو دين ٠ وفى شهر مارس عام ١٢٧٧ م أرسل أباقا خان سفارة الى البابا وملك انجلترا لاستعجال مشروع الحملة الصليبية التى ستساعد المغول فى حرب المماليك(٤) ٠

وكان السلطان الملك الظاهر بيبرس على علم بكل ما يحاك ضـــد دولته والمسلمين عامة من مؤامرات ودسائس ، فقرر مهاجمة أعدائه والاجهاز عليهم وتشتيت جموعهم قبل أن يفاجئوه ويتمكنوا منه ، فجهز جيشـــا مملوكيا غزا به مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية فى شهر مارس ١٢٧٥ م وأغار على مدنها برا وبحرا ، ولم يجرؤ الملك « ليو الثالث » ملك أرمينيـــة الصغرى ، والـــذى خلف والده « هيثوم الاول » على العـرش الارمنى على الوقوف فى وجهه(٥) وتمكن السلطان المملوكى من تجميـد قوة ملك أرمينيا وابعادها كلية عن مسرح القتال و الاشتراك مع المغول فى معارك قادمة ٠ ثم

---

(٤) Grousset, R., L'Empire Mongol, III, Paris, 1945, P. 693.

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٦١٧ ــ ٦١٨ ٠

أدار السلطان الملك الظاهر بيبرس وجهه للمغول للانتقام منهم لغـزوهم بلاد الشام عام ١٢٧١ م بعد أن تمكنوا من دخول سوريا عن طريق الاناضول وتجاوزهم حلب الى معرة النعمان وعاثوا فى البـلاد فسادا لكنهم انصرفوا راجعين وانسحبوا خلف نهر الفرات بعد أن شعروا باستعداد المماليك وعدم وجود قوة معهم تكفى لمواجهة الجيش المملوكى ، فأغار السلطان الملك الظاهر بيبرس على بلاد سلاجقة الروم بالاناضول والتى كانت مشمولة بالحمـاية المغولية ، وتمكن سلطان المماليك من ايقاع هزيمة منكرة بالجيش المغـولى بالاناضول عند صحراء « أبلستين » فى ١٨ ابريل عام ١٢٧٧ دون أن يستطيع الملك السلجوقى كيخسرو الثالث ـ الذى كان صغيرا ـ أو وزيره معين الدين سليمان پروانه وقف ذلك الخطر(٦) • وبعد أن احتل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية فى ٢٣ أبريل من نفس العام ، أعلن نفسه وريثـا لسلاطين سلاجقة الروم فى حكم الاناضول ، وجلس على عرش آل سلجوق ، وخطب له على منابرها • كمـا أعلن الوزير معين الدين سليمان پروانـه خضوعه وولاءه لسلطان المماليك ، فأبقاه فى منصبه ، واكتفى السلطان الملك الظاهر بيبرس بما فعله من دحر المغول وابعاد نفوذهم عن آسيا الصغرى ، وعاد الى بـلاد الشام(٧) •

وما أن سمع أباقا خان بما وقع لجنوده فى الاناضول حتى انتقـل الى مدينة قيسارية فى السنة ذاتها (١٢٧٧ م) ليثأر لجيشه المهزوم وليعيـد نفوذ المغول وحكمهم فى الاناضول مرة ثانية • ولمـا دخـل مدينة قيسارية صب على أهلها وابـلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالترحاب ، ثم انتقل الى مكان المعركة فى أبلستين • وزاد من غضبه أنه شاهد جنود المغول صرعى ولم يشاهد أحـدا من عساكر الروم مقتولا ، فأمر بنهب بلاد الروم كلها وقتل كل من يصادفونه من المسلمين ، فقتل جنوده ما يزيد على مائتى ألف نفس(٨) ، كذلك قتل الوزير معين الدين

---

(٦) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٥٩ وما بعدها •
(٧) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٣١ •
(٨) الذهبى : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٠٥ •

سليمان پروانه لما نسب اليه من تعاونه مع المماليك ومكاتبته اياهم(٩) ٠

ويروى المؤرخ الايرانى رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول أن أباقا خان بكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين ، وحزن على رجاله حزنا شديدا(١٠)٠ وأكد واقعة قتل المسلمين المؤرخ المصرى المقريزى فذكر أن أباقا خان « قتل من ببلاد الروم من المسلمين ، ويقال انه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتى ألف نفس ، ولم يقتل أحد من النصارى »(١١) ٠

ووجد أباقا خان نفسه فى وضع لا يسمح له بقتال المماليك بمصر والشام ، خاصة وأن قوة المماليك العسكرية وحماسهم الدينى كان قويا رهيبا ، فما كان منه الا أن أثار من جديد تشكيل حلف من المسيحيين والمغول للوقوف فى وجه المسلمين ، وبنى سياسته على اعتبار أن المسيحيين حلفاء طبيعيين له ولدولته ٠ فكان أول من صادفه « ليو الثالث » ملك دولة أرمينية الصغرى ، فعقدا حلفا مشتركا ، واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد الشام لطرد المماليك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين ، كما اتفقا على ارسال الرسل الى المقر البابوى وملوك أوروبا لاطلاعهم على تحالفهما ، وطلب منهم جميعا الانضمام الى الحلف وارسال حملة صليبية الى بلاد الشام ، لتساهم فى القضاء على المماليك عدوهم المشترك(١٢) ٠ لكن أباقا خان لم يصله رد واف على اشتراك الأوروبيين فى حملته ، وفى الوقت نفسه انشغل باضطرابات نشبت فى ايران مما صرف نظره مؤقتا عن فكرة مهاجمة المماليك(١٣) ٠

ومع أن الجبهة المصرية المغولية كانت هادئة الى حد ما ، الا أن انتصار

---

(٩) الذهبى : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣١٠ ٠

(١٠) رشيد الدين فضل‌الله : جامع التواريخ ـ المجلد الثانى من الجزء الثانى ،ص ٦٢ ـ ٦٣ ٠

(١١) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٦٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٦٩ ـ ١٧٤ ٠

(١٢) Grousset; L'Empire Mongol, III, P. 695 - 696.

(١٣) رشيد الدين فضل‌الله : جامع التواريخ ـ المجلد الثانى من الجزء الثانى ، ص ٦٣ ـ ٧٠ ٠

المماليك كان يؤرق أباقا خان ، وكان كل ما يستطيع عمله هو أن يصب جام غضبه على المسلمين فى ايران الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة ٠ وقد شجعت الأحداث التى حدثت بالدولة المملوكية اثر وفاة السلطان الملك الظاهربيبرس سنة ١٢٧٧ م ايلخان المغول الحاقد على مصر والمماليك ، ونشوب الخلافات بين الامراء المماليك على السلطة فى القاهرة ، واغتصاب الامير سنقر الاشقر حكومة الشام ، واعلانه سلطانا على بلاد الشام فى شهر أبريل سنة ١٢٨٠ م على التدخل فى بلاد الشام للنيل من أعدائه المماليك فى مصر ، فأخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبة نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاما ، ، وقد شجعهم على ذلك اتصال سنقر الاشقر بالمغول واتفاقه مع أباقا خان بأنه سيعمل على مؤازرته والوقوف معه فى قتال سلطان المماليك فى مصر ٠ ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزى من أن الامير « طرنطاى » لما أسر بعض أصحاب منكوتمر ومن بينهم حامل محفظته عثر فيها على كتب من سنقر الاشقر وأتباعه من الامراء يحرضون فيها المغول على دخول الشام ويعدونهم المساعدة(١٤) ٠ ولكن السلطان سيف الدين قلاوون الذى تمكن من تولى السلطة فى مصر فى شهر ديسمبر ١٢٧٩ م تمكن أيضا من ايقاع الهزيمة بالامير سنقر الاشقر فى شهر يونيو سنة ١٢٨٠ م ، فلجأ الاخير الى المغول يستجدى مساعدتهم ، فانتهز أباقا خان وحليفه ليو الثالث الفرصة وأرسلا قوة استطلاعية مغولية الى شمالى بلاد الشام استطاعت أن تحتل عينتاب ودير بساك ، ودخلت حلب ونهبتها « وأحرقوا الجامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الامراء »(١٥) وانتهز أباقا خان الفرصة وأخذ يجيش الجيوش ويعد العدة لحملة جديدة ضد المماليك ٠

وما أن علم أمراء المماليك بما فعله ايلخان المغول من اجتياحه البلاد السورية حتى اتحدوا فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول صفا واحدا ونبذوا الخلافات التى كانت بينهم بسبب السلطة والتفوا حول الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى وجه همته الى صد غارات المغول ، وأرسل

(١٤) المقريزى : السلوك ــ الجزء الأول ــ القسم الثالث ، ص ٦٩٧ ٠
(١٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٩٩ ٠

جزءا من الجيش المملوكى عسكر بالقرب من حماة . ومن ناحيـــة أخـرى راسل أمراء المماليك سنقر الاشقر وقالوا له :« وهذا العدو قد دهمنا وماسببه الا الخلف بيننا ، وما ينبغى هلاك الاسلام ، وكان لذلك القول أثره فى نفس سنقر الاشقر فمنع جنده من محاربة المصريين »(١٦) .

ويصف المقريزى ما حدث لبلاد الشام من جراء حملة أباقا خان بقوله : « ولمـا وصلت الأنباء بزحف المغول الى أطراف حلب أخلاها أهلها ومن كان معسكرا فيها من الجنود ونزحوا الى حمـــاة وحمص ، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول علىأعمال حلب واستولوا على عينتاب ودربساك ، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الامراء ، كما ارتكبوا فى هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الاهالى الى الفرار نحو الجنوب ، ثم رحلوا عنها عائدين الى بلادهم بماأخذوه من الاسلاب والغنائم ، أما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب ، وهاجر منهم خلق كثير الى مصر ليحتموا بها »(١٧) .

وقاد الحملة المغولية أباقا خان نفسه وقـدم نحو الشام ومعه الجيش الرئيسى من اقليم الجزيرة فى شهر سبتمبر عام ١٢٨١ ، كما قـاد أخـوه « منكوتمر » جيشا آخر وقـدم الى الشام من كبادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضـم اليـه جيش مسيحى بقيادة ليـو الثالث ملك أرمينيا(١٨) . وكان جيش منكوتمر يقـدر بخمسين ألف مقاتل وانضم اله قرابة ثلاثين ألفـا آخرين من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثـل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم»(١٩) . ثم زحف الجيش المغولى بقضة وقضيضة عن طريق وادى نهر العاصى ، فوصل حمص استعـدادا لملاقاة المماليك الذين كان جيشهم يرابط بالمدينة تحت قيادة السلطان قلاوون نفسه . وفى موقعة حمص التى دارت بين الفريقين فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١م حلت الهزيمة بالمغول ، فولوا

---

(١٦) المقريزى : السلوك ـ الجزء الاول ـ القسم الثالث ، ص ٦٧٩ .
(١٧) المرجـع السـابق ، ص ٦٨٠ .
(١٨) رشيـد الدين فضل الله : جـامع التواريخ ـ الجزء الثانى ـ القسم الثانى ، ص ٨٣ .
(١٩) أبو الفـداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٨ هجرية .

مدبرين عبر الفرات بعــد أن قتل منهم عــدد كبير · أما ليو الثالث ملك دولة أرمينية الصغرى ، فانه انسحب عائدا الى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة والهزيمة ، فتلقفه التركمان والأكراد فى الطريق وقتلوهم عن آخرهم « ولم يفلت من القتل أو الأسر الا دون العشرين »(٢٠) ، وذكر النويرى وقعة حمص تلك على النحو التالى : « ونازل أباقا خان قلعة الرحبة ، وتقدم منكوتمر ابن هولاكو حتى وصل حماة ، وكان جيشه يضم عــدة فرق من الأرمن والكرج وكذلك الفرنجـــة · وقــد التقت هــذه الطوائف بجيوش السلطـان الملك المنصور قلاوون التى كانت تتكون من جذود مصر والشام وفريق كبير من الأكراد والتركمان ، ثم دار القتـــال بين الفريقين بالقرب من حمص ، حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم »(٢١) كــذلك أورد الحافظ الذهبى واقعــة حمص فقال : « أن وقعه حمص كانت فى يوم الخميس رابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هجرية ، وكان قائد جيوش المغول منكوتمر بن هولاكو ومعه مائة ألف ، والتقى به السلطان شمالى تربة خالد بن الوليد · وكانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نتيجة الحماس الدينى ، وطلب الموت فى ســبيل اللــه ، وانكسر المغــول ، وأصيب منكوتمر بطعنة وفر من أرض المعركة فاستحكمت هزيمتهم وركب المسلمون أقفيتهم ······· ولمـا علم أباقا خان بانهزام أتباعه ـ وهو على الرحبة ـ رحل الى بغــداد ، ولحق به من نجا من المغول وفيهم أخــوه منكوتمر الذى استاء منه أباقا لعجزه عن الحاق الهزيمة بجند المـــاليك ، وقال لــه : « لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت »(٢٢) · أما عن القــائد منكوتمر المهزوم فيذكر الحافظ الذهبى أنه توفى سنة ٦٨١ هجرية وأنه كان نصرانيا يوم المصاف على حمص ، وحصل له ألم وغم بالكسرة ، واعتراه فيما قيل صرع متدارك كما اعترى أباه هولاكــو · فهلك فى أوائــل المحرم بقرية تل الخنزير من جزيرة ابن عمر ، وله ثلاثون عاما ، وكان شجاعا جريئا مهيبـــا(٢٣)

---

(٢٠) المقريزى : السلوك ـ الجزء الأول ـ القسم الثالث ، ص ٦٨٩ ·
(٢١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٨ ـ ٩ ·
(٢٢) الحافظ الذهبى : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٢٦ ·
(٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ ·

وهكذا هزم المماليك المصريون أباقا خان فى ثلاثة حروب هى : بيره ـ ابلستين ـ حمص » يضاف اليهم هزيمة « عين جالوت » التى وقعت فى عهد هولاكو · وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين سوريا وبلاد ما بين النهرين ·

سياسة أباقا خان الداخلية :

وكانت سياسة أباقا خان الداخلية هادئة بصفة عامة ، اذ خفض الضرائب عن كاهل الايرانيين تخفيضا عظيما من أجل فقراء الريف · وتميز عصره بتألق شخصيتين ايرانيتين هما المؤرخ الايرانى الكبير علاء الدين محمد الجوينى وأخوه شمس الدين محمد بن محمد صاحب الديوان ،اللذان كانا السبب الرئيسى فى ازدهار دولة أباقا خان ودفع الأذى المغولى عن الأهالى الايرانيين والأخذ بيدهم والوقوف مرة أخرى لمسايرة الحياة العامة التى توقفت تماما فترة الغزو المغولى الأول · وكان شمس الدين صاحب الديوان يجمع بين جباية الضرائب والدخل العام والشئون السياسية التى أدارها بحذق ومهارة ، أما أخوه علاء الدين عطا ملك الجوينى فكان حاكما على العراق (ما بين النهرين) ويتمتع باستقلال تام فى تصريف شئون العراق ، وقد بذل كل ما فى وسعه لتعمير ما خربه المغول ، ونجح فى ذلك نجاحا باهرا حتى قال عنه المؤرخون المعاصرون له «أن بغداد بلغت فى عهده من الاتساع والعمران أكثر ما بلغته على يد الخلفاء » · كما شبه البعض أسرة الجوينى فى الدولة المغولية بأسرة البرامكة فى الدولة العباسية حيث كانوا أصحاب فضل وأدب وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم مقرا للأدباء والكتاب والشعراء·

وفاة الايلخان أباقا خان :

وكان أباقا خان ـ كمعظم أمراء المغول ـ مسرفا فى الشراب ومات بسببه فى أواخر سنة ٦٨٠ هجرية (أول ابريل سنة ١٢٨٢ م) بمرض هذيان السكارى (نوع من الحمى نتيجة السكر الشديد) بنواحى همدان فى الفترة ما بين العيدين وله من العمر نحو خمسين سنة بعد أن تربع على العرش الايلخانى مدة سبع عشرة سنة قضاها فى حروب مستمرة مع جيرانه فى

الشرق من أبناء عمومته المغول والغرب من أعداء المغـول التقليديين المماليك حكام مصـــر والشـــام ٠

السلطان أحمـد تكودار (٦٨١ ـ ٦٨٣ هـ) :

كان أمراء البيت المـالك المغولى فى ايران وقادة الجيش فى أواخر عهـد أباقا خان فى خـــلاف دائم على السلطة ، وانقسموا الى ثلاث مجموعات ، مجموعة ترغب فى تنصيب الأمير أرغون بن أباقا خان العـرش الايلخانى ، ومجموعة أخرى كانت تتعاطف مع تكودار وتؤيد سلطنته على أساس أحقيته بالملك طبقا لأحكام الياسا الجنكيزية ٠ أما المجموعة الثالثة والأخيرة فكانت تتزعمها « أولجاى خاتون » زوجة أباقا خان . وكانت ترغب فى تنصيب أخيه « منكوتمر بن هولاكو » العرش الايلخانى ، وهو الذى قاد جيش المغول ببلاد الشام وهزمه المماليك هزيمة منكـرة فى حمص سـنة ١٢٨١م ، ولكن الأمير منكوتمر بن هولاكو توفى قبل موت أخيه أباقا خان وهو فى سن الثلاثين من عمره حزنا وكمدا على هزيمته ، فانحازت أولجاى خاتون الى جانب أرغون ضد تكودار ٠ وعمل كل فريق منهم فى الخفاء وفى سرية كاملة للوصـــول الى هدفه وأغراضه ٠ وكان أباقا خان نفسه يريد أن يخلفه على العرش الايلخانى ابنه أرغون لكنه لم يستطع تنصيبه مكانه أو الحصول على موافقة الأمراء وقادة الجيش على ذلك لأن هـذا الاجراء يعد مخالفة صريحة لأحكام الياســا الجنكيزية التى تنص على أن يتولى العرش أكبر الأمراء الأحياء سنا ٠ وعلى هـذا فقـد أجمع الأمراء وقادة الجيش على تولية تكودار بن هولاكو العرش خلفا لأخيه أباقا خان فى اجتماع القوريلتاى الذى عقد فى « آلاتاغ » فى السادس والعشرين من المحـرم سنة ٦٨١ هجرية ٠

والايلخان الجديد هو الابن السابع لهولاكو خان ، وكان فى الصين أثناء حملة أبيه على ايران والشـــام ٠ وقـد رأى الخاقان « قوبيـــلاى قا آن » أن يرسله الى ايران فى عهد سلطنة أخيه أبقا خان لمساعدته والوقوف بجانبه اثر الاضطرابات التى نشبت فى الشرق والتى كان يذكيها وينميها حكام الدولة الجغتائية فى التركستان ودولة القبيلة الذهبية (آلتون أوردو) فى حوض نهـر الفولجا ، وأيضا تفوق المماليك المصريين فى الغرب وهزيمتهم للجيوش المغولية المرة تلو الأخرى ٠ وقـد تنصر تكودار فى طفولته وتعمد فى صباه ، وتسمى

باسم « نيقولا »(٢٤) غير أن هواه كان مع المسلمين ولم يكد يتولى العرش حتى أعلن تحوله للاسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، واتخذ اسم أحمد وتلقب بالسلطان ٠ وبذل قصارى جهده فى حمل المغول على الدخول فى الاسلام ، وأسلم على يديه كثير منهم بفضل ما منحهم اياه من العطايا وألقاب الشرف(٢٥) ٠

وكان لاسلام تكودار رنة فرح بين المسلمين ، وبخاصة الايرانيين منهم ، واستهل عهده باظهار اخلاصه وتمسكه بالدين الاسلامى والدفاع عنه ، وأرسل كتبا الى فقهاء بغداد والى السلطان قلاوون سلطان المماليك فى مصر والشام ، أعلن فيها رغبته فى حماية الاسلام والذود عنه والعمل على اعلاء شأنه ، كما أظهر فى خطابه للسلطان قلاوون رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ٠ وقد اعتبره علماء بغداد فى ردهم عليه بأنه حامى الاسلام والمسلمين ونعتوه بناشر دين الله المبين ٠ أما بقية الشعب الاسلامى الواقع تحت نير المغول فقد تجدد الأمل عندهم خاصة الايرانيين منهم بعد أن غلبوا على أمرهم وملأت الحسرة قلوبهم نتيجة ما اقترفه المغول من فظائع ومصائب ، فتعاطفوا معه وتوطدت علاقة السلطان المغولى بعلماء الدين الاسلامى وعظماء المسلمين ، واتخذهم أصفياء له وأعوانا ٠

السلطان أحمد تكودار يواجه عداء كبار المغول نتيجة اسلامه :

كان لارتقاء تكودار العرش الايلخانى واشهاره الإسلام واتخاذه من عظماء المسلمين وعلمائهم أصفياء له دون غيرهم من رجال الديانات الأخرى أن فتح باب الصراع على السلطة والوجود المغولى على مصراعيه ، ووجد منافسوه الفرصة مناسبة فأعلنوا العداء السافر وجاهروا بمعاداته ومحاربته٠ ورغم موجة العداء التى أظهرها أمراء المغول وقادتهم لتكودار نتيجة اسلامه ، الا أنه عمل على استمالة كافة الأمراء ، فبسط يده بالبذل والعطاء لكافة رجال الدولة ، ووهب الجزء الأعظم من خزائنه الى اخوته وأقربائه وقادة الجيش المغولى ، ولم يستثن من ذلك منافسه على العرش الايلخانى « أرغون » ابن

---

(٢٤) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية ، ص ٦٧٢ ٠

(٢٥) D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 553.

أباقا ، بل عامله معاملة طيبة للغاية على أساس أنه ابن أخيه وأقرب الأمراء اليه • لكن أرغون كان يحقد على عمه ويطمع فى تولى السلطة ، فاتفق مع أحد أعمامه وكان يسمى « قونغرقاى » على الوقوف فى وجه تكودار والعمل على انتزاع العرش منه • كذلك تمكن أرغون من استمالة الوزير « مجد الملك اليزدى » وكان صاحب نفوذ كبير فى الدولة الايلخانية والمنافس الخطر للأخوين شمس الدين محمد بن محمد الجوينى صاحب الديوان وعلاء الدين عطا ملك بن محمد الجوينى ، ولوحا له بالوزارة ان انضم اليهما ووافاهما بأسرار البلاط وتحركات الايلخان • وقد انكشفت المؤامرة ، فأمر السلطان أحمد تكودار بالقبض على الوزير مجد الملك اليزدى ومصادرة أمواله ، وبعد ثبوت التهمة عليه قتل فى ٨ جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية وأرسلت رأسه وأطرافه الأربعة الى أقاليم خمسة من أقاليم الدولة للتشهير به لعدم وفائه وخيانته وليكون عبرة لغيره • وقد أثارت تلك الفتنة الكثير من المغول لجرأة الوزير على الايلخان • وطبقا لعادات المغول القبلية وقانونهم الياسا أعدوا جسده للشواء وأكلوه فى وليمة رسمية ، وانتهى بذلك مجد الملك اليزدى كما انتهت معه المؤامرة التى دبرها أرغون وعمه • ثم أقدم المغول على الفتك بجميع أفراد عائلته فقضى عليهم جميعا • فكان حادث مجد الملك اليزدى درسا لغيره وسيفا مسلطا على كل من يعمل مع المغول ويخونهم • أما عطا ملك الجوينى والذى ناصبه مجد الملك اليزدى العداء ، فانه استمر فى منصبه وبرىء من التهم التى تقول بها مجد الملك والتى شملت أكاذيب وافتراءات لا حصر لها ، ونال احترام الايلخان الى أن توفى فى الرابع من ذى الحجة عام ٦٨٢ هجرية • واكراما له وتعظيما لقدره واعترافا باخلاصه وخدماته للدولة المغولية فقد أمر السلطان أحمد تكودار بتنصيب ابن أخيه هارون بن شمس الدين محمد صاحب الديوان مكانه •

وانشغل السلطان أحمد تكودار بنشر الاسلام واعادة الطمأنينة للمسلمين واصلاح ما خربه المغول ، فكان اسلامه عاملا هاما فى استقرار الأمور ، وبخاصة للايرانيين الذين أحاطوه بكل تقدير واكبار ، ثم ان اسلامه كان عاملا هاما فى تهذيب طباعه وتقويم خلقه ، فلم يعد ذلك المغولى الذى كان كل همه سفك الدماء وتخريب البلاد وصب البلاء • ومع ذلك فان تصرفاته مع

المسيحيين واليهود كانت متشددة وقاسية ، حيث أقدم على هدم كثير من الكنائس والمعابد ، وأبقى على بعضها وحولها الى مساجد • وقد أجمع المؤرخون على ذلك ، الا أن ابن العبرى شذ عنهم وذكر أن تكودار كان متسامحا مع جميع الأديان وخاصة مع المسيحية ، حيث ذكر : « أنه لما جلس على كرسى المملكة يوم الحادى والعشرين من حزيران لتلك السنة ، سنة احدى وثمانين وستمائة وعنده الكفاية والدراية والكرم أخرج من الخزائن والأموال شيئا كثيرا ، وقسم على الأولاد والأمراء والعساكر وأظهر الاحسان والشفقة الى جميع المغول والى الأمم الباقية وخصوصا الى أكابر المسيحيين »(٢٦) •

علاقة السلطان أحمد تكودار بالمماليك حكام مصر :

أظهر السلطان أحمد تكودار نتيجة اسلامه رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ونبذ الخصام والشقاق بين الاخوة المسلمين ، فأقدم على خطوة جريئة نحو تخفيف حدة التوتر مع مصر ، وبعث بنبأ اسلامه الى الملك المنصور قلاوون سلطان المماليك فى مصر فى كتاب مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) مع رسولين هما قطب الدين الشيرازى والأتابك بهلوان(٢٧) ، وذكر فى رسالته « أنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج وسأل اجتماع الكلمة واخماد الفتنة والحرب »(٢٨) • فرد عليه السلطان الملك المنصور قلاوون ردا جميلا وهنأه باسلامه ، وطلب أن يكون التحالف بين المماليك والمغول ضد العدو المشترك ، وهم الصليبيين(٢٩) • فكان هذا الأمر سببا فى شكوى قادة المغول من تكودار للخاقان « قوبيلاى قا آن » ، واعتبروا مراسلته لسلطان المماليك وجهوده فى وقف العداء بين الدولتين المغولية

---

(٢٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٩ •

(٢٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٨ ، ص ٥٥ – ٦٨ •

المؤلف : والاتابك بهلوان هو أتابك السلطان مسعود ، سلطان سلاجقة الروم •

(٢٨) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ص ٧٧ وما بعدها ، وأيضا :

D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 653 - 580

(٢٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٧ •

والمصرية خروجا على أحكام الياسا ، وقلبا للسياسة المغولية رأســـا على عقب ، بوضعه حــدا للحروب بين مغول فارس والمماليك ، وهم الذين سفكوا دماء المغول أنهارا فى حروب الشـــام وآسيا الصغرى ٠

الصراع على السلطة ونهاية السلطان أحمــد تكودار :

وبسبب سياسة السلطان أحمــد تكودار الداخلية والخارجية الممثلة فى تعاطفه مع المسلمين واحلال القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم محل أحكام الياسا والعرف القبلى المغولى ، ومهادنته أعـــداء المغول الممثلين فى مماليك مصر ، فقــد قوبل تكودار بعداء شديد وسافر من كثير من أمراء البيت الچنكيزى أمثال : طغاجار ــ كيخــاتو ــ قونغرقاى وبايدو ، وكانوا رؤوس البيت المــالك فانحازوا علنا الى جانب الأمير أرغون الذى وجــد الفرصــة سانحة أمامه لقتال عمه تكودار وانتزاع السلطة منه ٠

وبدأ أرغون يهيىء نفسه للقتال ويستعد لمواجهــة تكودار ، فطلب من السلطان حكومة العــراق وفارس بجــانب حكومة خراسان ، لكن السلطان تكودار رد عليه بأنه لا يمكنه التصرف فى مثل تلك الأمور ، وأن هذا الاجراء من حق القوريلتاى وحــده ، وهو الذى يبت فى مثــل تلك الحالة ٠ ولمــا كان أرغون يعلم مسبقا أن القوريلتاى سيكون فى غير صالحه فانه أعلن الثورة ضــد عمه السلطان تكودار وهو فى خراســـان التى اتخذها مقرا لقيــادته ومعسكرا لتعبئة جنوده واستقبال أنصاره ومناوئى عمه السلطان ، وأيده فى اجرائه ذلك الخاقان « قوبيلاى قا آن » ٠ وما أن استكمل عــدته وعتاده تقدم لقتال عمه ونشبت بين الفريقين معركة طاحنة فى ٣ صفر سنة ٦٨٣ هجرية (سنة ١٢٨٤ م) وقــد تمكنت الجيوش الكرجية التى كانت فى خدمة السلطان أحمــد تكودار بقيادة « أولينــاق » من ايقاع الهزيمة بجيوش أرغون عند قزوين ، ففــر الأخير بعد تشتت جيشه الى نواحى بسطام وتحصن فى قلعة « كلات » ، لكن أولينــاق أرغمه على التسليم وحمله الى معسكر عمــه السلطان أحمــد تكودار ٠

ونظر أمراء البيت الچنكيزى وقادة المغول الى الاضطرابات والأحداث التى نشبت بين تكودار وابن أخيه أرغون ، فقرروا احتواء الفتنة الناشبة وخلع تكودار وتخليص أرغون من الحبس ، وتنصيب « هولاجو » وهو ابن

هولاكو خان وأخ تكودار وابن أخيه أرغون ايلخانا ، وتمت الخطة ، وتمكن الأمير « بوقا » من اطلاق سراح الأمير أرغون من أسره فى ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هجرية ، بعد نشوب معركة سريعة بين قوات تكودار والمتآمرين عليه قتل فيها كثير من الأمراء الموالين لتكودار ، ومن بينهم قائده « أولنياق » ، وفر السلطان أحمد تكودار من خراسان الى آذربيجان لعله يتمكن من جمع قوات يواجه بها أعداءه ٠

وبخلاف ما قرره المتآمرون ، أعلن تنصيب « أرغون » ايلخانا ، فتابع سيره لقتال عمه لكن قبل أن يصل الى آذربيجان قام جماعة من أتباع تكودار بعد أن رأوا رجحان كفة أرغون بالقبض على السلطان أحمد تكودار وأحضروه الى الايلخان الجديد الذى أمر بقتله ، وأعدم فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس ١٢٨٤ م) ، فكان بذلك أول ايلخان مغولى يعدم ودفع حياته ثمنا لاعتناقه الاسلام حيث اعتبر المغول أن اسلامه نشازا بالنسبة لتراث جنكيز خان وخلافا للتقاليد المغولية وأحكام الياسا ٠ وبموته فقد المسلمون عونا لهم وتبددت آمالهم وحلت للمرة الثانية أحكام الياسا الجنكيزية والآداب المغولية بدلا من القرآن الكريم والآداب الاسلامية ٠

أرغون خان (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) :

هو رابع ملوك ايران الايلخانيين ، استولى على العرش بعد قتل عمه الذى حكم ثلاث سنوات انتهت بفاجعة أسره وقتله على يد ابن أخيه أرغون هذا ، فما كان منه الا أن اعتلى العرش الايلخانى فى اليوم التالى(٣٠) ٠ وكان ذلك فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هجرية ٠ وحتى يكون توليه العرش شرعيا اجتمع أمراء المغول وقادتهم ونصبوه ايلخانا عليهم فى ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٨٣ هجرية ، وذلك فى القوريلتاى الذى عقد قرب « آب شور » من نواحى «هشترود» بآذربيجان ، ثم ثبته الخاقان قوبيلاى قا آن فى ربيع عام ١٢٨٦م ٠

ولد أرغون ما بين عامى ١٢٥٠ و ١٢٥٥ ميلادية ، وأسند اليه والده أباقا خان ولاية خراسان ٠ وكان والده أباقا خان يعده ليخلفه على العرش ،

---

(٣٠) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٠٤ و ٥٠٥ ٠

لكن القدر عجل بوفاته ، فدعى لبلاط أبيه فى ربيع عام ١٢٨٢م أثناء اشتداد المرض عليه ، لكنه أبلغ بوفاته قبل أن يصل الى العاصمة تبريز ، فاضطر الى تقديم فروض الطاعة لعمه تكودار وهو فى آذربيجان ، ثم قفل راجعا الى خراسان فى ربيع العام التالى . ومنذ ذلك التاريخ أخذ أرغون يعمل على الاطاحة بعمه مستغلا الوضع الجديد الذى نشأ نتيجة اسلامه ومهادنته المماليك المصريين أعداء المغول التقليديين . ونشب القتال بين تكودار الايلخان الشرعى وابن أخيه أرغون الذى تزعم المناوئين لتكودار حيث هزم الأخير وحمل الى معسكر عمه . بيد أن الأمير بوقا أطلق سراحه ، وكونا حلفا ضد تكودار وعملا على الاطاحة به . والظاهر أن الخاقان قوبيلاى قا آن المتربع على العرش المغولى فى پيكين (خانبالغ) كان يؤيدهما ، وشاع بين المغول ما أذيع من تأييد قوبيلاى قا آن ، فانضمت معظم جنود تكودار الى صف أرغون وبوقا . واضطر السلطان أحمد تكودار الى تسليم نفسه لابن أخيه فقتله فى ٢٦ جمادى الأولى عام ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس سنة ١٢٨٤ م)(٣١) .

وسرعان ما اتبع أرغون سياسة تختلف عن سياسة سلفه تكودار التى كانت تعتمد أساسا على تأييد الاسلام ونشره والتقرب من المسلمين والرفع من شأنهم . فكانت سياسة أرغون تفيض حماسة وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين ، رغم أنه كان بوذيا ومقيما على بوذيته فى قوة واندفاع ، وأسند المناصب العليا فى الدولة الى أعوانه وأتباعه الذين وقفوا بجانبه ضد عمه السلطان أحمد تكودار ، ومن بينهم الأمير بوقا الذى أسند اليه أرغون ادارة شئون المملكة ، وأطلق يده فى تصريف شئون الدولة . وقد أنعم عليه الايلخان الجديد أرغون لقب « أمير الأمراء » تعظيما لشأنه واعترافا بفضله وجعله فى منزلة أقرب ما تكون الى الشريك منها إلى التابع . ومن هذا المنطلق بدأ الأمير بوقا يدير دفة شئون الدولة ، وكان يساعده فى ادارة شئون المملكة « خواجه فخر الدين محمد المستوفى القزوينى » كذلك نصب ابنه غازان واليا على خراسان ، وعين الأمير نوروز الذى كان حاكما على ايران قبل مجئ هولاكو نائبا له .

---

(٣١) رشيد الدين فضل الله الهمدانى : جامع التواريخ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١

وبمجرد تولى أرغون العرش الايلخانى اختفى « خواجه شمس الدين محمد بن محمد الجوينى صاحب الديوان » وزير السلطان أحمد تكودار بعـــد الهزيمة التى منى بها سيده ، وتأكد أنه هالك لا محاله ، وأن الايلخان الجديد سوف يقتص منه لسابق موقفه فى عهد تكودار ، وفكر وهـو فى مخبئـه فى الهروب الى الهنـد لعله يجد فيها الأمن والأمان واللجوء الى أصدقائه ومعارفه فى شبه القارة الهندية ، لكنه أقلع عن هـذه الفكرة فى النهاية خشية على حياة أفراد عائلته وأصدقائه ومن كان يشملهم برعايته ٠ وتقدم شمس الدين محمد صاحب الديوان الى أرغون بنفسه وحاول أن يستعطفه فلم يفلح ٠ ولعـل الايلخان تأثر بموقف كل من الأمير أرغون وخواجه فخر الدين محمد المستوفى القزوينى تجاه شمس الدين محمد صاحب الديوان والذى كان موقفا عدائيا ٠ وحرض كلاهما أرغـون خـان على قتلـه ٠ وتم ذلك فى الرابع من شـعبان سنة ٦٨٣ هجرية قرب « أهـر » بآذربيجان ، كما قتل جميع أبنائه واخوته وأحفاده ، وكل من كان متصلا به ٠ وبهـذه الطريقة المفجعة قضى على أسرة الجوينى التى حمت المسلمين من طغيان المغول واستبدادهم(٣٢) ٠

وبعـد قتل خواجه شمس الدين محمـد بن محمـد الجوينى صاحب الديوان ، خلى الجو للأمير بوقا وانفرد بالسلطة ووصل نفوذه الى درجـة كبيرة ، ونال ثقة أرغون خان فأطلق يده فى شئون الدولة ، حتى أنه أصدر قرارا يقضى بأنه لو ارتكب الأمير بوقا أكبر الجرائم ، فليس لأحـد الحـق فى محاكمته سوى الايلخان نفسه ٠ ولا شك أن تلك السلطة المطلقة والنفوذ الكبير قـد جعلت الأمير بوقا يطغى الى حـد كبير ، وأصبح المهيمن على جميع شئون الدولة حتى أنه لم يبق للايلخان سوى الاسم فقط ، وسلك طـريق الاستبداد والبطش بالمسلمين وغيرهم حتى المغول أنفسهم ، فكان ذلك سببا فى عـدم رضاء أمراء المغول وقادتهم ، خاصـة أنه لم تكن لديه دراية كاملة بشئون الدولة المـالية والادارية مما سبب ارتباكا شديدا لأجهـزة الحكومة المغولية فى ايران واضطرابا وقلقا لكافة الطبقات المحكومة ٠ ووصل الأمر الى أن الدولة لم تتمكن من جمع الضرائب المقررة على الأهالى نتيجة ما وصلوا

---

(٣٢) خـواندمير (غياث الدين بن همـام الدين) : دستور الوزراء ، ـ تحقيق سعيد نفيسى ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠ ٠

اليه من فقر وجوع ، ومع ذلك وقع على كاهل المسلمين الايرانيين العبء الأكبر من الاضطرابات الدموية والفوضى الناشئة من عبث الأمير بوقا وأعوانه المفسدين • فقام الأمراء يناوئونه لأنهم لم يتعودوا الخضوع لمشيئة فرد واحد ، وانتقدوا تصرفاته ، وكان على رأس تلك الجماعة الشاكية الأمير طوغان الذى كان يشغل وظيفة « شحنجى »(٣٣) ، وانضم اليه طبيب يهودى من أهل أبهر يعمل فى بلاط أرغون قدر له أن يشغل منصب الوزارة فيما بعد هو « سعد الدولة » الذى طمع فى الوزارة ، واستغل الخلافات الناشبة بين الأمراء ، كما استفاد من الظروف التى تمر بها ايران فى عهد بوقا وأرغون ، وأخيرا كراهية الايلخان نفسه للاسلام والمسلمين • وكان أرغون خان قد شرع فى اضطهاد المسلمين والتوهين من شأنهم ، وصرفهم عن كافة المناصب الكبرى وحرم عليهم الظهور فى بلاطه •

ورسم سعد الدولة اليهودى خطته مبتدئا باحداث ثغرة فى العلاقات بين أرغون والأمير بوقا ، حيث أيقن أنه لا يمكنه الوصول الى هدفه فى وجود الأمير بوقا • وبدأ يطلق الاشاعات ويسعى للايقاع بأمير الأمراء فى مجالس أرغون خان ، وشهر بأخيه ، وكان يدعى « آروق » واتهمه باختلاس أموال الدولة المجباة من العراق • ولما كان أرغون خان مضطلعا على مساوىء الأمير بوقا وتصله أخباره أولا بأول ، وفى نفس الوقت وجد أن الأمراء من أهل بيته وعصبيته المغول وكذلك قادة الجيش المغولى غير راضين عن مسلكه وطريقة ادارته لشئون المملكة ، خاصة وأن بوقا كان دائم الحديث عن مساندته لأرغون فى كفاحه ضد عمه تكودار ، وأنه ــ بفضل مساندته وتأييده ــ وصل الى العرش • ووصل به الأمر فى الحديث عن الايلخان أن كان يصرح بأنه شريك له فى الحكم •

وما أن شعر الأمير بوقا بتغير الايلخان نحوه ، وعدم رضاء أمراء المغول عليه أقدم على خطوة أودت بحياته ، ذلك أنه حاول الاطاحة بأرغون والتخلص منه تماما واحلال أمير آخر مكانه ، ووجد ضالته فى أمير من بيت هولاكو ومن حفدته يدعى « جوشكاب » فأغراه بالملك ومناه بالمساعدة لكن

---

(٣٣) الشحنة وظيفة تعادل رئيس الشرطة فى العصر الحالى •

جوشكاب لم يوافقه على خطته ، وأسرع بابلاغ أرغـــون بما تم من وزيره الأول ، فأمر الايلخان بالقبض على الأمير بوقـــا ٠ وفى ٢٥ ذى الحجـــة سنة ٦٨٧ هجرية أمر أرغون خان أن يقوم الأمير جوشكاب بقتل الأمير بوقا بيـــده ويفصل رأسه عن جسده ٠ ثم تلى ذلك القبض على أخيــه « آروق » المتهم بسرقة أموال الدولة فقتل أيضا ٠ أما الأمير جوشكاب ، فان أرغـــون نظر اليه على أنه منافس له فى الحـــكم وخشيه ، ولم يكافئه نظير أمانته والابلاغ عن خيانة بوقا وأعوانه ٠ وبعد عام من واقعة بوقا قبض أرغـــون على الأمير جوشكاب بتهمة الخيانة أيضا وقتل ٠

وزارة ســـعد الدولة اليهـــودى :

شغل الطبيب سعد الدولة اليهودى منصب الوزارة بعـــد مقتـــل الأمير بوقا ، وكان رجلا يمتاز بالذكاء والمكر ، ويعرف كيف يتحين الفرص ، وعرف عنه أنه كان صاحب شخصية غريبة ، فكان يكره الاختلاط بالناس ولا أحد يعرف أسراره ، وفى الوقت نفسه كان له معارف كثيرون ، وكان يجيـــد عـــدة لغات ، وعلى علم تام بأحوال الموظفين والصيارفة فى بغـــداد التى عاش فيها ٠ وكانت مهنة الطب فى ذلك الوقت تكاد تكون قاصرة على اليهود دون سواهم من أبناء الديانات الأخرى ، وهؤلاء كانوا يسعون دائما للمحافظة على كيانهم والوصول الى الطبقات العالية عن طريق مهنتهم ، فلا غـــرو أننا نرى الأطباء اليهود فى البلاط الايلخانى يشيرون على أرغون بتعيين سعد الدولة طبيبا فى البلاط ، فوافق أرغون خان على ذلك ، وتصادف أن اعتلت صحته ذات مرة فعالجه سعد الدولة وشفى على يديه ، فعظم قدره عند الايلخان ٠ ولمـــا اطمأن سعد الدولة الى جانب أرغون ولمس حبه له ، إغتنم الفرصة وأخبر الايلخان بكل ما يعلمه عن اسراف بوقا وأخيه « آروق » وعماله ، وأنهم يجمعون أموال الدولة لأنفسهم ، فكلفه الايلخان بضبط حسابات بغداد سنة ٦٨٦ هجرية ، فقام سعد الدولة بالمهمـــة على أتم وجه فى مدة وجيزة وجمـــع كل الأموال المتأخرة ، فكافأه الايلخان على ذلك وولاه منصب الوزارة ٠ واستمر سعد الدولة على وشاياته لتحقيق غاياته حتى قبض أرغون خان على الأمير بوقا وأخيه آروق بتهمة التآمر على الايلخان وسرقة أموال الدولة ، وقتلهمـــا سنة ٦٨٧ هجرية على النحو الذى ذكرناه ٠

وكان من الطبيعى أن يتألق نجم سعد الدولة بعد قتل الأمير بوقـــا

وتشتيت أنصاره وأعوانه ، وشرع يستجيب لرغبة أرغون خان فى اقصاء المسلمين عن المناصب التى كانوا يشغلونها ، وأوعز الى الايلخان الاكتفاء بتولية اليهود والمسيحيين فقط فى مناصب الدولة ، فاستجاب أرغون خان الى ذلك بحماس زائد واندفاع عجيب . فما كان من سعد الدولة اليهودى الا أن أعطى أقرباءه والمقربين اليه المناصب الهامة والمؤثرة فى الدولة الايلخانية . وحاول ارضاء الايلخان بشتى الطرق والوسائل فوجد أن أرغون خان يحب جمع الثروات ، فعمل على جمع الأموال باسم الايلخان بالقوة والتهديد من الأهالى ليقدمها له . وفى الوقت الذى كان سعد الدولة يؤذى المسلمين ويسلب أموالهم ، كان أرغون يعمل هو الآخر من جانبه لاضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية وحرم عليهم الظهور فى بلاطه . وكان أرغون خان يجد لذة ومتعة فى ذلك ، وتزداد ثقته بوزيره سعد الدولة ، ولم يكن يعلم أن وزيره الأول كان يقوم بتقديم جزء مما يجمعه ويقتطع الباقى لنفسه .

وما أن استتب الأمر لسعد الدولة وتأكد أن المسلمين وصلوا الى درجة كبيرة من الضعف والفقر والمهانة حتى تظاهر بأنه يعمل لصالحهم . وحاول أن يستميل قلوبهم اليه ، فمنع كل المضايقات التى كانوا يتعرضون لها فى الماضى وأغدق على كبارهم العطايا والهبات وسمح لهم بالجلوس معه فصدقه المسلمون وهم لا يعرفون نيته . وكان لتصرفه وسلوكه مع المسلمين أثره الحسن فى نفوسهم وأقبل شعراء العرب والعجم يمدحونه ، هؤلاء بالعربية وأولئك بالفارسية . لكنه بمجرد أن اطمأن الى ثبات مركزه فى الدولة وعلو مركزه عند أرغون خان حتى بدأ يكيد للاسلام كعقيدة والمسلمين كشعب فى أبشع الصور وأشنعها ، وصار يبذل كل ما فى وسعه لتقويض دعائم الاسلام مثل هدم الكعبة المشرفة واحلال معبد بوذى (بت خانه) محلها ، ويعمل على ايذاء المسلمين سواء فى شعورهم أو أموالهم وغير ذلك من الموضوعات المسببة للمضايقات وكسر شوكة المسلمين ، ثم ينتقل الى الايلخان أرغون خان وينقل اليه كلما يستطيع أن يتحدث فيه عن المسلمين وعدائهم له حتى أن أرغون خان اعتبر المسلمين حلفاء طبيعيين لأعدائه ، وأنهم ساعدوا تكودار فى حربه معه . قال الوزير سعد الدولة اليهودى لأرغون خان ذات يوم : « ان النبوه وصلت الى الايلخان بالوراثة عن طريق جنكيز خان ، فأرغون نبى الله . ولما كان

كل دين يتوقف على جهاد المخالفين له واستئصال شأفتهم ، فانه يجب أن يصدر الايلخان أمره بقتل كل شخص يتخلف عن قبول ديانته ، ولا يقبل أن يحشر فى زمرة أتباع الملة الجديدة »(٣٤) ٠ ولما كان أرغون خان بطبيعته يكره المسلمين ولا يميل اليهم ، فقد صادف هذا الادعاء هوى فى نفسه ، فكان ذلك عاملا جديدا من عوامل اضطهاده للمسلمين والفتك بهم ٠ ولم يقف فى وجه سعد الدولة اليهودى سوى أمراء المغول وقادتهم ، فخالفوا مسلكه وساءتهم تصرفاته ، وعادوه ٠ وفى اليوم الأخير من شهر صفر سنة ٦٩٠ هجرية ، وعندما كان أرغون خان يحتضر أقاله خصومه والحاقدون عليه ، ثم قبض أمراء المغول عليه وقتلوه فى منزل عدوه اللدود « طغاجار » ٠

وكان لخبر مقتل سعد الدولة اليهودى رنه فرح بين المسلمين الذين تحملوا الكثير من الصعاب والتشرد والفتك على يديه ، فقاموا على اليهود فى مدن ايران المختلفة يتتبعونهم قتلا وايذاء ، حتى أن عددا كبيرا من اليهود قتل فى تلك المذابح التى شنها المسلمون عليهم ٠ ولم يسلم من الغارة سوى يهود شيراز حيث كان على ادارتها شخص يهودى يدعى « شمس الدولة » نائبا عن سعد الدولة ، كان يسلك مع الأهالى طريق الرفق واللين ، ويدفع عنهم عاديات المعتدين ، وحاز ثقة الأهالى ، فسلم يهود شيراز من القتل والاغارة على دورهم ومتاجرهم(٣٥) ٠

سياسة أرغون خان الخارجية :

كان حقد أرغون خان على الاسلام والمسلمين ، والهزائم المتكررة التى منى بها المغول فى عصر والده أباقا خان على يد المماليك حكام مصر والشام مدعاة للتحالف مع القوى المعادية للمسلمين والتعامل مع أى جهة تتعاطف معه ٠ فوجد ضالته فى المسيحيين ، فعرض عليهم صداقته وتحالفه ، بل وتعاطفه وميله للمسيحية وتقريبه المسيحيين من رعاياه ، حتى يعد عصره بحق عصر

---

(٣٤) عباس اقبال : تاريخ مغول ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٦ ٠

(٣٥) حبيب لوى : تاريخ يهود ايران ، المجلد الثالث ، ص ٨٦ ــ ٩٨ ٠
وأيضا خواندمير : دستور الوزراء ، تحقيق سعيد نفيسى ، ص ٢٩٦ ــ ٣٠٥ ٠

الصداقة والتحالف المغولى مع البابا فى روما وملوك أوروبا ٠ وحتى يظهـــر أمام الغرب المسيحى بعدائه للماليك حكام مصر والشام والمسلمين عامة كانت سياسته الخارجية تفيض حماسة واندفاعا لخدمة المسيحية والمسيحيين ٠ وكان أول اتفاق وقعه ، ذلك الذى تم مع ملك دولة أرمينيا الصغرى ويتضمن استرداد الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ٠ وأرســل أربع سفارات الى المقر البابوى فى السنوات ١٢٨٥ و ١٢٨٧ و ١٢٨٩ و ١٢٩٠ ميلادية يقترح فيهـــا جميعا استعداده للقيـــام بحملة مشتركة مع المقر البابوى لحـــرب المماليك ، على أن يقوم الغرب المسيحى بغزو مصر فى الوقت الذى يقوم هو فيه بغزو الشام(٣٦) ٠ كما كان يردد دائما أنه لن يفعل ذلك الا اذا بذل له الملوك المسيحيون فى الغرب المساعدة والتعاون العسكرى(٣٧) ٠

سفارة ربان سوما الى البابا سنة ١٢٨٧ م :

وفى سنة ١٢٨٥ م كتب أرغون خان رسالة الى البابا « هورنيـــوس الرابع » أقترح فيها القيام بشن حملة مشتركة ضد المسلمين بمصر والشام وتدمير قوتهم العسكرية ، غير أنه لم يتلق ردا على ذلك(٣٨) ، ثم قرر بعـــد سنتين اعادة الكرة وايفاد سفارة الى الغـــــرب ، فاختار سفيرا له هو القس « ربان سوما » ، وهو من أصل تركى وكان صديقا للجاثليق « ماريابهالا » الجالس على كرسى البابوية فى العراق للمسيحيين النساطرة ، وهو تركى الأصل أيضا وكان قد قدم من الصين مع زميله القس ربان سوما واتجهـــا نحو الغرب يراودهما الامل فى تأدية فريضة الحج الى بيت المقدس ٠ ثم تقرر انتخابه جاثليقا بالعراق سنة ١٢٨١ م ، وكان له دوره المؤثر فى السياسة الايرانية فى عصر أرغون خان ٠ وقد بدأ السفير ربان ســوما رحلته فى أوائل سنة ١٢٨٧ م ، فأبحر من طرابيزون الى القسطنطينية ، ولقى اســـتقبالا

---

(٣٦) Runicman; A History of the Crusades, Vol. III, Cambridge, 1959, P. 398 - 402.

(٣٧) Budge; The Monks of Kublai khan, introduction, P. 42 - 61 & 72 - 75.

(٣٨) انظر رسالة أرغون خان فى : Chabut; "Relations du roi Argoun avec l'Occident", dans la Reuvue de l'Orient Latin, Vol. II, P. 571.

وديا حافـــلا من الامبراطور البيزنطى « اندرونكوس » • وكان الامبراطور البيزنطى على علاقات طيبة مع المغــول ، وكان مستعدا لأن يبذل لهم من المساعدة ما تسمح به موارده الضئيلة ، ثم توجه سوما من القسطنطينية الى نابولى ، فبلغها فى شهر يونيو من نفس العام ، ثم واصل ســيره الى روما • وكان البابا « هورنيوس الرابع » قــد توفى قبل قدومه ، فاستقبله الكردالة المقيمون بروما • ويذكر السفير ربان سوما فى تقاريره الى الايلخان ارغون خان أن معلومات الكرادلة والمقر البابوى بصفة عامة عن المغــول ضعيفة ، اذ لم يكونوا يعلمون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وفى نفس الوقت صدمهم ربان سوما حيث كان يخدم سيدا وثنيا • ثم تــرك ربان سوما روما بعد أن فشل فى مهمته ، بل ووصل الامر الى أنه لم يتمكن من التفاهم مع الكرادلة ، من ذلك أنه عندما كان يناقشهم فى الامور السياسية كانوا يستجوبونه حول ايمانه وعقيدته • ثم انتقل السفير المغولى الى جنوة فى احتفال كبير ، اذ كان التحالف مع حكامها أمرا بالغ الاهمية عندهم •

وفى نهاية شهر أغسطس من نفس العام (١٢٨٧ م) عبر « ربــان سوما » الى فرنسا ، فبلغ باريس فى شهــر سبتمبر ، ولقى استقبالا حافلا من الملك فيليب الرابع المعروف باسم فيليب الجميل Philippe Le Bel وأنهى مباحثاته بأن وعده ملك فرنسا بأنه سوف يتولى بنفسه قيــادة جيش صليبى لتخليص بيت المقدس • ولمــا أزمع السفير المغولى مغــادرة باريس عين الملك فيليب الجميل سفيرا من قبله اسمه « جوبيرت هيلفيــل » ليصحب ربان سوما فى عودته الى بــلاط الايلخان ، وليعد معــه تفاصيل التحالف مع المغول • ثم قابل السفير المغولى « أدوارد » ملك انجلترا فى اقليم بوردو حيث أملاكه الفرنسية • وكان ملك انجلترا مؤمنا بمبدأ تحالف الغرب المسيحى والمغول الوثنيين ضــد المسلمين والقضــاء على دولة المماليك • وعندما أراد السفير المغولى وضع جدول زمنى للحرب ضد المسلمين راوغــه ملك انجلترا حيث لم يكن مستعدا للقيام بالحملة الصليبية •

وفى شهر فبراير سنة ١٢٨٨ م تم اختيار « نيقولا الرابع » بابا • وكان من أول أعماله أن استقبل السفير المغولى ، وقامت بينهما أحســن العلاقات الشخصية • وأخيرا غادر السفير ربان سوما مدينة روما وبصحبته

السفير الفرنسى « جوبيرت هيلفيل » فى ربيع سنة ١٢٨٨ م ، يحمل من البابا الهدايا وكثيرا من المخلفات الدينية القيمة للايلخان والجاثليق « ماريا بهالا » ورسائل اليهما ، والى أميرتين مغوليتين مسيحيتين والى أسقف اليعاقبة فى تبريز ، غير أن تلك الرسائل كانت تتسم بالغموض ، من ذلك أن البابا نيقولا الرابع لم يعد باتخاذ اجراء محدد فى زمن معين(٣٩) ٠

وعقب عيد القيامة فى سنة ١٢٨٩ م أرسل أرغون خان رسولا جنوى الأصل أقام فى الشرق زمنا طويلا يدعى « بوسكارد جيرولف » ، برسائل الى البابا وملكى فرنسا وانجلترا ٠ ولازالت رسالة أرغون خان الى فيليب الجميل باقية حتى الآن ، وقد كتبت باللغة المغولية وبحروف أويغورية ٠ وتبدأ الرسالة باسم الخان الكبير « قوبيلاى قا آن » وفيها أنهى أرغون خان الى ملك فرنسا أنه سوف يتوجه الى سوريا فى الشهر الاخير من فصل الشتاء من سنة الفهد ، أى فى يناير سنة ١٢٩١ م ، وأنه سوف يصل الى دمشق حوالى منتصف أول شهور الربيع ، أى فبراير ومارس سنة ١٢٩١م ، فاذا أرسل الملك ـ فيليب ـ قوات اضافية واستولى المغول على بيت المقدس ، فسوف يجعلها له ٠ أما اذا لم يتعاون ملك فرنسا فى تعزيز وتمويل الحملة ضد المسلمين فسوف تتبدد الحملة ٠ وأضاف « بوسكارد » الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية ، تنطوى على تحيات لبقة موجهة الى الملك الفرنسى ، ويضيف « بوسكارد » أن الايلخان أرغون خان سوف يصحب معه الملكين المسيحيين ببلاد الكرج ونحو عشرين أو ثلاثين ألفا من الفرسان ، وسوف يتكفل بما يكفى رجال الغرب من مؤن طوال فترة الحرب ٠

وعلى الرغم من أن «بوسكارد » عاد أدراجه باجابات لا تبشر بتعاون مثمر وفعال ، فان أرغون خان أرسله مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين وهما اندرياس زاكان وسهادين ، فتوجهوا ثلاثتهم أول الامر الى روما حيث استقبلهم البابا نيقولا الرابع ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا ، غير أن

---

(٣٩) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية للدكتور السيد الباز العرينى ، بيروت سنة ١٩٦٩ م ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٦ ، وأيضا Budge; The Monks of Kublai, P. 164 - 197.

الملك أدوارد كان منغمسا فى مشاكل داخلية باسكتلندا • وعاد الرسل الثلاثة الى روما مرة ثانية فى طريق عودتهم الى بلدهم وقـــد اشتد الضيق بهم ، فمكثوا بهـــا فصل الصيف حتى بلغهم فيها نبـــأ وفاة سيدهم الايلخان أرغون خان(٤٠) •

وهكذا لم يقع أى قتال فى عهـــد أرغون مع المماليك ، ولم يتحقق أى تحالف مغولى مع الغرب ، ربما كان ذلك راجعا الى اشتغال جنوده فى ميادين أخرى ، وانصراف غرب أوربا الى المخاصمات والعداوات ، فلم يجد أرغون خان استجابة من الغرب أو حماسا ، سواء من البابا أو من غيره من الملوك ، ولم يتعد الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها • ومن الواضح أن الســـفارة الاخيرة التى أرسلها أرغون خان الى غرب أوربا جاءت فى الوقت الذى سقطت فيه عكا ــ آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ــ فى أيدى المماليك(٤١) • أما النتائج التى نتجت عن اتصال أرغون خان بالغرب المسيحى فانها كانت بدفع المسيحية فى ايران ونشرها بين المغول •

وتوفى أرغون خان فى اليوم السادس من ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية (١٠ مارس ١٢٩١ م) اثر تناوله بعض العقاقير التى كان يتعاطاها لاطالة عمره بعد أن حكم سبع سنوات • يقول الحافظ الذهبى فى أحداث ســنة ٦٩٠ هجرية ما يلى : « توفى أرغون صاحب العراق وخراسان وأذربيجان ، كان شهما مقداما كافر النفس شديد البأس ، سفاكا للدماء عظيم الجبروت ، ويقال انه سم فاتهمت المغول وزيره سعد الدولة اليهودى بقتله ، فمالوا على اليهود قتلا ونهبا وسبيا »(٤٢) • أما شرف خان البدليسى فانه ذكر فى كتابه « شرف نامه » أن أرغون خان توفى فى اليوم الخامس من شهر ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية فى قراباغ أران(٤٣) •

---

(٤٠) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحـــروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٦٧٧ ــ ٦٧٩ •

(٤١) Grousset; L'Empire Mongol, Vol. III, P. 727.

(٤٢) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦٦ •

(٤٣) شرف خان البدليسى : شرفنامه ، الترجمة العربية لمحمد على عونى ، الجزء الثانى ، القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ١١ •

٥ ـ كيخاتو خان (٦٩٠ ـ ٦٩٣ هـ) :

توفى أرغون خان بعد أن حكم سبع سنوات ، فأرسل جماعة من الأمراء الى أخيه « كيخاتو » الذى كان حاكما على بلاد الروم ، يبلغونه نبأ وفاةأخيه الايلخان ويستدعونه للحضور الى آذربيجان على الفور لتنصيبه ايلخانا . وفى نفس الوقت راسل بعض الأمراء وقادة الجيش الامير بايدو بن طوغان حفيد هولاكو ، وكان قائما على حكومة بغداد لشغل نفس المنصب . وبذلك انقسم أمراء المغول الى جماعتين ، أكثرية تؤيد تنصيب كيخاتو وأقلية تساند بايدو . وطبقا لأحكام الياسا الجنكيزية والعرف المغولى فقد كانت كفة كيخاتو هى الراجحة ، لانه كان أكبر الامراء الاحياء سنا . فقدم من بلاد الروم ورافقه عدد كبير من أمراء المغول ، وهذا يعنى طبقا للعرف القبلى المغولى ترشيحه لمنصب الايلخان ، واعتلى العرش فى يوم الاحد ٢٣ رجب سنة ٦٩٠ هجـرية .

وواجه كيخاتو خان فى أوائل عهده عدة ثورات تميزت بالعنف والدمار ، وأظهرت عدم التماسك بين أمراء المغول الذين كان يضرب بهم المثل فى الوحدة والطاعة والتماسك ، فقامت ثورة بخراسان ترأسها وقادها حاكم خراسان « أنبارجى بن منكوتمر » ، وأرسل كيخاتو خان نائبه « سنكتوريان نويان » الى خراسان لمواجهة الفتنة فتمكن من اخمادها . كذلك اندلعت ثورة أخرى قام بها التركمان واليونانيون فى بلاد الروم ، فتوجه اليهم كيخاتو بنفسه وهزمهم بعد قتال عنيف استمر عشرة أشهر . وكان الايلخان قد ترك حكم البلاد لنائبه سنكتوريان ، وكانت تعوزه الكفاءة والحـزم والمقـدرة على مواجهة المشاكل الادارية والمـالية ، وزاد الطين بـلة أن ابتليت البـلاد الايرانية بقحط عام نتيجة عدم سقوط الأمطار ، فاختلت أوضاع البـلاد ، واضطربت أمورها . لكن كيخاتو خان تمكن من ضبط الامور بعد جهد كبير فعادت البلاد الى سابق عهدها من الاستقرار والانتعاش . وأجرى تغييـرا فى المناصب الكبرى بالدولة ، كان أهمها على الاطلاق عزل نائبه وأمـير الأمراء « سنكتوريان » وتنصيب الامير آق بوقا ، وأسند الوزارة الى خواجة صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى الملقب بصدر جهان الذى كان فى الأصـل من سلالة قضاة زنجان . كما نصب كيخاتو أخاه الآخر خواجة قطب الدين أحمد الخالدى المعروف باسم قطب جهان منصب قاضى القضاة وولاه فى نفس

الوقت ادارة أوقاف المسلمين فى ايران كلها ، فعمل كلاهما بكفاءة واخـــلاص وأدارا دفة الحكم بدقة واحكام . يقول المؤرخ الايرانى شرف خان البدليسى فى كتابه ما يلى « ... أسند كيخاتو منصب أمير الامراء لآقبوقا بهادر ، وأسند الوزارة للخواجه صدر الدين أحمـد الخالدى الزنجانى الذى كان فى الأصل من سلالة قضاة زنجان ولقبه بصدر جهـــان . كما أنه نصب أخاه الآخر وهو الخواجة قطب الدين أحمد قاضيا للقضاة وولاه نظارة أوقـاف الممالك المحروسة كلها »(٤٤) .

وكان كيخاتو خان رجـــلا مسرفا يقضى أوقاته فى الشراب واللهـــو والمجون ، فأنفق الأموال التى كانت بخزائن الدولة ، تلك التى جمعها أرغون خان ، على ملذاته ، واحتقر التعامل بالذهب والفضة ، واعتبرهما لايصلحان الا لزينة النساء والرجال . ولم يمض قليل وقت حتى أصبحت خـــزائن الدولة خالية تماما ، وارتبكت المـالية عامة ، ولم يجـــد البلاط الايلخانى نقودا للصرف منها على الضروريات الاساسية من غذاء وخلافه . وقـــد زاد الأزمة تفاقما أن الوزير خواجة صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى كان بدوره ينفق أموال الدولة فى استمالة قـــلوب الناس اليه خاصـــة طبقتى الزهاد والعباد . وزاد الطين بله انتشار الأمراض والأوبئة وقحط عام استمر عـــدة سنوات حتى ضج الناس بالشكوى من الايلخان نفسه ومن وزارة صـــدر جهان وتحركت عندهم روح الثورة(٤٥) .

الچـــاو كعملة متداولة فى عهـــد كيخاتو خان :

وفى تلك الأثناء التى كانت فيهـــا الدولة فى وضع غـير سليم نتيجة الاضطراب المـالى وتذمر الشعب الايرانى من الاوضاع السائدة فى عهـــد الايلخـــان ، قـــدم شخص يدعى « عـز الدين محمـــد بن مظفر بن عميـــد » من الصين ، وكانت لديه معرفة كاملة بأحوال الصين والسياسة المـالية للخاقان

---

(٤٤) شرف خان البدليسى : شرفنامه ، الترجمة العربية لاحمد على عونى ، الجزء الثانى ص ١١ .

(٤٥) خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٠٥ ـ ٣١٢ ، وأيضا كتـاب نسائم الاسحار من لطائم الاخبار در تاريخ وزرا ، تأليف ناصر الدين منشى الكرمانى ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

فى الصين ومنغوليا . فعرض عز الدين محمد هذا على الوزير صدر جهان استبدال العملة الذهبية والفضية المتداولة الى عملة ورقية حتى تتحسن الاوضاع المالية فى البلاد . واقتنع الوزير صدر جهان بما قدمه الخبير المالى القادم من الصين ، وعرضا الفكرة على الايلخان ، وكان يؤيدهما ويشجعهما على ذلك كبار أمراء البلاط . ثم استشار كيخاتو خان سفير الخاقان فى بلاطه وكان صينيا يدعى « پولاد چينك سانك » فى أمر تغيير العملة ، فاستحسن رأيه . وأصدر كيخاتو أمرا بتداول العملة الورقية وسحبت العملات الذهبية والفضية ، وأمر بأن تقام فى كل مدينة ادارة للعملة تسمى « چاوخانه » تقوم بصك الچاو ، أى العملة الورقية .

وكان الچاو فى البداية يسمى « چاو مبارك » ويتكون من قطعة ورقية مستطيلة الشكل مدون على أطرافها الاربعة بخط « خطائى » . وفى أسفل الورقة نقشت الشهادتان على طرفين من الورقة . وفى أسفل الشهادتين بمسافة قليلة وفى الوسط كلمة « ايرنجين دورجى » وهو اللقب المغولى لكيخاتو الذى لقبه به الخاقان الخطائى ، ومنقوش عليها فى الوسط عدة سطور مضمونها أنه بتاريخ ثلاث وتسعين وستمائة أجرى الايلخان تداول هذه العملة المباركة المسماة بالچاو فى جميع البلاد ، فمن أقدم على تغييرها أو تبديلها يعرض نفسه وأهله من النساء والاولاد والاقرباء لعقوبة شديدة . وكانت قيمة الچاو مدونة داخل دائرة فى وسط العملة وتختلف من نصف درهم الى عشرة دنانير .

وانتشرت الچاو لاول مرة فى تبريز فى ١٩ شوال سنة ٦٩٣ هجرية ، لكن الاهالى لم يكن عندهم استعداد بالمرة للتعامل بالعملة الورقية بدلا من التعامل بالذهب والفضة ، بل ولم يكن هذا النوع من التعامل مألوفا لديهم ، وانصرفوا عن التعامل بالچاو وامتنعوا عن التعامل به ، لكنهم ـ وكانوا يخشون عمال المغول ـ أجبروا على التعامل به ، فكانت النتيجة أن اضطربت أحوالهم وكسد سوق التجارة والمال وقل البيع والشراء . وعندما أجبر عمال كيخاتو الاهالى على التعامل بالعملة الورقية هاجر جماعة كبيرة الى بلاد أخرى لا تتعامل بالچاو ، كما استعد عدد آخر منهم للثورة ضد الحكومة . وقد حدث مثل ذلك فى شيراز ، وعصى الأهالي تنفيذ تعليمات الايلخان ولأول

مرة يقف الاهالى المسلمون موقفا من الحكومة٠وذكر صاحب كتاب «الحوادث الجامعة » فى هذا الشأن ما يلى : « ٠٠٠ كان الرجل منهم يضع الدراهم تحت الچاو ويعطى الخباز والقصاب وغيرهمـا ويأخـذ حاجتـه خوفا من أعوان السلطان »(٤٦) ٠ كذلك لدينا وصف دقيق لمـا حدث فى مدينة تبريز ذكره شرف خان البدليسى عن تداول الچاو وصدى ذلك على شعب المدينة ، يقول: « نفذت عملة الچاو فى يوم من أيام ذى القعـدة من السنة المذكورة (٦٩٣ هـ) بمدينة تبريز واضطر أهل السوق بضعة أيام للتعامل بها فى البيع والشراء٠ ثم نفد صبر طائفة من أهالى تبريز على تحمل هـــذا الضرر اللاحق بهم ، فآثرت الرحيل على الاقامة ٠ وطائفة أخرى ولو أنها كانت تفتح دكاكينها خوفا من سطوة الحكومة ورجالها ، الا أنها كانت تخفى السلع والامتعـة ولا تظهرها ٠ فضج الناس من الحالة وقلقوا أشد القلق واجتمعوا يوم الجمعة ونادوا بالويل والثبور وجهروا بالشكوى والتذمر صائحين بالسخط واللعن على عـز الدين مظفر الذى تسبب فى هذه المصيبة العامة ، وقد أراد الدهمـاء والأوباش البطش به ٠ وفى رواية أنهم فتكوا به فعلا ٠٠٠ »(٤٧) ٠

وعندما شعر كل من كيخاتو خان والوزير صـدر جهان أن الچاو زاد الحالة سوءا واضطرابا ، وأن الايرانيين قد يثورون جميعا ضد قانون العملة الچاوية ممـا يعجل بالاطاحة بالملك والوزارة فأوحى الوزير صـدر جهـان الى الايلخان الغاء الچاو والعودة الى التعامل بالذهب والفضة فأصدر كيخاتو خان أمرا بذلك وتغير اسم العملة من « چاو مبارك » الى « چاو نا مبارك » أى « العملة المشئومة » ٠ وأصبحت فى ذمة التاريخ ولم يبق منها فى المعجم الفارسى سوى كلمة « چاوبان » وهو اللقب الذى أطلقه الأهـالى على الوزير صدر جهان ٠ وعمـــل كيخاتو خان على استرجاع الاهالى الذين جلوا عن أوطانهم ، فعاد الناس الى تبريز ، وأخذوا يباشرون أعمالهم كما كانوا وكأن شيئا لم يحدث ٠ وعلى هذا النحو تمكن الايلخان ووزيره من السيطرة على الاهالى الثائرين فعادت الحياة الى الاقتصاد المنهار والسوق الراكدة ٠

---

(٤٦) الحوادث الجامعة ، حوادث سنة ٦٩٣ هجرية ٠

(٤٧) شرف خان البدليسى : شرفنامه ، مرجع سابق ، ص ١٤ ٠

الانشـــقاق فى بيت هولاكو وقتـــل كيخاتو :

ونال كيخاتو خان فى أواخر أيامه غضب أمراء المغول وقادتهم بسبب افراطه فى الشراب وقضائه معظم أوقاته فى اللهو والفسق والفجور٠كما أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى واللواط حتى أنه كان يفسق بصبيان المغول ، فكرهه الأمراء لهذا السبب وعابوا عليه شذوذه ، وبدأوا يثورون فى وجهـه ويعملون على اقصائه ٠ وكان يتزعم هؤلاء الامير بايدو أحـــد حفدة هولاكو الذى لم يرقه أن يكون على العرش المغولى شخص سىء الخلق عديم الشرف مثل كيخاتو ٠ وقد حدث فى احدى المناسبات أن أهان كيخاتو خان الامير بايدو ، واتهمه بأنه على رأس مخالفيه ، والمثير للفتن والدسائس وهـــدده كيخاتو خان بالقتل ان تمادى فى طريقه ومسلكه ٠ فعاد بايدو الى مقـــر حكومته غاضبا ٠ وشعر كيخاتو بما قد يدبره بايدو ضـــده ، فقبض على عدد من الأمراء المنحازين له واكتفى بحبسهم حتى يتضح الموقف الذى سوف يتخـــذه زعيمهم ٠

أما بايدو فانه ما أن وصل الى مقر حكومته حتى عبأ الجند لحـــرب كيخاتو ٠ وكذلك فعل الاخير واستعد لقمع مناوئيه ، وجهز جيشا كبـــيرا وضع على قيادته كل من الامير آق بوقا والامير طغاجار ووقعت معركة بـــين الفريقين ، كان النصر حليف جيش كيخاتو فى البداية ، ثم تغيرت لصـــالح بايدو عندما انشق الامير طغاجار على كيخاتو وانضم الى بايدو ، فهـــزم آق بوقا وانكسر جيش كيخاتو ففـــر من تبريز الى مغان ، لكن بعض الامراء الثائرين قبضوا عليه وسلموه لبايدو ، فاحتجزه حتى قضى على أعوانه ثم أعدمه خنقا فى السادس من جمادى الاولى سنة ٦٩٤ هجرية (٢١ أبريـــل ١٢٩٥ م)(٤٨) ٠

٦ ـ بايـــدوخان (١٦ جمادى الأولى ٦٩٤ ـ ٢٣ ذى الحجة ٦٩٤ هـ) (١٢٩٥ / ١٢٩٦ م) :

هو الأمير بايدو بن طوغان بن هولاكو بن تولى بن جنكيز خان ، اعتلى العرش فى ١٦ جمادى الاول سنة ٦٩٤ هجرية ، أى بعد عشرة أيام من اعدام

---

(٤٨) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٨ ٠
وأيضا : مير خواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٣٦٣ ـ ٣٧٤ ٠

خصمه كيخاتو خان وذلك بعد اجتماع القوريلتاى فى مكان بالقرب من مدينة همدان برئاسة الامير طغاجار ، وقرروا بالاجماع تنصيب بايدو العرش الايلخانى . وقد برر الامراء قتل الايلخان كيخاتو فى اجتماعهم بأنه عاش عيشة لا تليق بمقام الجالس على العرش ، وأنه كثيرا ما خالف أحكام الياسا ، لذا فقد استحق الحرمان من الحقوق التى كان يستمتع بها .

وكان بايدو فى تلك الفترة صغير السن قليل الخبرة خامل الذكر ، لكن كيخاتو بتصرفاته الشاذة والغريبة جعل منه شخصية يلتف حولها بعد ان اهانه ذات مرة أمام من هم أدنى منه درجة ، وهذا ما لا تقره أحكام الياسا الجنكيزية التى تنص صراحة على أن أمراء البيت الجنكيزى لا تهدر كرامتهم امام غيرهم ، وان أجرم أحدهم فيجتمع القوريلتاى الذى من حقه وحده تشكيل محكمة لبحث مشكلته ، هذه المحكمة التى يحق لها ادانته ومجازاته، وأن من يفعل غير ذلك يعاقب عقابا صارما.لذلك فقد دعى الامراء والمشتركون فى القوريلتاى الامير بايدو الى تولى العرش . وعلى أثر توليته تخلص من أتباع سلفه كيخاتو ، وقرر اعادة الوظائف والحقوق الى أصحابها ، وأعفى الاوقاف الاسلامية من الضرائب ، وعهد بأمور الجيش وامرة الامراء الى الامير طغاجار ، كما اختار جمال دستجردانى للوزارة خلفا لصدر جهان وزير كيخاتو ، فاختار لقب الوزير بدلا من لقب « صاحب الديوان » . وسلك الامير طغاجار مسلك أباقان خان اذ جعل ادارة كل ولاية من ولايات الدولة فى يد أمير من الامراء(٤٩) .

ولم يكد بايدو خان يتولى العرش الايلخانى ويستتب لم الأمر حتى نازعه فيه الامير غازان بن أرغون ـ وكان واليا على خراسان من قبل والده حتى ذلك الوقت ـ والذى عظم فيه ما حدث لعمه كيخاتو ، وأيده فى ذلك الامير نوروز أحد أمراء المغول الذين أسلموا وخلص اسلامهم ، وقاد جند غازان فى حربه ضد بايدو . ورأى الامير نوروز الايلخان الجالس على العرش صاحب شخصية ضعيفة وآلة فى يد الأمراء وأنه أسند أمور البلاد الى طغاجار ، وبرر مخالفته بقتله كيخاتو خان طبقا لاحكام الياسا الجنكيزية التى تنص

(٤٩) مير خواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٣٧٦ .

صراحة على أن قاتل أمراء الاسرة الملكية مهما كانت شخصيته يلزم القصاص منه ، لذلك فيجب على غازان القصاص من بايدو لاهداره دم كيخاتو ٠

وتوجه غازان ومعه الامير نوروز من خراسان الى آذربيجان لقتال بايدو ، وفى نفس الوقت أرسل رسله الى بايدو ينكر عليه قتل عمه بيد جماعة ليسوا من طبقته الأمر الذى يخالف أحكام الياسا ، وطالبه باجراء تحقيق عاجل ليلقى القتلة جزاءهم ٠ واستعد كل فريق للآخر وانقسم المغول فريقين ، والتقى الجيشان المتصارعان فى اليوم الخامس من رجب سنة ٦٩٤ هجرية فى مكان يعرف باسم « قرجان شيره » بالقرب من قرية « شير كيران » من ولاية مراغة ، فهزم بايدو وانسحب من ميدان القتال ، وحاول ابرام صلح مع غازان ، وأرسل له رسلا من قبله ، لكن غازان لم يقبل الصلح ٠ وكان هذا الامر على هوى الامير نوروز قائد جيش غازان الذى شرف بدخول الاسلام بينما كان بايدو قد اعتنق المسيحية ، وصار كل منهما داعية لدينه ، فكما اختلفت ديانتهما اختلفت مشاربهما وأهدافهما ٠

ووقع بايدو فريسة لخيانة قائده وأمير أمرائه طغاجار ، الذى وجد أن الأمر قد خرج من يد سيده ، وأن دولته زائلة لا محالة ٠ فأوعز الى بايدو اعادة الكرة مرة أخرى ، وما أن اقترب الجيشان حتى انحاز طغاجار بجيشه الى جانب غازان وترك الايلخان وحده ومعه حرسه الخاص الذى لا يكفى لدخول المعركة ، فهرب بايدو بدوره الى مرند ومنها الى بلاد الكرج فتعقبه الامير نوروز وقبض عليه قرب مدينة نخجوان ، واقتاده الى غازان فأصدر أمرا بقتله ، وتم ذلك فى ٢٣ ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية بعدأن جلس على العرش الايلخانى مدة سبعة أشهر فقط(٥٠) ٠ وهكذا لقى نفس المصير الذى لاقاه كيخاتو وشرب من نفس الكأس الذى شرب منها سلفه ، على حد قول خواندمير صاحب كتاب « حبيب السير » ٠

ان السبب الأساسى فى هزيمة بايدو ، ضعف شخصيته وقلة خبرته وانقياده للامير طغاجار الذى خانه ، كما خان سلفه من قبل ، واطلاقه الحرية

---

(٥٠) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩

للامراء فأساءوا استعمالها ، ولم يستطع أن يميز المخلصين منهم من الانتهازيين الذين يخدمون مآربهم الشخصية ، الى جانب خيانة بعض أمرائه مثل طغاجار . ولم يكن بايدو خان لاهيا ولا فاسقا كسلفه كيخاتو ، بل كان متزنا عاقلا متحمسا للمسيحية مقبلا عليها فعمل على احياء الدين المسيحى ، غير أنه فى الوقت نفسه لم يكن يضمر عداء ظاهرا للاسلام ، حتى أنه كان له ولد مال الى الاسلام واعتنقه ، فكان بايدو يحثه على أداء الصلاة جماعة مع المسلمين ، غير أن حبه الشديد للمسيحيين ورهبانهم أسخط عليه المسلمين(٥١) .

(٥١) D'Ohsson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 115 - 116.

الفصل الثامن

المغول في ايـــران من عهـــد غازان الى نهاية الدولة الايلخانية
(العصر الاســـلامى)

غازان خان (٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ) :

تولى غازان خان بن أرغون العرش الايلخانى بعد قتل بايدو خان ٠ ولد غازان سنة ٦٧٠ هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٧١ م وتربى فى قصر جـــده اباقان خان ، وكان يصحبه منذ نعومة أظفاره فى رحلات الصيد ، وعندما بلغ العاشرة من عمره عينه أبوه أرغون حاكما على خراسان تحت وصاية الأمير نوروز بيك بن أرغون أقا ، أحد كبار أمراء المغول وابن الحاكم المغولى الذى حكم الاقاليم الايرانية منذ عهد جنكيز الى هولاكو مدة تسع وثلاثين سنة ٠ والى الأمير نوروز يرجع الفضل فى اسلام غازان خان ، فأحدث بذلك تغييرا كبيرا فى شكل الدولة المغولية فى ايران ٠ ان اسلام غازان خان يعد ملحمـــة كبرى لانتصار الاسلام على الديانات الاخرى ، خاصة اذا علمنا أن غازان كان فى بداية أمره بوذيا ، وفى الوقت نفسه كان يميل الى المسيحية نتيجة تربيته وتنشئته عند « دسبينا خاتون » زوجة جده أباقا خان ٠

وما أن انتصر غازان على خصمه بايدو ، حتى أسرع ودخل تبريز فى العاشر من شهر ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية ، ودخلهـا دخـول الظافرين ، خاصة وأنه كان قد أشهر اسلامه ولبس عمامة المسلمين ، فاستقبله خارج المدينة كبار رجالها وساداتها وعلماؤها وقضاتها المسلمون ، يتقدمهم الوزير « خواجه صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى » الذى ما لبث أن نال ثقـــة الايلخان ، وأطلق يده فى حكم البلاد ٠ ثم أعلن غازان الايلخانا فى اليوم الأخير من شهر ذى الحجة سنة ٦٩٤ هجرية وكان ذلك اليوم مصادفا ليوم النوروز ٠

اســـلام غازان خان :

كان غازان خان بوذيا فى بداية أمره ، وكانت للديانة البوذية سيطرتها

وسطوتها فى ايران منذ قـــدمت مع المغول ، ونشط كهنتهـا فى نشر دينهم معتمدين فى ذلك على قوة معتنقيها من المغول والترك ومن قدم معهم من شرق آسيا من أجناس بشرية مختلفة أهمها الصينيون • وانتشرت معابدهم فى ايران على حساب مساجد المسلمين • وكان كهنة بوذا يرسمون خططهم فى نشر ديانتهم بطريقة منظمة وتخطيط دقيق للغـــاية ، من ذلك أنهم كانوا يحكمون حصارهم حول الأمراء الايلخانيين ليكونوا سـندا لهم وعونا على استمرار نشر تعاليمهم فى سهولة ويسر •

كما عرف غازان شيئا عن المسيحية بفضل اقامته فى طفولته مع « دسپينا خاتون » المسيحية النسطورية زوجة جده أباقا خان • وكانت تلك السيدة تطمع فى ادخال الامير المغولى الدين المسيحى منتهزة فرصة حبه لها ، وكادت تنجح فى خطتها لولا أن أباه أرغون خان ولاه امرة خراسان وهو فى العـاشرة من عمره ، فاضطر الى ترك « دسپينا خاتون » والتوجه مع وصيه ومربيه الامير نوروز بيك•وكان نوروز هذا مسلما تربى فى أحضان الاسلام والثقافة الاسلامية ، وعاش عمـــره فى خراسان ودرس على علمائها وفقهائها الدين الحنيف • وكان يعـد من أوائل من حفظ كتـــاب الله العظيم من المغول • وتعصب غازان للدين الاسلامى رغم العداء الشديد بين المسلمين والمغول • فحبب الامير نوروز بيك الى غازان الدين الاسلامى الحنيف فطلب منه الامير الصغير أن يعلمه أصول الديانة الاسلامية ، فمال غازان الى الاسلام وكـتم اعلانه الى أن أسر اليه الامير نوروز بيك أنه اذا أراد الانتصار على بايدو الذى يقف خلفه المغول ، فانه يمكنه الاستعانة بالمسلمين اذا دخل فى الاسلام وشـاركهم العقيـدة ، وأنه سيجدهم جميعـا يؤيدونه وينضمون اليه فى صراعه مع بايدو • فوافقه غازان ووعده بالدخول فى الدين الاسلامى اذا وهب الله له النصر على خصمه •

وما أن تم لغازان النصر على الايلخان بايدو حتى بـر بوعده ، فأسلم فى الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٤ هـ (١٩ يوليو عام ١٢٩٤ م) • وكان اسلام غازان حدثا كبيرا ، كما كان يوم نطقه بالشهادتين يوما مشهودا • وقد تم كل ذلك بناحية « لار » فى دماونـــد ، حيث بدأ بدخول الحمـــام والاغتسال تطهيرا لنفسه وبدنه من رجس الشرك وفعل الشيطان ، ثم لبس

رداء اسلاميا جديدا ، ونطق بالشهادتين على يدى الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن العارف الشهير الشيخ سعد الدين محمد بن حموية الجوينى ، وذلك فى مجلس كبير ، وشهد شهادة الحق فى الملأ العام(١)٠وتبعه فى نطق الشهادة قرابة مائة ألف نفر من المغول ، فدخلوا فى الدين الاسلامى الحنيف ٠ وانتخب غازان اسما اسلاميا صاحبه بلقب اسلامى أيضا ، فتسمى بمعز الدين محمود كما تلقب بالسلطان مع الاحتفاظ باللقب المغولى « خان » ، فعرف فى التاريخ باسم « السلطان محمود غازان خان » ٠

وكان أول « يرليغ »(٢) أصدره السلطان محمود غازان خان هو الزام جميع المغول فى المملكة الدخول فى الدين الاسلامى ، وأن يتبعوا فى سلوكهم تعاليم الاسلام وآدابه ٠ أما ثانى « يرليغ » فكان تحطيم جميع الكنائس المسيحية ومعابد اليهود والبوذيين وبيوت النار الزردشتية فى كافة أنحاء المملكة ، وأن يحل محلها المساجد لاقامة شعائر الدين الاسلامى ٠ وصار السلطان محمود غازان خان ينفق بسخاء على الزهاد والعباد والسادات الذين وجدوا فى بلاطه ترحيبا ٠ كما أمر بتشييد دور العبادة وترميم مقابر الشيوخ والأئمة المتهدمة نتيجة الغزو المغولى الاول ٠ وكان يقوم بنفسه بالدعوة للاسلام فى المناسبات الدينية ، تلك التى احتفل بها لأول مرة منذ توقفها فى عهد هولاكو ٠ وكانت اجادته للغة الفارسية ، والتى كان يتكلمها بطلاقة مع خواصه ، وفهمه لأكثر ما يقال باللغة العربية سببا فى أن يتمكن من نقل الديانة الاسلامية الى المغول بلغتهم ، حتى أنه كان يقف لهم موقف الواعظ والمرشد والمعلم يخاطبهم بالمغولية ويشرح لهم كتاب الله وسنة رسوله والآداب الاسلامية حتى هداهم الله على يديه ٠ وتبع اسلام غازان وتحول دولته من الوثنية الى الاسلام أن قطع صلته بالخاقان المغولى الجالس على العرش الچنكيزى فى خانبالق (پكين) بالصين ، بعد أن كان حكام ايران ابتداء من هولاكو حتى عصره يعدون أنفسهم نوابا للخاقان ٠ أما السلطان محمود غازان خان فانه قطع كل صلة له مع مغول منغوليا والصين ، حتى أنه

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، جـ ٣ ، ص ٢١٢ ٠

(٢) يرليغ كلمة مغولية تعنى الأمر والفرمان ٠

منع ما كان يحمل اليهم من أموال ، وأفرد نفسه بالذكر والخطبة ، وضرب السكة باسمه وطرد نائبهم من بلاد الروم(٣) ٠

وتمشيا مع الروح الاسلامية التى سادت عصره ، فان السلطان محمود غازان خان أصدر يرليغا يحتم على المسيحيين واليهود الذين ساعدوا المغول فى ايذاء المسلمين ارتداء أزياء مميزة ليعرفوا بها خارج دورهم ، وطردهم من الوظائف العامة وجعلها قاصرة على المسلمين ٠ فلاقوا على يد المسلمين مثل مالاقاه المسلمون على أيديهم من قبل ٠

ان هناك حادثة ذكرها ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة وتبعه فيها عدد من المؤرخين مثل الشوكانى فى كتابه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » وغيره ، تحيرنا فى اسلام غازان خان ، ولو فى بداية أمره بالاسلام ، ذلك أنه عندما أسلم قيل له أن الدين الاسلامى يحرم نكاح نساء الآباء ٠ وكان غازان خان قد أضاف الى نسائه نساء أبيه طبقا لعادات المغول وتقاليدهم التى تحتم انتقال نساء الأب الى الابن ما عدا أمه ٠ وكان أحبهن الى قلبه « بلغان خاتون » أكبر نساء أبيه ، فهم أن يرتد عن الاسلام٠ فقال له بعض خواصه من المسلمين بأن أباك كان كافرا ولم تكن « بلغان خاتون » معه فى عقد صحيح ، انما كان مسافحا لها ، فاعقد أنت عليها فانها تحل لك ، ففعل ، ولولاذلك لارتد عن الاسلام ، واستحسن ذلك من الذى أفتاه به لهذه المصلحة(٤) ٠

ونظر كثير من أمراء المغول وأشرافهم ، بل وعامتهم ، الى تحول غازان عن عقائد أجداده الى الاسلام نظرة سخط وكراهية ، خاصة وأنهم وجدوا الدولة قد تغيرت لغير صالحهم ، فأدى ذلك الى قيام الثورات والاضطرابات وتفشت الدسائس والفتن فيما بينهم ، وما ذلك الا أن عدم اسلامهم حال دون تبوئهم المناصب العليا فى الدولة ، وحتى فى حالة اسلامهم فقد نافسهم

---

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ٠
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠

المسلمون فى تلك المناصب ، ووصلوا الى البلاط وقربهم السلطان اليه ، واعتبرهم خاصته والمدافعين عنه . وأيضا لم يقلل اعتناق غازان خان للاسلام كمغولى من كراهيته للمصريين ، ودخل معهم فى صراع رهيب وحروب طاحنة أودت بحياته فى نهاية الأمر .

سياسة غازان خان الداخلية :

ما أن تولى غازان خان الحكم المغولى فى ايران وجلوسه على العرش الايلخانى حتى نصب قائد جيوشه الأمير نوروزبيك امرة الأمراء ، وأسند اليه ادارة شئون البلاد أو بمعنى أصح فوض اليه نيابة حكم المملكة ، كما عين أخاه خدابنده واليا على خراسان ، وعين خواجه صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى وزيرا . ثم شرع يتعقبمناوئيه من أمراء بايدو ومخالفيه فى اعتناقه الدين الاسلامى الحنيف . وتمكن من القضاء عليهم دون رحمة وشفقة ، فقتل الأمير طغاجار ، وكان أقوى الأمراء سطوة ويخشى منه القيام بثورة تطيح بالسلطان لتمرسه فى مثل هذه الأعمال ، فتحايل عليه غازان خان حتى قبض عليه وأعدمه . ثم تخلص من أعوانه ومؤيديه من الأمراء والقادة ، فقتل جماعة منهم حتى قيل أنه قتل فى شهر واحد ما لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم المنتشرين فى الأقاليم الايرانية المختلفة . كما تمكن السلطان غازان خان من احباط ثورتين قام بهما كل من الأمير « ألافرنك » الابن الأكبر لكيخاتو خان ، والأمير « توكان » الابن الأكبر لبايدو خان ، وكانا قد حاولا الاستيلاء على العرش بالقوة والاطاحة بغازان خان والعودة بالدولة الى سابق عهدها مغولية جنكيزية تحكمها الياسا والعرف المغولى .

وفى تلك الأثناء انتهز مغول ما وراء النهر فرصة عدم وجود قوات ايلخانية كافية فى خراسان حتى أغاروا عليها بقيادة « أوجاى بن براق خان » ودمروا المنطقة تماما ، فأعادوا للأذهان حملة جنكيز خان وما تركته من دمار وتشرد وسفك للدماء فى البلاد بحيث قيل أن ما تركه جحافل المغول الأول أتت عليه حملة « أوجاى » . ووصلت تلك القوات المتوحشة حتى اقليم مازندران ، واقتربوا من العاصمة تبريز . وتصدى لهم الأمير نوروز وتمكن من محاصرتهم وقطع المدد عنهم وحاصرهم فى منطقة اختارها لتكون ميدان

معركته ، وتمكن من انزال هزيمة ساحقة بالمغول(٥) ، وأجبرهم على الفرار الى بلاد ما وراء النهر لا يلوون على شيء ٠

واستغل الأمير نوروز هذا الانتصار لصالحه ، وبدأ يستبد بالأمور ويصدر القرارات دون الرجوع الى السلطان محمود غازان خان ، وأتى بتصرفات لم يوافقه عليها الوزير خواجه صدر جهان ، فما كان من نوروز الا أن أعفاه من منصبه وأسنده الى أحد أعوانه وهو « خواجه جمال الدين دستجردانى » وتلى ذلك تنحية الكثير من أعوان الوزير خواجه صدر جهان واعادة توزيع وظائف الدولة العليا ، واختصها لأقربائه والمقربين اليه ٠ وعلى هذا النحو قبض الأمير نوروز على الشئون العسكرية والأمور الادارية وأصبحت الدولة كلها فى يده ولم يترك للسلطان شيئا ٠

ولم يرق جماعة من الأمراء استبداد الأمير نوروز وانفراده بالحكم ، فاتحذ جماعة منهم ووقفوا فى وجهه ، وتزعمهم « سوكاى » وهو ابن يشموت ابن هولاكو ، و « برلا » و « أرسلان أوغول » من حفدة جوجى بن چنكيز خان ، ورفعوا راية الثورة وتعصبوا للمذهب البوذى ، وحاولوا جمع المغول الذين لم يسلموا بعد ليقفوا فى صفهم ، كما اتصلوا بمن أسلم من المغول يثنونه عن دينه الجديد ٠ وطبقا لما كانت لدى الأمير نوروز من سلطات مطلقة وحرية فى العمل تصرف بمفرده مع الثائرين ، وأعدم جماعة من الأمراء بتهمة المؤامرة على ملك الاسلام « السلطان محمود غازان خان » ٠ وأشرك معهم الوزير السابق صدر جهان فى المؤامرة ، وأراد اعدامه ، لكن أحد الأمراء المقربين من غازان خان يدعى « هرقداق » تمكن من تبرئته من التهمة الموجهة اليه ، وثبت أن الوزير خواجه جمال الدين دستجردانى كان وراء التهمة ، فأمر السلطان محمود غازان خان بقتله بعد ثبوت تهمة استغلاله السلطة والاستيلاء على أموال الدولة ، فتم اعدامه فى ٦ ذى الحجة سنة ٦٩٢ هجرية ، وأعاد صدر جهان الى الوزير مرة أخرى ٠

---

(٥) يطلق على مغول التركستان الذين يرأسهم خانات من أسرة جغتاى بن چنكيز خان بالمغول التورانيين ٠

نهـــاية الأمـــير نوروز :

أراد السلطان محمود غازان خـان أن يعيد الأمور الى نصابها بعـد الفوضى والتسيب الناتجين عن استبداد الأمير نوروز ، فأقـدم على تعيين صدرجهان وزيرا حتى يشعر نوروز أن عصر نفوذه قـد ولى ، وذلك لما بين الوزير والأمير نوروز من عداوة وتشاحن • وواقع الأمر أن الوزير صدرجهان كان يسعى بكل الوسائل للايقاع بالأمير نوروز والقضاء عليه • وحتى يوقعه فى التهلكة اصطنع رسائل كتبها بمساعدة أخيه « قطبجهان » على لسان الأمير نوروز ، منها رسالة موجهة الى الملك المنصور محمد سلطان المماليك فى مصر والشام • وكان الاتصال بالمماليك يعد أكبر الجرائم عند المغول للعـداوة بينهما • وقال فيها : « ••••• ان غازان خان قـد أسلم فعلا ، لكن أمراءه لا يزالون على دين أجدادهم وعلى ذلك فان حكومة ايران على رأسها كفرة •••• »(٦) • وطلب فى آخر الرسالة أن يهـاجم ايران وذكر له أنه يقبض فى يديه زمام الأمـور ومناه بتسهيل مأموريته وفتح أبواب ايران لسلطان المماليك واعتلاء العرش الايلخانى •

وبهذه الطريقة مهـد الأخوان صدرجهان وقطبجهان المؤامرة ضـد الأمير نوروز ، وألصقا له تهمة التآمر سرا مع سلطان المماليك فى مصر ، وأطلعا غازان خان على المؤامرة التى تحاك ضده • وكان غازان خان نفسه غير مرتاح لتصرف الأمير نوروز ، فاستمع الى وشايتهما وأنصت اليها • فأمر بالقبض على الأمير نوروز دون تحرى الدقة ، وأمر باعـدامه هو وأخوته وأبناءه وجميع أفراد عائلته ، وضم اليهم عـددا كبيرا من المقربين اليه • أما الأمير نوروز فانه ما أن بلغه قرار السلطان حتى فر الى هراة ، واحتمى بحاكمها الملك فخـر الدين كرت • فأصدر غازان خـان أوامره الى قـائده « قتلغشـاه » بالتوجه الى هراة والقبض على نوروز • فجهز الأخـير حملة عسكرية بلغ تعـدادها ٧٠ ألف جندى مغولى ، وتوجه الى هراة وحاصرها ، وطلب من ملكها تسليم الأمير نوروز ، فوجد الملك فخر الدين كرت أن الأمور قـد تأزمت ، وأن حياته مهددة أكثر من ضيفه نوروز ـ وكان متزوجا من

---

(٦) رشيد الدين فضل الله الهمدانى : تاريخ مبارك غازانى ـ داستان غازان خان ، تحقيق كارل يان ، انجلترا فى ١٩٤٠م ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ •

ابنة أخيه ــ وخشى عاقبة الأمــور ، فقبض على الأمير نوروز وسلمه الى أعــدائه ، فقتله قتلغشاه فى ٢٢ ذى القعدة سنة٦٩٦ هجرية · وبهذه الطريقة المفجعة قضى غازان خان على الأمــير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقائه العرش الايلخانى وتشرفه بدخول الاسلام وحشره فى زمرة المسلمين ·

ونهــــاية خواجـــــة صـــدرجهان أيضا ····· :

ثم جاء دور الوزير خواجة صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى الذى كان سببا فى قتل الأمير نوروز بيك ، فلقى ما لاقاه عــدوه بالأمس ، ذلك أنه اتهم باستغلال نفوذه واستيلائه على أموال الدولة ، وتوزيعه وظائف الدولة العليا على غــير مستحقيها · وكانت قــد وصلت الى مسامع غازان خــان الكثير من تصرفاته ، فأصدر أمرا بأن يقوم قتلغشاه بشطره نصفين · وتم اعــدامه على هــذا النحو فى ٢٢ رجب سنة ٦٩٧ هجرية ، ثم تبعه أخــوه قطب الدين أحمد « قطبجهان » وكذلك أفراد عائلته وأقاربه والمحيطين به فقتلوا جميعا فى تبريز فى مذبحــة رهيبة · وعلى هــذا النحـــو انقرضت أسرة صدرجهان الوزير الأديب العالم السياسى المــاهر والادارى الحــازم · وان كان ما يؤخــذ عليه سعايته للفتن والوقيعة بالآخرين وحبه للمــال · وخلفه فى منصب الوزارة خواجه رشيــد الدين فضل الله الهمدانى الطبيب والمؤرخ المعروف صاحب كتاب « جامع التواريخ » وكتب أخرى ·

وبتلك المذابح المتتالية التى شملت كبار رجال الدولة المغولية فى عهــد السلطان محمود غازان خان قضى على معظم أمرائه ووزرائه وكبار الموظفين · وعلى حــد قــول الســيد هنرى هــوارث فى كتابه تاريخ المغــول أنه من النــادر أن ترى صفحة من كتاب رشيد الدين فضل الله من ملاحظة خــاصة باعــدام موظف(٧) ·

---

(٧) Sir Henry Howorth; History of the Mongols, Part III, P. 426 - 427.

عــلاقات غازان خــان بالماليك حــكام مصر والشام :

أمضى غازان خان شطرا كبيرا من حياته ، وهو متربع على العرش الايلخانى ، فى محاربة المماليك حكام مصر والشام • وقـد وصلت أنبـاء الى السلطان محمود غازان خان تفيد أنه سادت مصر حــالة من الضعف والتفكك بسبب التطاحن على العرش والسلطة بين أمراء المماليك ، وبخاصة فى الفترة التى اغتصب فيها كل من كتبغا ولاچين العرش من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، مما شجع السلطان محمود غازان خان على التفكير فى فتح بلاد الشام وضمها الى مملكته على أن تكون خطوة للوثوب على مصر وضمها الى أملاكه •

ان هناك عـوامل ساعدت السلطان محمـود غازان خان على مهاجمة سورية ، منها أن الملك الناصر محمــد كان يحرض أمراء المسلمين على طرد المغول من ايران والعراق ، وأيضا مهاجمة جيش مصرى بلاد الأرمن • وهى دولة حليفة طبيعية للدولة المغولية فى ايران ، بل كانت تعـد تابعة للمغول الأمر الذى عـده السلطان محمود غازان خان اعتداء على ممتلكاته • كذلك استقبال السلطان المملوكى كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان خان بعـد انتصاره على بايدو واعتناقه الاسلام فقـد هاجر عـدد كبير من جنـد بايدو خان بعـد تشتتهم وطلبوا الاقـامة فى مصر • ويعـرف هؤلاء باسم « المغول العويراتية » • ويذكر أبو الفـدا « أن عـدد الفارين من وجه غازان زاد على عشرة آلاف بيت ، ولوا وجههم شطر مصر بزعامة « طرغيه » صهـر « منكوتيمور بن هولاكو » الذى ناصر بايدو خان على كيخاتو خان • وأنه لمـا دارت الأيام دورتها واستطـاع غـازان أن يعتلى العرش الايلخانى فى ايران أراد أن يأخـذ بثأر عمه من منكوتيمور ففر هو وجماعته يريدون مصر وأظهروا رغبتهم فى اعتناق الاسلام لكى يسمح لهم بالدخول »(٨)• ولما وصل هؤلاء الى نهر الفرات كاتب نواب الشام كتبغا يخبرونه بأمر العويراتيــه ، ويطلبون منه الاذن بدخولهم مصر • فجمع السلطان أمراء الدولة واستشارهم فى هذا الامر ، فاتفق الرأى على انزال عامتهم بساحل بلاد الشام وحضور

---

(٨) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣٤ •

رؤسائهم الى مصر • ويعلق على تلك الواقعة المؤرخ المصرى المقريزى بقوله : « كان كتبغا مغولى الجنس ، فلا عجب اذا مال اليهم واحتضنهم واهتم بأمرهم اهتماما أثار فى قلوب أمراء الدولة الاحن والأحقاد عليه ، وخصوصا عندما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية(٩) • لكن كتبغا رفض أن يتعرض لهم بسوء ، اذ كان يرمى الى اتخاذهم عونا له على البقاء فى كرسى السلطنة •

كانت كل هذه العوامل مشجعة على ازدياد هوة الخلاف بين المغول الايلخانيين والمماليك وظهر العداء سافرا ، وتوعد السلطان محمود غازان خان المماليك وصمم على ابادتهم والتمثيل بهم واستعد كل فريق لملاقاة الآخر • وما أن هرب سيف الدين قبچق نائب السلطان فى دمشق مع جماعة من الأمراء فى خمسمائة من الجند الى ايران ولجأوا الى السلطان محمود غازان خان — وقد أبلغ سيف الدين قبچق السلطان محمود غازان خان ما آلت اليه حالة سورية فى نهاية حكم لاچين — حتى تشجع السلطان المغولى وبدأ يفكر فى امتلاك بلاد الشام وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير الى مصر(١٠) •

ويمكننا أن نتصور أهمية تلك الحادثة وما كان لها من أثر فى علاقات الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطان محمود غازان خان ، والذى كان يتهيب المماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وحسن خططهم وانتصارهم على ملك أرمينية • فأدرك غازان خان أن أوضاع أعدائه سيئة للغاية ، وأن الخلافات بينهم وصلت الى طريق مسدود بحيث لا يمكنهم لم شملهم والدخول فى حرب ينتصرون فيها • وكانت رغبة غازان خان متجهة الى الاعتداء على دولة المماليك ، وظن أن أحوال مصر ونزاع أمرائها ستساعده على تحقيق مطامعه• وانتهز فرصة ارسال الامير « بلبان الطباخى » نائب حلب جيشا الى ماردين عاث فيها فسادا ، فاتخذ غازان ذلك حجة فى غزو الشام(١١) •

---

(٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢ •
(١٠) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٢٢ •
(١١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٢٢ — ٦٢٣ •

وحتى تأخــذ حروب غازان خان مع سلاطين مصر والشــام الصبغة الشرعية ، استفتى رجال الدين والعلماء ، الذين أجمعوا على الجهاد ، فأخذت حملته الصبغة الشرعية وأظهر ذلك ما كان للمغول تجاه المماليك من أحقــاد دفينة . وشجعه على اقتحام سورية قتل الملك المنصور واعتلاء الملك الناصر محمد العرش المملوكى للمرة الثانية ، وما تبع ذلك من خلل فى الأوضــاع فى كل من مصر وسورية ، فقام فى خريف عام ٦٩٧ هجرية بتجهيز حمــلة قوامها ثــلاث تومانات (التومان يســاوى عشرة آلاف) من جنود مغول وايرانيين ، وعهد الى قائده قتلغ شاه قيادة الجيش ، وأمره بالتوجــه الى بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وأن يسير بحذاء نهر الفرات ، وأخبره بأنه سوف يسير على رأس جيش آخر نحو ديار بكر . وقد انضمت اليهمــا قوات مغولية وفدت من مختلف النواحى حتى وصل تعداد الحملة المغوليــة ضد المماليك تسع تومانات (أى ٩٠ ألف مقاتل) .

ولــا وصل الى مسامع السلطان الناصر محمد بن قلاوون خبر الحمــلة المغولية وعبور غازان خان على رأس الجيش جهز جيشا لصــد المغول . وفى بادىء الأمر لازم المصريين سوء الحظ ، ذلك أن العويراتية طلبوا من المــلك الناصر اشراكهم فى القتــال ، فوافق السلطان المملوكى على ذلك ، لكنهم ما كادوا يصلون الى غزة حتى دبروا مؤامرة لاغتيال الملك الناصر محمــد وقواده ، وكانوا يرمون الى اعادة كتبغا المغولى الأصل الى العرش المملوكى ، والأخذ بثأر اخوانهم الذين قتلوا فى عهد لاجين . فكان من أثر ذلك أن تأخــر زحف الجيش المصرى ، وعمت الفوضى والاضطراب صفوف المماليك وفقــد أثناء ذلك كثير من آلات الحرب . على أن قواد الجيش المملوكى أظهــروا نشاطا وحكمة فى احباط تلك المؤامرة ، واعادة النظام الى وحدات الجيش ، ولقى المتآمرون جزاء ما فعلوا ويقول المقريزى : « شنق منهم نحو الخمسين ونودى عليهم : هذا جزاء من يقصد اقامة الفتنة بين المسلمين ويتجاسر على الملوك »(١٢) .

(١٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

موقعــة الخـــازندار :

قاد السلطان الناصر محمد الجيش المملوكى واتجه به من القاهرة الى بلاد الشام ، فدخل عسقلان فى ٨ ربيع الاول سنة ٦٩٨ هجرية (١٢٩٨ م) . وما أن وصلت اليه الاخبار بكثرة عدد جنود العدو ووفرة عدته حتى وقع الرعب فى قلوب الجند المماليك ، وخاصة عندما رأوا أنواعا من الجراد محلقة فى الجو ، فاعتبروها نذيرا بالهزيمـــة ، فخارت قـــواهم ووهنت عزائمهم وضعفت قلوبهم . والتقى الفريقان فى قرية تعرف باسم « مجمع المروج » فى وادى الخازندار بين حماة وحلب ، وذلك فى ٢٧ ربيع الاول سنة ٦٩٩ هجرية يقول المقريزى : « كان عـدد المماليك عشرين ألفا ، وبلغ المغـــول خمســة أضعافهم »(١٣) . وكان جيش المماليك يجمع أكفأ الامراء والقواد ويضم بعض رجال الدين لبث روح الحماس والجهاد وحب النصر فى الجنود . أما السلطان محمود غازان خان فقد رتب جيشه بحيث تكون الخيل فى المقدمة ، وأقام من ورائها الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمـــات العدو ، ولم يمتط فرسان المغول خيولهم الا بعد أن حمى وطيس القتال .

وقد أرخ صاحب كتاب المنهل الصافى المعركة التى دارت بـــين المغول والمصريين فى موقعة الخازندار ، يقول : « وعدى غازان والتتار (ويقصـــــد المغول) ، وخرج السلطان (ويقصد الناصر) لتلقى العـــدو ، وساق الى حمص ، وركب بكرة الاربعاء سابع عشرين الشهر وساق الى وادىالخزندار ، فكانت الوقعة ، والتحم القتال واشتد الحرب ، وثبت عسكر الاســـلام الى العصر ولاح لهم النصر . ثم تكاثر عساكر التتار قريبا من مائة ألف ، فشرع المسلمون فى الهزيمة ، وأخذ الامراء السلطان وتخيروا به وجمعوا ظهورهم ، وساروا على درب بعلبك والبقاع ، وبعض العسكر عبر دمشق ، واستشهد فى المصاف جملة من الامراء »(١٤) .

وكان النصر حليف المغول فى معـــركة الخازندار . أما المماليك فانهم انهزموا هزيمة فاحشة رغم انتصارهم فى بداية المعارك وتفوقهم على المغول.

---

(١٣) المقريزى : كتاب السلوك لمعـــرفة الدول والملوك ، جـ ١ ، ص ٩٢٨ ـ ٩٢٩ .

(١٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٢٤٥ .

ويعطينا مفضل بن أبى الفضائل وصفا دقيقا عن كيفية انتهاء المعركة بقوله : « صارت الاخبار مضطربة ، وأخبر قوم أن التتار عزموا على الهروب، وثنوا أعنتهم للرجوع ، فأشير على السلطان (الناصر) بسرعة السير اليهم فركبت العساكر بعد أن قاموا على ظهور خيولهم ثلاثة أيام بعددهم وأسلحتهم • ولما التقى الجمعان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة العدو ، فكسرتهم وساقت العساكر خلفتهم الى خلف أثقالهم ، وحملت ميسرة العدو على ميمنة العساكر المنصورة فكسرتها • والتقوا على السلطان والقلب وفوقوا نحوهم سهاما كدفعة المطر أو كجرية النهر المنهمر • ثم حصل تخاذل أوقعه الله تعالى بمشيئته (فى جيش الناصر) فهربت الميمنة ، وهرب من كان وراء السناجق السلطانية ، وانفل الجيش ، وانفصل الامر بعد العصر • وساق السلطان بطائفة يسيرة نحو بعلبك وبقيت الغنائم والاموال والعدد والاثقال ملقاة ملو الارض ، ورمى الجند سائر عددهم ليخففوا عن خيولهم لينجوا بأنفسهم »(١٥) •

فتح دمشق :

زحف غازان خان بجيشه المغولى الفارسى بعد انتصاره على الجيش المملوكى فى موقعة الخازندار الى حمص ، فنهب جند المغول ما كان فيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر ، ثم رحلوا الى دمشق ، فوقع الرعب فى قلوب سكانها ، وخرجت النساء سافرات ، وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ، ودفعوا الاجور الغالية لأصحاب الخيل والحمير لحمل من عجز منهم عن السير ، واعتصم بعضهم بالقرى ورؤوس الجبال ، وسار البعض الآخر الى مصر • وقد اتفق جماعة على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لمقابلة السلطان محمود غازان خان والتماس الامان منه • ومن هؤلاء ابن جماعة وابن تيمية وغيرهما من القراء والفقهاء والاعيان ، ولما مثلوا بين يديه قبلوا الارض وسألوه الامان ، وقدموا له طعاما على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله ، وأخبرهم انه أرسل الأمان لأهل دمشق مع أربعة من المغول(١٦) • فعادوا الى مدينتهم واجتمعوا

---

(١٥) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥ •
(١٦) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٦ ـ ٦٤٠ •
وأيضا : الذهبى العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ •

بالمسجد الأموى ، وتلا عليهم رجل من المغول صورة الأمان فى ٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٩ هجرية (١٢٩٩ م) ، وتضمن الكتاب تأمين الاهالى جميعهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، والعمل على ايجاد حكومة رشيدة تقر العـــدل والنظام اذا ضمت مصر الى حوزة المغول • وقد ورد فى هذا المنشور بعض عبارات تشـــير الى أن سلاطين مصر وحكامها قد حادوا عن جادة العـــدل والانصاف حتى اضطربت أحوال البلاد فى عهدهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل المغول الى الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه • ونورد بعض ماجاء بذلك المنشور : « بقوة الله تعالى واقبال دولة السلطان محمود غازان ، ليعلم أمراء الطومان والالوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا • أن الله لما نور قلوبنا بنور الاسلام وهدانا الى ملة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربـه ••••• فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضـــلال مبين • وما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لامورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحـــدهم اذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد • وشاع عن شعارهم الحيف على الرعية ، والتخطى عن جادة العدل والانصاف •••••• حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية ، على أن توجهنا الى تلك البلاد لازالة هذا العدوان ، واماطة هذا الطغيان مستصحبين الجم الغفير من العساكر • ونذرنا عن أنفسنا ان وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والاحسان فى كافة العبـاد ، ممتثلا للأمر الالهى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(١٧)•

وعلى هذا النحو من الترغيب والترهيب دخل المغول دمشق ، واستولوا على بلاد سورية وفلسطين ودخلوا بيت المقدس وغزة • وكانت العهود التى تضمنها المنشور الذى أصدره السلطان محمود غازان خان يؤمن فيه الاهالى لم يكن الا سرابا وخدعة ، فما أن نزل السلطان بظاهر دمشق حتى عاثت

---

(١٧) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٤٠ ــ ٦٤٤ •

جنده فسادا فى كافة البلاد ، واشتطوا فى أعمال النهب والتخريب وبخاصة فى بيت المقدس والكرك • كما تعرضوا لأنفس الآثار فخربوا بعضها وأحرقوا بعضها الآخر ، ولم ينج من أيديهم الا قلعة دمشق المنيعة التى اعتصم بها واليها ، وحال دون استيلاء المغيرين عليها •

ولما وقف حاكم القلعة المملوكى « أرجواش المنصورى » فى وجه المغول وتأكدوا أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، فوض السلطان محمود غازان خان الامير تبيجق وبعض الامراء المماليك الذين التجأوا بغازان للتفاوض فى استلام القلعة ، فأبى حاكمها ، وحدث حوار عنيف بين الوفد المملوكى الممثل لغازان وأرجواش المنصورى ، قالوا له : « دم المسلمين فى عنقك ان لم تسلمها فأجابهم على ذلك بقوله : « دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم الى غازان وحسنتم اليه المجىء الى دمشق وغيرها • ثم وبخهم وامتنع عن تسليمهم القلعة ، وظل متحصنا بها »(١٨) •

ومع ما اقترفه المغول من عبث ونهب فقد كان يقل بكثير عما فعله أجدادهم عندما أغاروا على بلاد الشام ، بل لم نسمع أنهم آذوا الاهالى المسلمين ، ولم يقوموا بدك المدن وذبح الاهالى كعهد الناس بهم • وهذا فى حد ذاته يدل على أن الاسلام قد هذب نفوسهم ، وأن اقامتهم فى البلاد الايرانية قد صقلت حياتهم وحولتهم من البربرية المتوحشة الى أناس مستأنسين ، وأن ما فعلوه فى بيت المقدس يدل على تعصبهم للاسلام ليس أكثر(١٩) •

عودة غازان خان الى ايران :

واضطر السلطان محمود غازان خان الى العودة الى ايران فترك دمشق فى ٩ جمادى الاولى سنة ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) بعد أن علم أن مغول التركستان الجغتائيين هجموا على حدود بلاده الشرقية من ناحية خراسان ، وعاثوا فى شرقى المملكة الايلخانية الفساد والدمار منتهزين فرصة تواجد

---

(١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٢٥ •
(١٩) ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ٤٠٣ ـ ٤١١ •

السلطان غازان خان ومعظم جيشه فى سورية وخلو البلاد من جنود يدافعون عنها ، فقام بمحاربتهم وتمكن من السيطرة على الموقف وطرد المعتــدين من بلاده ، ففروا لا يلوون على شىء ، ولم يكتف بذلك بـــل تعقبهم فى ديارهم وبـــدد جموعهم ٠

هزيمـــة المغول وطـــردهم من سوريـــة :

وقعت سورية برمتها فى قبضة المغول ، الذين استبدلوا الادارة المملوكية بادارة مغولية تتبع الايلخان الجالس على العرش المغولى فى تبريز ، وخلف السلطان محمود غازان خان نائبه « قتلغ شاه » لادارتها ومعه ستون ألفــا من جند المغول ٠ وقبل أن يغادر غازان خان دمشق فى طريق عودته الى تبريز ، كتب الى سيف الدين قبجق عهدا بنيابة الشام ، وقال فيه : « ٠٠٠ فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن فيهـــا من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعـــالى ونصرة الدين وبادرنا لانقاذ من فيهـــا من المسلمين ، وراسلناهم وأنذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم ، فلم تنفع فيهم العظـــة ، وأيقظناهم فلم يكن عندهم يقظـــة ، فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم وملكنا الله تعـــالى أرضهم وديارهم وتبعناهم الى الرمل ، وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل ، ولم ينج منهم الا الفريد ولا سلم الا البريد، فلما استقر تملكنا للبلاد وجب علينا حسن النظـــر فى العباد ، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأمعنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور ، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما انآد من قوامها القديم ٠٠٠ فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى المؤيدى الكفيلى المشيرى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفى ملك الأمراء فى العالمين ظهر الملوك والسلاطين قبجق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة ٠٠٠٠ فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة ٠٠٠٠٠ »(٢٠) ٠

انفرد قبجق بحكومة دمشق ، وكان قتلغ شاه قد لحق بغازان خان بعد عشرة أيام من رحيل الايلخان ، فغدر قبجق بالمغول وقتلهم وتتبعهم حتى

(٢٠) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٤١ ـ ٦٥٠ ٠

طهر البلاد منهم ، وأبلغ قبچق السلطان الناصر نبأ خروج غازان خان وقتلغ شاه من دمشق وعودة سورية الى حوزة المماليك(٢١) ٠

ان أحداث سورية واحتلال المغول لها وطردهم منها ترينا ما كانت عليه أحوال كل من مصر وايران من اضطراب ، ففى مصر كان الخلاف بين الامراء ، وهم الذين شجعوا غازان خان على مهاجمتهم بعد أن أطلعه المنشقون منهم على نواحى الضعف وثغرات الوهن والخلل فى الدولة المملوكية ٠ كذلك كان على غازان خان أن يتوجه الى خراسان لدفع غارات المغول التورانيين (الچغتائيين) الذين هاجموا البلاد الايرانية من الناحية الشرقية ، وعاثوا فى مدنها وقراها وحضرها ومدرها الفساد والدمار ٠ كذلك كان انشقاق الامير سيف الدين قبچق نائب السلطان الناصر محمد بالشام وخيانته أولا وعودته ثانيالخيانة سيده الجديد غازان خان من أسباب اضطراب الأمور ٠

ومع ذلك فقد رحب السلطان المملوكى الناصر محمد برجوع الامير المنشق سيف الدين قبچق الى حظيرة المماليك مرة أخرى بعد أن خانهم وانضم الى عدوهم ، ليكون سندا له ضد المغول ألد أعدائه فى ذلك الوقت ٠ أما الامير سيف الدين قبچق وتصرفاته الشاذة التى أودت بانسلاخ الشام عن مصر وهزيمة الجيش المملوكى وتدميره ، فانه من المرجح أنه قد أفاق لنفسه ، وأيقن أنه الخاسر لا محالة ، خاصة بعد أن وصلته أخبار عن الاستعدادات الحربية الهائلة التى كان يقوم بها السلطان الناصر محمد ، وتوقعه انتصار المماليك على المغول ٠ فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية التى أدت بالامير سيف الدين قبچق الى ترك المغول وانقلابه عليهم وعودته الى حظيرة المماليك مرة أخرى ٠

ووجد السلطان محمود غازان خان نفسه فى موقف حرج للغاية ، وكان عليه استعادة سورية من أيديهم حتى يعيد للدولة الايلخانية هيبتها واحترامها ٠ فجهز جيشا سار به عبر الفرات واتجه الى انطاكية ، وكان ذلك فى شتاء عام ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) غير أن قسوة البرودة حملته

---

(٢١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص٩٤٦ ـ ٩٤٩ ٠

على عدم مواصلة الزحف نحو الشام ، فرجع أدراجه بعد أن هاجم انطاكية وجبل السماق وقام جنوده بنهب الاموال والفتك بالاهالى ٠ كما قام بأسر عدد وغير من الرجال حتى بيع الواحـــد منهم بعشرة دراهم ، ولكن حالت البرودة الشديدة والامطار الغزيرة والثلوج الكثيفة دون دخول المغول دمشق٠ وكان غازان خان يأمل أن تساعده الدول الاوروبية فى انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل الى ملكى انجلترا وفرنسا عدة سفارات يطلب العون ضد المماليك فلم يلق طلبه قبولا(٢٢) ٠

ولمـا يئس السلطان محمود غازان خان من مناصرة ملوك أوروبا له ، عول على مهادنة المماليك فأرسل فى شهر رمضان سنة ٧٠٠ هجرية (مايـــو سنة ١٣٠١ م) سفارة الى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كان على رأسها كل من « خواجه ناصر الدين على وجمـال الدين موسى بين يوسف القاضى يحملان رسالة يعيبه فيها لهجومه على أطراف بلادم دون سبب ، وعرض مهادنته ثم توعده بالانتقام اذا لم يكف عن عدوانه أو اذا وصـــل الى مسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ٠ وختمها مناشدته باسم الدين ان يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب والدمار ، وما يحـــل بالبلاد من البلاء ٠ كما أخبره فى نفس الرسالة أن المغول قد عولوا على جمـــع الجيوش وشحذ الهمم وصنع المجانيق وآلات الحصار والمسير الى بلاده ان لم يمتثل الى المهادنة والسلام ، وطلب من الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يعـد له الهدايا والتحف ، وختمها غازان خان بقوله : « قـد عـذر من أنـذر وأنصف من أنـذر » ٠

ومع أن رسالة السلطان محمود غازان خان تحمل معنى المهادنة،الا أنها كانت تتضمن فى طياتها فى الوقت نفســه التهديد والوعيد ٠ وكان أسلوب الرسالة حاسما ، وكأنها صادرة من حاكم الى من هو دونه قوة وقـــدرة ، كما انها شملت بعض الآيات القرآنية والمواعظ والحكم الاسلامية ، بجانب عبارات التهديد والوعيد ٠ قال غازان خان فى رسالته : « ٠٠٠ وهانحن الآن

---

(٢٢) Muir; The Memluke or Salve Dynasty of Egypt, P. 56 - 57.

مهتمون بجمـــع العساكر المنصورة ، ومشحذون غـرار عزائمنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الانذار وما كنـا معذبين حتى نبعث رسولا » • وقد سيرنا حاملى هذا الكتاب ••••• وقـد حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا به اليهما ، فانهمـا من الأعيان المعتمد عليهما فى الديوان ، كما قال الله تعالى « فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين » • فلتعدوا لنا الهدايا والتحف فما بعد الانذار من عـــاذر ••••• »(٢٣) •

ورد الملك الناصر محمد على تلك الرسالة برسالة أطول منها ، يفند فيهـا أقوال غازان خان ، ويبرهن بالادلة على أن المغول هم الذين بـــدأوا بالشر وبادروا الى العدوان • ورفض السلطان المملوكى ما طلبـــه غازان خان من الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بارسالها اليـــه ، ووعده بأنه سوف يردها مضاعفة كى لا يقوم ذلك دليلا على خذلانه • كما عاب على غازان خان آباءه وأجداده الوثنيين ، وذكره بما فعلوه بالمسلمين • ثم أكد الناصر محمـد بن قلاوون لغازان خان أنه على أتم الاستعـداد لقبول مصـــادقته اذا خفف من غلوائه وصرف الكفار الذين اتخذهم بطانة له • وأعاد الناصر محمد الرسولين يحملان رغبته فى الصلح وميله الى المصافاة ، والعمل على مايعود على البلدين بالخير ، وأبلغهما أنه اذا تم ذلك فانه سوف يجنح الى السلم ، ويصـــبح الفريقان على حد قوله سبحانه وتعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا » •

وكانت رسالة الناصر محمد بن قلاوون أكثر قوة وأشد ايلاما حتى أنها أوغرت صدر غازان خان الذى لم يجـد بدا من مواصلة الصراع الدموى مع المماليك، فأخذ يعد عدته ، وفى الوقت الذى عمل المماليك على جمع صفوفهم وتقوية مركزهم لصد أى اعتداء جديد من جانب المغول •

موقعـــة مرج الصـــــفر :

لم تؤت المراسلات المتبادلة بين الايلخان المغولى والســلطان المملوكى ثمرتها المرجوة ، واستعد الفريقان للقتال ، واستؤنفت الحرب من جـــديد

(٢٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٦٩ ــ ٧١ •

بعد عام واحد من مغادرة الوفد المغولى القاهرة ، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على ضفاف نهر الفرات ، ثم تقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له « الكوم » بالقرب من عرض سنة ٧٠٢ هجرية ، حيث اشتبك الفريقان ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين ٠ وقاد جيوش المغـــول « قتلغ شاه » فى مائة ألف من المغول وأعوانهم من الكرج والارمن ٠ بينمـــا عبر السلطان محمود غازان بنفسه نهر الفرات وزار كربلاء التى كان يقدسها بسبب ميوله الشيعية ووزع الهدايا والعطايا وهو فى ضريح الامام الحسين ، ثم تقدم الى عانه ٠ وبعد أن اطمأن الى جيشه عاد أدراجه الى أردبيل وأقام هناك ينتظر النتيجة التى جاءته مخيبة لآماله ٠

وفى الجهة المقابلة خرج الملك الناصر محمد من مصر سنة ٧٠٢ هجرية (١٣٠٢ م) على رأس جيش كبير لملاقاة المغول فى بلاد الشام ٠ وقد سبق رحيله الى أرض المعركة ببـــلاد الشام ، اجتماعه بالامراء وقادة الجنـــد وتشاوروا فى الخروج لصد المغول وتعاهدوا على القتال ، وقد بلغ الحمـاس من الجند أشده ، كما صحب الخليفة العباسى فى القاهرة جيش المماليك ، ورافقه من الامراء الكبار كل من الامير سالار والامير بيبرس الجوشن كير ، وكان الاخير قائد الجيش المملوكى ومن أعظم أمراء مصر فى ذلك الوقت ٠ وفى دمشق استعد الجند للقتال واضطر الاهالى الى الجلاء عن المدينة ٠ ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى التقى نواب الشام بالسلطان فى ضواحى دمشق ، ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بمرج الصفر وأخـــذ السلطان والخليفة المستكفى بالله العباسى يحثان الجنود على القتال ، ودارت بينهم وبين جيش المغول بقيادة قتلغ شاه عدة معارك انتهى الامر فيها بأن أوقـع المماليك الهزيمة بالمغول ، وفــر قتلغ شاه مع فلول جيشه ، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر فى الصحراء من شدة الجوع والعطش ٠ ويصف المقريزى قتال الناصر محمد للمغول فى الشام بقوله : « ٠٠٠٠ مشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن ، ويحثون على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة ، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : يا مجاهـــدون ! لا تنظرون لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليـــه وسـلم

والناس فى بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه الى الارض ، وتواصى بيبرس وسالار على الثبات فى الجهاد ، وعاد السلطان الى موقفه ، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفا واحدا ، وقيل لهم : من خرج عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه »(٢٤) ٠

وفى الثانى من شهر رمضان سنة ٧٠٢ هجرية (مارس ١٣٠٢ م) تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص ، وانقض المصريون على المغول ، وكان تعدادهم قرابة سبعين ألف مقاتل ، وهزموهم هزيمة نكراء ، وهلك معظم جيش المغول ، ومن لم يمت بالسيف مات من شدة الظمأ ٠ وفر قائد المغول قتلغ شاه شرقا الى الفرات وتبعته فلول جيشه الذين نجوا من الهلاك المحقق ، فغرق بعضهم فى نهر الفرات ومات آخرون فى الصحراء ، وأسر المماليك عشرة آلاف من المغول ، كما غنموا أسلحة ومؤنا لا حصر لها ، ومن ضمن ما غنموه عشرون ألف رأس من الماشية(٢٥) ٠

أما فيما يتعلق بالمغول ، فانه لما وصل خبر هزيمتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، كما حنق غازان خان على ما حل بجنده من النكبات ، وزاد غضبه حين وصل اليه كتاب من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يحقر فيه من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعده بأنه سيأتى اليه بجيوشه ليقصيه عن تلك البلاد ٠

وكانت نتائج المعركة حاسمة حيث ظهر التفوق العسكرى للمماليك المصريين ، كما عرف المغول انهم لن يستطيعوا منازلة المصريين ٠ أما غازان خان فانه لم تقم له بعد تلك الموقعة قائمة ، فقد أصيب بحالة من الاضطراب والوجوم عندما بلغه خبر الهزيمة ، واستدعى على الفور مجلس الامراء ــ وكان أشبه ما يكون بالقوريلتاى فى العهد الوثنى ــ لمحاكمة قادة الجيش المنهزمين، فحكم المجلس على قائدين منهم بالاعدام ، أما قتلغ شاه والامير جوبان فانهما ضربا ضربا مبرحا ، وعدهم غازان خان مسئولين عن النكبة ٠ كما قام غازان

---

(٢٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٩٣٣ ٠ وأيضا أبو الفداء فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ، ص ٤٨ ٠

(٢٥) أبو الفداء : كتاب المختصر ، جـ ٤ ، ص ٩٣٣ ٠

خان باتخاذ اجراء غريب ليس له مثيل فى التاريخ ، ذلك أنه ضرب خيمة كبيرة وأحضر كل قادة الجيش الذين اشتركوا فى القتال ، وأهداهم هدايا قيمة تشمل ذهبا وفضة وجواهر ، حتى قيل أنه خلال خمسة عشر يوما وزع ثلاثمائة تومان ذهبا (ما يعادل ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترليندية الذهبية) وعشرين ألف خلعة موشاة وخمسين حزاما مرصعا وثلاثمائة حزام ذهبى وأسلحة نفيسة وأشياء أخرى تفوق الوصف(٢٦) ٠

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فانه عاد الى القاهرة فى موكب حافل ، وكان أهلها قد استعدوا لاستقباله ٠ وعندما دخل القاهرة من السلطان بين جموع غفيرة استقبلته بالبشر والسرور يحوطه حراسه وكبار رجال دولته ، يتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والاغلال ، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر ، وحمل ألف رأس من رؤوس قتلاهم على أسنة الرماح تعلوها طبول الحرب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة(٢٧) ٠

وفاة غازان خان :

لقد كانت الهزيمة التى منى بها المغول فى موقعة « مرج الصفر » قاسية على السلطان محمود غازان خان ٠ ويتضح من تصرفاته بعد المعركة أن صحته قد ضعفت واعتلت بسبب تلك الكارثة التى حلت بجيوشه وأودت بسمعته ، واشتد الضيق به حين علم بمؤامرة ترمى الى خلعه وتولية الامير « ألافرنك ابن كيخاتو » عرش المغول فى ايران ، فلم يعمر كثيرا ومات كمدا وهو فى عنفوان شبابه ولم يكمل الثانية والثلاثين ، وذلك فى ١١ شوال سنة ٧٠٣ هجرية (١٧ مايو سنة ١٣٠٤ م) قرب قزوين ، وأوصى بأن ينقل جسده الى المدفن الذى أعده فى « شنب غازان » فى تبريز بعد أن ظل فى الحكم الايلخانى تسع سنوات ٠

أخلاق غازان خان وسلوكه :

يعد غازان خان أحد سلاطين المغول المشهورين ، فلا غرو أن حزن

---

(٢٦) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥١٣ ٠

(٢٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٣٧ ـ ٩٣٨ ٠

المسلمون من الايرانيين لموت غازان خان حزنا عميقا ، أنه أعاد للاسلام قوته ومكانته التى كان يتبوأها فى بلادهم قبل غـزوات جنكيز خان ، وكذلك حزن عليه المسلمون من المغول والذين خلص اسلامهم لأنه كبح جمـــاح الوثنية وقضى على الفوضى التى كانت منتشرة فى امبراطوريتهم ٠ وعلى الرغم من شدته وقسوته ، فقد كان رحيما اذا ما قورن بأسلافه ايلخانات المغول ، كما اشتهر بكراهيته لسفك الدماء الا اذا اعتبر ذلك أمرا ضروريا لاقرار الامن والسكينة فى ربوع دولته الواسعة ٠ كما عرف عنـــه أنه كان اداريا ممتازا ومصلحا اجتماعيا عظيما ، ذلك أنه أدخـل الكثير من ضروب الاصلاح فى الادارة المـالية وشجع النمو الاقتصادى فى امبراطوريته ٠ وكان الخراج يفرض حتى عهـــده وفقا لأهواء الحكام من المغول وعمـــالهم من الايرانيين ، فلما آل الحكم اليه ، أمر بأن تمسح الأراضى كلها من جـديد ، وأن تتخذ نتائج ذلك أساسا فى فرض الضريبة ٠ وأصدر قرارا أمر فيـــه أن يحاط الرعايا علما بكل ما يتصل بالضرائب عن طريق تعليق البيانات الوافية عند مداخل القرى أو فى المساجد وكنائس المسيحيين ومعابد اليهود وبيوت نار الزردشتيين ٠ وكذلك وصلت قراراته البـدو الرحل فى فلواتهم ومراعيهم بواسطة النقش على الخشب أو الحجارة أو المعـــدن أو الالـواح المكتوبة ٠ وشجع غازان خان أيضا السكنى فى المناطق البعيـــدة والمتطرفة والتى هجرها سكانها بسبب الاعصار المغولى والتى ظلت منـــذ ذلك الحين خربة خاوية على عروشها ، وأمر باسقاط الضرائب عن كاهـــل المستعمرين الجدد تشجيعا لهم على الاستمرار فى الاقامة وتعمير المناطق الخالية ٠

وكان غازان خان أول من خرج من ايلخانات فارس عن طاعة الخاقان فى پكين (خانبالیق) بعد أن تحول الى الاسلام ، حيث كان ايلخانات فارس الى عهد غازان مجرد عمـــال اقطاعيين تابعين للخاقان ٠ وانفرد غازان خان نفسه بالذكر والخطبة(٢٨) ، ويستفاد من النقود المضروبة فى عهد غازان خان أنه اتخذ لنفسه صفة الحاكم المستقل ٠ كما أدخل روحا جديدة من الثقة فى الميدان التجارى والاقتصادى بأن ألغى الاوراق المالية ذات القيمة التحكمية

---

(٢٨) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ ٠

الرجراجة ، والتى سبق لسلفه أن استحدثها على الطريقة الصينية ، وأحل محلها نقدا معدنيا صحيح الوزن والقيمة • وكان لهذه التدابير أثرها الواضح فى زيادة موارد الدولة الرسمية ، فارتفعت من ١٧٠٠ تومان الى ٢١٠٠ تومان، أى حوالى اثنى عشر مليون دولار(٢٩) •

ومن أعمال غازان خان القيمة والتى تستحق التسجيل أنه أعاد تنظيم القضاء فى ايران بعد أن عبث به العرف المغولى • وكان هذا العرف ساذجا غير محدود دائما ويصعب تطبيقه على شعب متحضر مثل الشعب الايرانى • ومع أن غازان خان يعد أول زعيم مغولى بعد جنكيز خان يحسن استخدام الياسا ، فانه حاول فى بداية حياته نشر الكثير من رسومها وآدابها على أنها تراث آبائه وأشداده ، الا أنه وجدها غير مستحسنة وتتعارض مع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فأعاد للشرع الاسلامى سلطانه وقوته ، وأنشأ محكمة عليا اسلامية • وذكر هيوارث أن غازان خان كان يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ، وأنه تشدد فى تنفيذ الشرع واختيار القضاة لتوفير أسباب السعادة والطمأنينة بين المتقاضين(٣٠) •

ومن أعماله الخالدة كذلك والتى تدل على حبه للفنون والتعمير قيامه بتجميل عاصمة مملكته تبريز بأبنية فخمة ، وأيقافه الأموال الضخمة على المساجد ودور العلم ، وتشييده مرصدا فلكيا ومدرسة للعلوم الدنيوية لما لها من الفائدة العملية • وكان غازان خان بطبيعته انسانا مثقفا ثقافة عالية ، فقد كان على معرفة كاملة باللغتين الفارسية والمغولية ، وعلى اطلاع وافر باللغتين العربية والصينية ، وعلىمعرفة واسعة بتاريخ المغول وأصولهم وفروعهم ، وفى الوقت نفسه كان يهتم بالكيمياء وله معمل فى قصره كان يقضى فيه أوقاتا طويلة بين أبحاثه المعملية • وفى عهد غازان خان انتهت اللغة الفارسية الى أن تكون الى جانب اللغة التركية لغة الديوان الرسمية وأيضا اللغة الدولية • ولم ينتصر غازان خان للغته المغولية لأنها كانت

---

(٢٩) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية (الترجمة العربية)، ص ٣٩٢ •

(٣٠) Howorth; History of the Mongols, Part III, P. 491.

تعوزها المرونة والطواعية ٠ ولم يكن ثمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بين المغول ، فأقبلوا على الفارسية وتراثها والاسلام وحضارته حتى أصبحوا قوة جديدة للاسلام والمسلمين ٠

وكانت علاقة السلطان محمود غازان خان بدول أوروبا المسيحية تدل على حنكة سياسية وبراعة دبلوماسية ، فحاول اتباع سياسة أسلافه فى ايجاد تحالف عسكرى مع الدول الأوروبية ضد المماليك ، فأجرى اتصالات مع الامبراطور البيزنطى « اندرينيكوس الثانى » ، وملك فرنسا « فيليب الرابع » ، وملك انجلترا « أدوارد الأول » وملك آراجون (جزء من دولةأسبانيا الحالية) « جيمس الثانى » ،وكانت بينه وبينهم مراسلات وبعثات ، الا أن جهوده فى هذا المضمار لم تأت بنتائج ايجابية لعاملين أساسيين : وهمـا اسلام مغول ايران وانشغال الدول الأوروبية بمشاكلها الخاصة وانصرافهم الى المخاصمات والعداوات وفتور الناحية الصليبية عندهم آخر الأمر٠

محمد خدابنـده أولجايتو (٧٠٣ ــ ٧١٦ هـ) :

خلف أولجايتو أخاه غازان خان على العرش بعـد وفاته تاركا الدولة الايلخانية وهى فى أوج عزها ومجدها ٠ وكان أخوه السلطان محمود غازان خان قد اختاره وليا لعهده أثناء حياته ، وأقطعه حكومة خراسان فعـاش فيها يدير شئونها ٠ ولم يكن أولجايتو فى العـاصمة تبريز عنـدما توفى غازان خان ، بل كان يدير احدى المعارك على تخوم الهند ٠ وعلى عادة مغول ايران فان الأمراء الايلخانيين انقسموا الى فريقين ، كل فريق اختار أميرا لتنصيبه ايلخانا ، فكانت جماعة على رأسها الأمير « مولاى » تحبذ اعتـلاء أولجايتو العرش ، والأخرى يتزعمها الأمير « هرقداق » تسعى لتنصيب الأمير « ألافرنك بن كيخاتو خان » ٠ وتمكن أولجايتو من الوصـول الى السلطة دون اراقة دماء ، ذلك أنه أرسل فى الخفاء جماعة استطاعت أن تغتال كل من ألافرنك وهرقـداق وأنجزت عملها فى هدوء وسرية كاملة(٣١) ٠ واعتـلى أولجايتو العرش الايلخانى فى مدينـة « أوجان » فى احتفـال رسمى فى ١٥ ذى الحجة سنة ٧٠٣ هجرية (٢١ يولية سنة ١٣٠٤ م) ، ولم يكن عمـره قد تجاوز الرابعة والعشرين ٠

---

(٣١) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ١٥٤ ٠

ويعد أولجايتو ثامن الحكام الايلخانيين فى ايران والعراق ، وهوثالث أبناء أرغون خان وأول حاكم مغولى يعتنق المذهب الشيعى ، وتسمى بمحمد ، واستبدل لقبه المغولى بلقب اسلامى فأصبح « خدابنده » (أى عبد الله) ، كما تلقب بغياث الدنيا والدين ، فعرف باسم « السلطان محمد خدابنده أولجايتو » • ونظرا لاعتناق أولجايتو المذهب الشيعى ومحاولته نشره فى مملكته ، فان العامة من الشعب الذين كانت غالبيتهم من أهل السنة ، أطلقوا عليه لقب « خربنده » (وكلمة خر بمعنى الحمار فى الفارسية) استهزاء منه واحتقارا لشأنه وتصرفاته وقد أورد شرف الدين خان البدليسى رواية أخرى تقول ان سبب تسمية هذا السلطان بلقب خربنده هو أنه بعد وفاة أبيه كان قد هرب خوفا من غازان خان الى نواحى شيراز وكرمان ، واختلط هناك بالخربندكية والمكارين (أى الحمارين والبغالين) ، وأمضى وقتا غير قليل معهم فى التردد على هرمز وما حولها ، فأطلق الناس عليه لقب « خربنده » (الحمار)(٣٢) • وعندما بدأ أولجايتو يزاول نشاطه فى الحكم ، كان أول قرار أصدره هو التزام كافة المغول باعتناق الدين الاسلامى الحنيف ، وأنه دين الدولة الرسمى • كما كان قراره الثانى هو الابقاء على « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى » فى منصب الوزارة ، ويعاونه فى عمله خواجه سعد الدين محمد الساوجى •

السلطان أولجايتو وانتصاره للمذهب الشيعى :

يجدر بنا الاشارة الى الأسلوب الذى أدى الى اعتناق أولجايتو بن أرغون الدين الاسلامى الحنيف وانتصاره لمذهب آل البيت • ولد أولجايتو ، شأنه شأن كافة المغول لا دين له ، وعادة ما يتلقفه رجال الدين من كافة الأديان والعقائد يحسنون له معتقدهم ويقبحون له الأديان الأخرى • أما أولجايتو فانه قد وقع تحت تأثير ديانة أمه « أروك خاتون » وكانت مسيحية نسطورية من أميرات قبيلة الكرايت ، فعمدته وأسمته « نيقولا » • ونظرا لتعلقه الشديد بأمه فانه استمر على ديانته المسيحية حتى وفاتها • ثم أسلم بعد ذلك وهو لايزال شابا فى مقتبل العمر نتيجة تأثير احدى زوجاته المسلمات

---

(٣٢) شرف الدين خان البدليسى : شرفنامه ، الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٢٠ •

التى رغبته فى اعتناق الدين الاسلامى • ولما كان المذهب الحنفى هو السائد فى خراسان فى ذلك الوقت ، فاعتنق أولجايتو الدين الاسلامى على مذهب الامام أبى حنيفة ، وقرب اليه رجال الدين الحنفية وفقاءهم ، وتعلم منهم أصول الدين وجزئياته ، وهو فخور بدينه الجديد مقتنع تمام الاقتناع بالرسالة المحمدية • ثم قدم تبريز عالم شافعى المذهب كان يعتبر أعلم أهل السنة فى زمانه هو الفقيه نظام الدين عبد الملك الشافعى • وما أن سمع السلطان بمقدمه حتى طلبه للاستفادة من علمه وفقهه، ورتب له مناظرات مع علماء المذهب الحنفى ، فكان يناظرهم فى حضرة السلطان فيفلجهم • ولما تحققت له الغلبة جذب هذا السلطان الى المذهب الشافعى وعدل عن المذهب الحنفى • ويذكر مؤلف كتاب « تاريخ الشيعة » أنه عدل برهة عن الدين الاسلامى ، وأن الذى أعاده بعد ردته أحد أمراء البلاط المقربين اليه ويدعى « طرمطاز » وكان شيعيا ، فأخذ يطلعه على محاسن مذهب آل البيت ويرغبه فيه ، فمال معه • وفى هذه الآونة ورد على السلطان السيد تاج الدين محمد الآوى الامامى مع جماعة من الشيعة ، فوقعت بينه وبين نظام الدين الشافعى مناظرات أدارها السلطان بنفسه • تلى ذلك توجه السلطان الى العراق وزيارته مرقد أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، فرأى ما تقوى به مذهب الامامية ، وعرض ما شاهده على أمرائه ، حرضه على اعتناق مذهب أهل البيت من كان منهم شيعيا •• فأظهر السلطان التشيع ، وأمر به الجند وأهل المملكة ، وأجرى فى جميع بلاده مراسم المذهب الامامى،وجعل السيد تاج‌الدين محمد الآوى نقيب الممالك(٣٣) •

وفى الخامس من صفر سنة ٧٠٩ (سنة ١٣٠١ م) أمر السلطان أولجايتو بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة « أبى بكر وعمر وعثمان » من الخطبة ، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت ، وأصدر الأوامر والفرامانات الى البلاد بذكر ونقش أسامى الأئمة الاثنى عشر فى الخطبة والسكة ، فكان اعتناقه للمذهب الشيعى وتعصبه الأعمى له نكبة كبيرة على مملكته ، ذلك أنه اتخذ آنئذ اجراءات شديدة مع أتباع المذهب السنى ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأغلبية فى البلاد ، وأخذ شبح الحرب الأهلية يخيم على الدولة ، وتعقدت

---

(٣٣) محمد حسين المظفرى : تاريخ الشيعة ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ •

الأمور بين الحكام والمحكومين · وعندما أدرك السلطان أولجايتو فى آخـــر أيامه ما حل بدولته من تفتت وسلبية نتيجة ذلك أعاد ذكر الخلفاء الأربعة الراشدين فى الخطبة ، ودون أسماءهم على السكة ·

سياسة أولجايتو الداخلية والخارجية :

اعتلى أولجايتو العرش المغولى والمملكة فى عزها ورخائها ، وسار على نهج أخيه غازان خان فى حسن معاملتـــه لرعاياه والنهوض بهم والوقوف بجانب الفقراء والمظلومين ومنع تعـــدى المغول على الأهالى · وكان من أهم الأحداث الداخلية أن أصدر أمرا فى ١٠ شوال سنة ٧١١ هجرية بقتـــل الوزير « خواجه سعد الدين محمد الساوجى » بعد اصطدامه بالوزير الأول خواجه رشيد الدين فضل الله الهمـــدانى ، واتهام الأخير له بالاستيلاء على مبالغ طائـــلة من أموال الدولة رغم ما كان يكنـــه السلطان لوزيره خواجه سعد الدين الساوجى من احترام وتقدير ، كما قتل جماعة من اتباعه الذين شاركوه فى تهمة الاستيلاء على أموال الدولة ، وكذلك المقربين اليه ، وأسند منصبه الى غريمه « تاج الدين على شاه جيلان التبريزى » الذى كان وراء اتهام الوزير خواجه ســـعد الدين محمـــد الساوجى · وبمقتله انفرد خواجه رشيد الدين فضل الله بالصدارة وادارة كافة أمور المملكة ·

أما علاقته بالدول الأجنبية ، فانه حافظ على الصلات الودية مع دول أوروبا المسيحية ، فأرسل السفراء الى « البابا كلمنت الخامس » و « ادوارد الثانى » ملك انجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا لعقد حلف مغولى مسيحى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر وانزال العقاب بالمماليك والقضاء عليهم · وقد بقى من تلك الكتب التى تشير الى هذا الموضوع كتابان أحدهمـــا من ادوارد الثـــانى بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٣٠٨ م(٣٤) · كما لا تزال بسجلات باريس رسالة السلطان محمد أولجايتو الى الملك فيليب الجميل التى يرجع تاريخها الى شهر مايو سنة ١٣٠٥ م ·

كذلك جرد السلطان محمد خدابنده أولجايتو حملة عسكرية توجهت الى آسيا الصغرى بناء على طلب الامبراطور البيزنطى « ميخائيل باليولوجوس

---

(٣٤) The Crusade in the Later Middle Ages, P. 233 - 259.
عـــزيز ســـوريال عطيـــة

Michael Palaeologos لمساعدته فى صراعه مع الدويلات التركية فى الاناضول والتخفيف عن جبهته ٠ ومع أن الجيش المغولى قد تمكن من اجبار الترك على تقسيم جيوشهم فى آسيا الصغرى والتخفيف من حدة الضغوط على الدولة البيزنطية ، فلم تؤثر الحملة المغولية فى سير الصراع التركى البيزنطى أو بمعنى أصح الصراع الاسلامى المسيحى فى آسيا الصغرى ٠

أما العلاقات المصرية المغولية فى عهد السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فانها تأثرت تأثرا كبيرا باعتناق الايلخان للمذهب الشيعى ٠ وقد حاول السلطان محمد خدابنده أولجايتو تخفيف حدة العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول فى بداية عهده ، فأوفد السفراء الى بلاط السلطان الملك الناصر محمد تؤكد حرصه على توثيق عرى الصداقة وتأكيد حسن نياته نحوه ، وخاطب سلطان المماليك فى احدى رسائله بالأخ وسأل اخماد الفتن وطلب الصلح حتى أنه قال فى آخر خطاب له : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، كما بعث اليه هدية فلبى السلطان طلبه وجهز هدية مع بعض الرسل(٣٥) ، وبادلة ودا بود ٠ على أن أولجايتو لم يكن مخلصا فى تودده للناصر محمد بن قلاوون خاصة بعد اعتناقه المذهب الشيعى ومحاولته فرضه على المسلمين وسبه للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، فاصطدم بالمماليك السنيين وطمع فى الاستيلاء على سورية ومصر(٣٦) ٠

وقد استأنف المغول فى عهد أولجايتو هجومهم على سورية فقاموا بحملة على بلاد الشام فى ١٨ صفر سنة ٧١٢ هجرية ، ويرجع السبب فى ذلك الى وقوف السلطان محمد خدابنده أولجايتو على حالة البلاد السورية من كل من قراسنقر والأغرم وهما من قادة الناصر محمد وكانا قد لجآ الى السلطان أولجايتو ورحب بهما ورتب لهما الرواتب السنية ٠ وكان السلطان الملك الناصر محمد قد اتهم قراسنقر باشتراكه مع لاجين فى قتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون وعول على الأخذ بثأره ٠ فما كان من قراسنقر الذى كان يتملكه الشعور بجريمته الا أن فر هو وأعوانه واتجهوا شرقا حتى وصلوا الى البلاد الايرانية ومثلوا بين يدى أولجايتو الذى استقبل كلا من قراسنقر

---

(٣٥) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٦ ٠
(٣٦) دكتور على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص١٦١٠

والأفرم على انفراد ، فحسن له قراسنقر السير الى بلاد الشام واحتلالها وهون عليه أمر فتحها ، أما الأفرم وان كان قد حسن له أيضا الاستيلاء على بلاد الشام فقد حذره من قوة السلطان وكثرة عساكره • وعندما اقتنع السلطان محمد خدابنده أولجايتو بذلك جرد حملته على الشام ، وسارت من تبريز لكنها توقفت عند اصطدامها بقلعة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ولم يتمكن من الاستيلاء عليها • وكانت قلعة الرحبة تعد أولى القلاع المملوكية على الحدود الشامية • وما أن فشل السلطان أولجايتو فى اخضاع قلعة الرحبة حتى عاد أدراجه فى السادس والعشرين من شهر رمضان من نفس العام يجر أذيال الفشل وخيبة الأمل • وقد كافأ أولجايتو الأميرين قراسنقر والأفرم على المعلومات التى أدليا بها عن حالة دولة المماليك بوظائف فى دولته ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة وأقطع همدان للأفرم(٣٧) •

وفاة السلطان محمد خدابنده أولجايتو :

وتوفى السلطان محمد خدابنده أولجايتو فى ٢٨ رمضان سنة ٧١٦ هجرية (١٦ ديسمبر سنة ١٣١٦ م) ولم يزد عمره على أربعين عاما ، نتيجة افراطه فى شرب الخمر وتفريطه فى صحته على ملذاته وشهواته ، فمرض مرضا شديدا أودى بحياته • وقد اتهم الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى بقتله بعد ذلك •

وكان أولجايتو رجلا اداريا ممتازا وسياسيا قديرا وقائدا عظيما ، ومع ذلك كان من البساطة بحيث يمكن خداعه وتوريطه فى أعمال تجر عليه غضب الشعب فى داخل مملكته كاجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعى ، واضطهاد مخالفيه فى المذهب اضطهادا شديدا وصل الى درجة الاعدام • أما فى الخارج فانه جرد حملة على بلاد الشام لا لشىء سوى قول بعض مخالفى سلطان مصر بسهولة الاستيلاء على سورية ، واغرائه بأن قوة المماليك قد ضعفت بسبب الاختلاف بين الأمراء المماليك فوافقهم على ذلك وأراد احراز نصر لم يتمكن منه آباءه وأجداده من قبل • وعلى كل فان السلطان محمد خدابنده أولجايتو يعتبر من الملوك الايلخانيين الممتازين الذين نهضوا بايران نهضة كبيرة ، فأحيا قوانين غازان خان التى نتج عنها

---

(٣٧) المقريزى : السلوك ، الجزء الثانى ـ القسم الأول ، ص ١١٥ •

أن زاد رخاء البلاد ٠ كما زاد فى نهضة ايران وازدهارها حسن ادارة الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى ٠ وكان أولجايتو حاكما حر الفكر يهتم بالعلم والأدب ٠ وعنى بمرصد المراغة الذى كان يشرف عليه منجم السلطان أصيل الدين بن نصير الدين الطوسى ، وناصر الحركة الأدبية والتاريخية التى قام بها كل من الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى وعبد الله بن فضل الله الشيرازى المعروف بوصاف الحضرة ٠ وكان يسعى لنشر العمران ، وهو الذى أتم مدينة سلطانية ، وجعلها حاضرة الملكه ، وذلك عندما رزقه الله بولده وخلفه أبى سعيد ٠ كما شيد مدينتين أخرتين ، احداهما تسمى « سلطان آباد چم چال » وكانت تقع أسفل جبل بيستون ، والأخرى مدينة « سلطان آباد أولجايتو » وكانت تقع على حافة نهر أرس(٣٨) ٠

أبو سعيد بهادرخان (٧١٦ ـ ٧٣٦ هـ) :

تولى السلطان أبو سعيد بن محمد خدابنده أولجايتو العرش الايلخانى خلفا لوالده ، وكان قد أوصى قبيل وفاته أن يخلفه على العرش ابنه أبوسعيد الذى كان لا يتجاوزالثانية عشر من عمره فى ذلك الحين ٠ وكان اختيار السلطان أولجايتو لابنه أبى سعيد يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا الجنكيزية التى كان المغول يطبقونها بدقة متناهية ، مما يدل على تركهم التقاليد المغولية وانصرافهم عن عاداتهم ورسومهم القديمة التى توارثوها عن أجدادهم ، واتباعهم أسلوب الحياة الايرانية والاسلامية عامة ٠

ولد أبو سعيد فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٧٠٤ هجرية ، وخصص والده الأمير « سونج » أحد كبار أمراء البلاط الايلخانى لتربيته وتنشئته نشأة اسلامية خالصة ٠ ثم عينه والده حاكما على خراسان وهو فى سن السابعة سنة ٧١٣ هجرية (١٣١٣ م) ، وقد توفى السلطان محمد خدابنده أولجايتو وابنه مقيم فى خراسان ، فصحبه كل من الأمير سونج والأمير چوبان الى العاصمة سلطانية ليشترك فى تشييع جثمان والده ، فنصبوه ايلخانا ٠ ولم يحتفل بجلوسه على العرش الا عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره وذلك فى شهر صفر سنة ٧١٧ هجرية (ابريل عام ١٣١٧ م) ٠

---

(٣٨) ميرخواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٤٧٦ـ٤٧٨ ٠

واشترك كل من الأمير سونج والأمير جوبان فى ادارة شئون المملكة الايلخانية باسم السلطان الشاب ، فاختص سونج بشئون البلاط وتربية السلطان ، أما الأمير جوبان فانه اختص بامرة الأمراء وقيادة الجيوش الايلخانية ، فأكسبه هذا المنصب نفوذا كبيرا لجمعه بين الادارة وشئون الجيش ، وعين أبناءه حكاما على الولايات الهامة فى المملكة الايلخانية حتى صارت بأيديهم شئون الدولة يديرونها بمعرفتهم ، وكان أهمهم على الاطلاق تيمور تاش بن جوبان الذى اختص بحكومة بلاد الروم ، فتغلغل النفوذ المغولى فى آسيا الصغرى حتى زاحم نفوذ اليونان والترك ، وأدار حكومتها بجد وصدق حتى أمن الناس على حياتهم وزاد فى رفاهيتهم ٠

الامير جوبان واستغلاله منصبه فى توطيد نفوذه :

عين السلطان أبو سعيد الأمير جوبان أميرا للأمراء سنة ٧١٧ هجرية (١٣١٧ م) ، واطلق يده فى شئون الحكم واصدار القوانين وتعيين الحكام ، وزوجه من أخته « دولندى » كما اتخذ جوبان من الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى مساعدا له فى تصريف شئون البلاد ، وتعاونا معا على النهوض بالشعب وتأمينه ضد الفقر والجوع ، ونشر الأمن والأمان حتى عادت البلاد الى سابق عهدها من الازدهار والتقدم ، وسيطرا على الحكم حتى لم يبق للسلطان أبى سعيد سوى الاسم فقط ٠ وكانت تلك الصداقة التى نشأت بين الأمير جوبان والوزير خواجه رشيد الدين فضل الله سببا فى حقد الوزير تاج الدين على شاه جيلان التبريزى ، الذى شغل منصب الوزير خواجه سعد الدين محمد الساوجى بعد قتله ٠ وبرغم أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن الوزير على شاه كان رجلا جاهلا محدود الذكاء ، واتهموه بالوصولية وسوء الادارة الا أنه دبر خطة تمكن بها من خلع خواجه رشيد الدين فضل الله الوزير الأول فى أواخر شهر رجب سنة ٧١٧ هجرية ، واتهمه بأنه قتل السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فقبض عليه وعذب تعذيبا شديدا وانتزعوا منه اعترافا بأنه أعطى السلطان أولجايتو دواء أودى بحياته ٠ فأمر أبو سعيد بقتل رشيد الدين ، ونفذ الحكم فى ١٧ جمادى الأول سنة ٧١٨ هجرية ٠ ومن المؤسف حقا أن قتلة رشيد الدين قاموا بذبح ابنه الشاب « عز الدين ابراهيم » أمام أبيه ، وكان فى سن السادسة عشرة من عمره ٠ ثم أقدموا على قتل الأب بشطره نصفين ، وكان عمره فى ذلك الحين

قد تجاوز الثالثة والسبعين . وعلى هذا النحو انتهت حياة أحد كبار الحكماء والأطباء والمؤرخين الايرانيين وأحد الشخصيات الاسلامية الفذة(٣٩) .

وبعد قتل خواجه رشيد الدين فضل الله على هذا النحو المفجع ، نهبت أمواله ، وقبض على أبنـــائه الاثنى عشر الذين كانوا فى خـــدمة الحكومة الايلخانية ، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر . كما أغار العامة بايعاز من الوزير تاج الدين على شاه على « ربع رشيدى » ، أحد أحياء تبريز الذىشيده خواجه رشيد الدين وأقام به وبنى به مؤسسات اجتماعية وتعليمية وخيرية كثيرة شملت مستشفى وصيدلية ومكتبة ومدرسة ومسجدا ودورا للأيتــام ومطابخ للفقراء والمحتاجين ، كذلك دفن فيه ، فأتوا على كل شىء وأصــبح خرابا ولم تقم له قائمة بعد ذلك . كما قتل رجال الحكومة جماعة من المقربين اليـــه وفصلوا كل من ثبت عليه تهمـــة صلته برشيد الدين . أما الوزير تاج الدين على شاه الذى كان سببا فى ذلك الفجيعة ، فانه مكث فى منصب الوزارة والصدارة بعد ذلك ست سنوات كاملة مؤيـــدا من كل من السلطان أبى سعيد وأمير الأمراء چوبان الى أن توفى فى ٢٦ جمادى الثانى سنة ٧٢٤ هجرية ، فأسند السلطان أبو سعيد الى أولاده المناصب العالية .

ولم يبد الأمير چوبان ، الذى اشتهر بالشجاعة وحسن قيادة الجيوش ، أى براعة وحنكة فى سياسة الحكم وادارة دفـــة أمور الدولة حتى أفلست الحكومة الايلخانية تماما ، وفشل الحكام فى سياسة الرعية ، وبدأت الفتن والاضطرابات تسود المملكة مما أدى الى الخراب وتوقف المؤسساتالحكومية عن العمل السليم الجاد . وقد ساعد على ذلك ما كان عليه الوزير تاج الدين على شاه من الجهل وسوء التصرف . حينئذ أدرك السلطان أبو سعيد قيمـــة ما كان عليه الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله ، فأصدر أوامره باســناد الصدارة الى ابنه خواجه غياث الدين محمد . ومن الغريب حقا أن الوزير

---

(٣٩) وبعد مائة عام من قتل الوزير المؤرخ رشيد الدين فضـــل الله الهمدانى ، اتهم باليهودية لأنه كان فى شبابه على صلة بيهود همدان ، فأمر ميران شاه بن تيمور حاكم آذربيجان ــ وكان معروفا عنه بالشطط والجنون ــ باخراج عظام رشيد الدين من قبره المـــدفون به فى المسجد الذى أقامه فى حى « ربع رشيدى » بتبريز ، ودفنها فى مقابر اليهود .

تاج الدين على شاه يعتبر الوزير الوحيد الذى مات ميتة طبيعية فى الدولة الايلخانيــــة ٠

وكان اضطراب الأحوال الداخلية فى الدولة الايلخانية فى عهد السلطان أبى سعيد سببا فى اغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الچغتائية فى التركستان والقبيلة الذهبية (آلتون أوردو) فى جنوب روسيا على أطــراف الدولة الايلخانية ، ومحاولاتهم المتكررة الاستيلاء على السلطة والعــرش الايلخانى ٠ ومن بين هؤلاء الأمراء « يسور الچغتائى » الذى استولى على خراسان وهزم أمراء السلطان أبى سعيد فيهــا ، وتقدم نحو مازندران فى محاولة للاستيلاء عليها ، فوقف أهلها فى وجهه وقاتلوه ٠ ونتج عن ذلك أن خربت مازندران وسفكت دماء أهلها ٠ وقد تصدى له اثنان من قادة الجيوش الايلخانية هما الأمير حسين الكوركانى والأمير كپك ، وكان بينهما وبــين « يسور الچغتائى » عــداء قديم ، وتمكنا من محاصرته وهزيمة جيشـــه وقتله آخر الأمر ٠ كذلك قام « أوزبـــك خان » ملك دولة صحراء القپچاق (دشت قپچاق) بالاغارة على أملاك الدولة الايلخانية ، ولكن الأمير چوبان تصدى له وتمكن من هزيمته والقضاء على فتنته ٠

وعلــى هــذا النحو تمكن الأمــير چوبان من القضاء على الطامعين فى الاستيلاء على السلطة والمناوئين للحكم ، مستغلين بذلك صغر سن السلطان ، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشاكلهم الخاصة ، وكثرة تغيير الوزراء وما يلاقونه آخر الأمر من قتل وتشرد للأهــل والأصدقاء ، فأحكم الأميرچوبان سيطرته على أجهزة الدولة ، وأيده فى ذلك السلطــان أبوسعيد نفسه الذى أطلق يده فى أمور المملكة كلها ٠ الا أن بعض الأمراء من داخل البلاط الايلخانى حاولوا الكيد للأمير چوبان والايقــاع به ، فطلبوا من السلطــان العفو عن أوزبك خان ، لكن الأمير چوبان رفض طلبهم واتهمهم بالاشتراك فى المؤامرات التى تدبر ضد الدولة ، فعــاداه هؤلاء وعملوا على التخلص منــه مبتــدئين بالتشهير به والنيل منه هو وأبناءه ، وحاولوا الايقاع بينه وبين السلطان أبىسعيد ، لكنه لم يوافقهم على ذلك وأيد چوبان وناصره فى حربه ضدهم ٠ وكان وراء تأييد السلطان أبىسعيد للأمير چوبان شخصيتان نسائيتان كان لهما دور فعال فى سياسة الدولة هما « ساتى بك » أخت أبى سعيــد ،

والتى تزوجها الأمير جوبان بعد وفاة أختها « دولندى » والأخرى زوجة أبى سعيد « قتلغ خاتون » ابنة الأمير « أيرنجين » أحد كبار الأمراء المغول ، وكانت تؤيد سياسة الأمير جوبان وتناصره ، فانضم أبوسعيد الى جانب جوبان فى صراعه مع مناوئيه ، واشتبكا معهم فى حرب فى ٤ جمادى الأولى سنة ٧٠٩ هجرية قرب بلدة «ميانه» وهزما المناوئين لهما ، الذين قادهم الأمير « ايرنجين » والد زوجة أبىسعيد هزيمة فاحشة رغم كثرتهم ، وقتل فى المعركة قادة الفتنة ومن بينهم الأمير ايرنجين · وفى تلك الحرب التى قادها أبوسعيد بنفسه أظهر السلطان براعة وحنكة فى قيادة الجيوش الايلخانية وتحريكها ووضع خطط المعركة ، وتمكن من الفتك بأعدائه الذين كادوا يهددون عرشه ، وأضيف الى اسمه بعد تلك المعركة لقب «بهادر خان » أى المقاتل الشجاع ، فعرف باسم « السلطان أبى سعيد بهادر خان » · كما أطلق المغول على الأمير جوبان لقب « الوالد والسيد » (آتا ــ آقا) تقديرا له على حسن خدماته التى أداها للدولة واعترافا بفضله فى اخماد الثورات والفتن · وزاد السلطان أبو سعيد من قدره فأطلق يده هو وأبناءه فى ادارة أمور المملكة ·

لقد دب الضعف فى الدولة الايلخانية نتيجة اختلاف الأمراء ونشوب الحروب الداخلية وسوء الادارة · وبرغم أن وزراء الدولة كانوا من الشخصيات المشهود لهم بالحنكة والكفاءة الا أنهم لم يتمكنوا من عمل شىء يؤدى الى احكام السيطرة على ولاياتها والنهوض بالشعب الايرانى والأخذ بيده وانتشاله من الفوضى والاضطرابات السائدة · لقد تولى الوزارة فى عهد أبى سعيد شخصيات ثلاث ، هم على التوالى : خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، ونصرت الدين عادل النسوى ودمشق خواجه بن الأمير جوبان · وعندما توفى السلطان أبو سعيد كانت الوزارة فى يد خواجه غياث الدين محمد الذى تولاها للمرة الثانية ·

نهاية الجوبانيين :

لقد رأينا كيف كانت ثقة السلطان أبى سعيد فى أمير الأمراء جوبان غير محدودة ، حتى أن مصير أحدهما ارتبط بمصير الآخر ، فقد تزوج الأمير جوبان بأخت السلطان أبى سعيد دولندى وعندما توفيت تزوج أختها الأخرى ساتى بك · وهذا فى حد ذاته قمة الصداقة والتعاون ، لكن الدولة الايلخانية

ابتليت فى عهـد أبى سعيد بالفتن والقلاقل ، فأتت على الأمراء الواحد بعـد الآخر ، ولم ينج من ذلك الا من كان ضعيف الرأى قليل الحيلة مداهنا منافقا . فلفحت الموجة السائدة الأمير چوبان فكانت نهايته سيئة للغاية وقضت عليه تماما ، ذلك أن السلطان أبا سعيد وجـد أن الأمور تسير من سىء الى أسوأ بسبب وجود الأمير چوبان أمير الأمراء واستبداده بالأمور هو وأبنائه ، وأن كثيرا من القلاقل كانت نتيجة تصرفاته ، فاستقر عـزمه على تحطيم سلطان الچوبانيين . ومما زاد الموضوع تعقيدا تدخل المسائل الشخصية فى القضاء على تلك الأسرة ، ذلك أنه كانت للأمير چوبان ابنة جميلة تدعى « بغـداد خاتون » وقع فى غرامها أبو سعيد ، وكانت متزوجة من الأمير شيخ حسن بن الأمير حسين الكوركانى الجلايرى(٤٠) ، ورغبها السلطان أبو سعيد لنفسه ، وهام بها حبا حتى جن بها وبغرامها ، الا أن الأمير چوبان منع أبا سعيد من الزواج بابنته التى كانت فى عصمة رجل آخر ، وأن اجراء مثل ذلك يخـالف الشرع الاسلامى . ورغم ذلك فان السلطان أبا سعيد عشقها وتغنى بجمالها وسحرها ونظم فيها أشعاراً غاية فى الرقة والعذوبة . ومن ناحية أخرى كان دمشق خواجه بن الأمير چوبان والوزير الأول على علاقة آثمة باحدى نسـاء أبى سعيد ، وعرف أمرهما السلطان فثار لشرفه وكرامته ، فكانت تلك الواقعة سببا فى غروب النفوذ الچوبانى ومقدمة لانقراض الأسرة بكاملها ، بدأهـا السلطان أبو سعيد بقتل دمشق خواجه بتهمة صلته بعدد من حريمه وتم اعدامه فى ٥ شوال سنة ٧٢٧ هجرية (٢٤ أغسطس سنة ١٣٢٧ م) .

وعندما فكر السلطان أبو سعيد فى القضاء على الأسرة الچوبانية ، كان قـد اتخـذ الحيطة والحذر ، واختار الأشخاص الذين يحلون محل الچوبانيين ، حيث كانت الدولة الايلخانية موزعة بينهم ، فكانت خراسان تحت حكم الأميرحسن بن چوبان ، وبلاد الروم فى يد تيمور تاش وبلاد الكرج فى يد محمود وكلهم أبناء چوبان . أما الأبورئيس العائلة فانه اختص بحكومة فارس وكرمان . ولما بلغ الأمير حسن كوچك نبأ مقتل أخيه دمشق خواجه الوزير الأول رغب فى

(٤٠) يعرف الأمير شيخ حسن فى التاريخ باسم « شيخ حسن بزرگ » أى الكبير وأيضا «الأمير شيخ حسن الايكانى» وكذلك «الأمير حسن الجلايرى».

الانتقام من أبى سعيد وجهز جيشا قاده بنفسه للاطاحة بالسلطان والقبض على قتلة أخيه ، لكن والده لم يقره على ذلك ، وأراد تسوية المشلكة سلميا للعلاقات القوية التى تربطه بأبىسعيد ، وقرر التوجه الى العاصمة « سلطانية » لكن أعداء الأسرة الچوبانية لم يرقهم ذلك ، وانتهزوا الفرصة للقضاء على نفوذ الأمير چوبان ، فأبلغوا السلطان أبا سعيد بما يدبره له الأمير حسن كوچك • فأصدر السلطان أمره بقتل الأمير چوبان ، فما كان منه الا أن هرب الى هراة ، والتجأ الى سلطانها الملك غياث الدين كرت • وتمكن أبو سعيد من القبض على معظم أفراد الأسرة الچوبانية المنتشرين فى كافة أنحاء المملكة الايلخانية ، وقتلهم جميعا •

وقف الأمير چوبان ينظر الى الأحداث بعين زائغة ، وقد تمكن منه أعداؤه وقتل السلطان أبناءه وأحفاده وأقاربه وكل من اتصل بهم بنسب أو مصاهرة أو عمل ومصلحة ، ومع ذلك حاول الأمير چوبان التفاوض مع السلطان أبى سعيد ، واعتمد فى هذه المرة على قوته وكثرة جنده ، فتقدم بجيشه حتى وصل مدينة الرى ، ولكن خاب ظنه وهجره معظم جنده ، ولم تنفعه شجاعته وفر موليا وجهه نحو هراة • وبذل السلطان أبو سعيد جهده لاغراء الملك غياث الدين كرت بقتل الأمير چوبان ، وقدم له الهدايا • فما كان من الملك غياث الدين كرت الا أن أقدم على قتل الأمير چوبان وابنه الشاب « الأمير چلاو خان » (وهو ابن أخت السلطان أبى سعيد) • وهكذا تصرف السلطان ملك غياث الدين كرت مع الأمير چوبان تصرفا غير شريف ، فغدر به وقتله فى سبيل وعود زائفة وهدايا زائلة • وعندما وصل خبر قتل الأمير چوبان الى مسامع السلطان أرسل قاضى القضاه الى الأمير شيخ حسن الكبير وأجبره على طلاق زوجته « بغداد خاتون » ، ففعل ذلك عن كره خشية أن يناله ما أصيب به چوبان وأسرته • وبعد أن قضت عدتها عقد عليها السلطان أبو سعيد •

أما تيمور تاش بن چوبان فانه هرب من بلاد الروم عندما بلغته أخبار مذابح الأسرة الچوبانية وفر الى مصر ، والتجأ الى سلطانها الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أحسن معاملته أول الأمر وأكرمه غاية الاكرام ، وأنزله منزلة تليق بمقامه ، على أن مؤامرات أعداء الأسرة الچوبانية ــ وكثير

منهم كان قد التجأ الى مصر فرارا من سطوة الأمير چوبان ـ والحاح السلطان أبى سعيد الذى طلب من السلطان المملوكى ابعاد تيمور تاش ٠ ونظـــرا للعلاقات الحسنة التى ربطت البلاط الايلخانى بنظام الحكم المملوكى ، وجـد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن بقاء تيمور تاش فى مصر مصدر ازعاج لـه ، فاستقر رأيه على القضاء عليه ، وغدر به وقتله فى ١٣ شوال ســـنة ٧٢٨ هجرية (٢١ أغسطس سنة ١٣٢٨ م) ٠

أبو سعيد وانفراده بالسلطة بعـد مقتل الچوبانيين :

وبعد أن قضى السلطان أبو سعيد على الأسرة الچوبانية أشرف بنفسه على كافة شئون المملكة ، وعمل على القضاء على كل قوة أو مصدر قوة يمكنها أن تطل برأسها ، وحصر جهده فى تتبع أبناء الأمير چوبان والمقربين اليـــه ، وشغل نفسه بذلك ٠ كما كان لزوجته « بغداد خاتون » دور كبير ونفوذ قوى فى سير دفة الأمور وتصريف سياسة المملكة الداخلية ٠ وترك لها أبوسعيد مطلق الحرية فى ذلك من فرط عشقه لها ، وكانت قد ملكت فؤاده وأصبح أسير هواها ، ومنحها لقب « خداوندكار » (أى سيدة العالم) ، وبسببها عـــزل السلطان ملك غياث الدين كرت ، لكن أبا سعيد لم يقتله ، وأعاده الى منصبه عندما وجـد أن ذلك فى صالحه ٠ ومع عشقه لزوجته بغـــداد خاتون ابنـــة الأمير چوبان ، الا أنه عمل على القضاء على نفوذ اخوتها مما كان له آخـــر الأمر أسوأ الأثر ، بل والقضاء على السلطان نفسه ٠

وحدثت فى أواخر عهد السلطان أبى سعيد فتنة قام بها جماعة من كبار أمراء البلاط الايلخانى بغرض الاطاحة بالوزير خواجه غياث الدين محمـــد الذى أعاده السلطان بعد مقتل دمشق خواجه ٠ وكان من زعماء تلك الفتنـــة « نارى طغاى » حاكم خراسان والأمير على پادشاه خال السلطان أبى سعيد وحاكم أردبيل ، والأمير طاش تيمور ، وواجه السلطان بنفسه جيوش أعدائه وتمكن بعد جهد من القضاء على ثورتهم والقبض على زعمائها ، وأعـدم كلا من نارى طغاى وطاش تيمور أما الأمير على پادشاه فانه أفلت من العقـــاب بفضل شفاعة أخته « حاجى خاتون » أم السلطان ٠

كذلك أغار أوزبك خان ملك دولة صـــحراء القبچاق للمرة الثانية على النواحى الشرقية من المملكة الايلخانية ، وعاث فيها فسادا ، وقتل كثيرا من

أهلها ، فأسرع اليه السلطان بنفسه ورافقه الوزير خواجه غياث الدين محمد ، لكن السلطان مرض فى مدينة « أران » بسبب شدة الحرارة ولم يمهله المرض كثيرا اذ توفى قرب شيروان فى ١٣ ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية (٣٠ نوفمبر سنة ١٣٣٥ م) ، ونقلوا جثمانه الى العاصمه « سلطانية » حيث دفن بها . وقد أجمع المؤرخون على أنه عندما كشف الأطباء على أبى سعيد أثناء مرضه وهو فى النزع الأخير اكتشفوا أنه قد دس له السم فى الطعام ، وأن موته كان نتيجة لذلك . وعرف فيما بعد أن الفاعل لتلك الجريمة هى بغداد خاتون . وكان الوازع على ذلك أن السلطان أبا سعيد كان قد تزوج من دلشاد خاتون ابنه دمشق خواجه سنة ٧٣٤ هجرية (١٣٣٤ م) ، وأن قلبه مال اليها ، بعد أن كان أبو سعيد أسير عشقها ، فلم تسترح لذلك . فحقدت على السلطان وقررت الانتقام منه ، وتذكرت أنه قاتل أبيها وأخوتها ومحطم فؤادها ، فانتهزت فرصة مرضه ووضعت السم فى غذائه وقضت عليه ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين . وكان عقاب بغداد خاتون أن أمر بخنقها « أرپاگاون » الذى خلف أبا سعيد فى السلطة وهى فى الحمام .

ويعتبر السلطان أبو سعيد آخر ملوك الأسرة المغولية الايلخانية العظام الذين حكموا فى ايران ، ذلك لأن أبا سعيد لم يعقب ولدا ، فلم يكن يمثل الأسرة والحالة هذه الا أمراء من بيت هولاكو ، ظلوا يتعاقبون على العرش الايلخانى حتى سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) . وكان أبو سعيد رجلا كريما وقائدا شجاعا محبا للأدب والفنون ، نشأ فى أحضان الاسلام والثقافة الفارسية ، فكان أقرب ما يكون بملك فارسى منه بمغولى . وقد نالت العلوم والفنون والآداب فى عهده حظا كبيرا من الاهتمام والانتشار ، فانتعش سوقها وراجت بضاعتها ، وساعد فى احياء تلك النهضة الوزير خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى . وكان أبو سعيد نفسه شاعرا وصاحب ذوق شعرى ، نظم غزليات وقطعات فى عشق بغداد خاتون وفراقها . وهذا بيت من احدى غزلياته :

بيا بمصر دلم تا دمشق جان بينى

که آرزوى دلم در هواى « بغداد » است

وترجمة البيت :

يا قلبى ! تعال الى مصر لترى دمشق الروح

فان غاية قلبى فى هوى بغداد

وكان أبو سعيد الى جانب شاعريته يحسن كتابة الخط الجميل ، ويعشق الموسيقى ، وكان فنانا أصيلا • أما عن حياته الدينية فكان أبو سعيد مسلما غير متعصب ، ولد مسلما وشب وترعرع فى بيئة اسلامية خالصة ، وتعلم الفقه الاسلامى وقرأ القرآن الكريم على يد علماء الدين ، ومن أفعاله فى التقريب بين المسلمين الغائه المذهب الشيعى الذى كان قد صيره والده مذهب الدولة الرسمى ، وعادت العملة تحمل من جديد أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة •

سياسة أبى سعيد الخارجية :

كانت سياسة السلطان أبى سعيد الخارجية تعتمد على حفظ علاقات الصداقة والود والسلام مع الدول الأخرى ، اسلامية ومسيحية ، والبعد عن الحرب وسفك الدماء • وقد نعلل ذلك بأن با سعيد ترك أمور الدولة فى بداية أمره فى يد غيره من الأمراء والوزراء ، الذين كانوا يعملون لتوطيد سلطانهم وانشغلوا بالقضاء على منافسيهم ومناوئيهم ، فعاش أبو سعيد فى جو كثرت فيه الفتن والثورات الداخلية • كما شاهد بنفسه ما عاناه الشعب الايرانى من جراء هجوم الغزاة المغول حكام دولة القبيلة الذهبية (آلتون أوردو) بجنوب روسيا والجغتائيين فى التركستان وأواسط آسيا • ولهذا فانه لم يكن يستطيع مناهضة المماليك حكام مصر اذا دخل معهم فى صراع مسلح لعدم استقرار الأمور فى بلاده •

أما علاقة أبى سعيد بالمماليك فانها لم تتحسن الا بعد فترة من جلوسه على العرش وانفراده بالحكم ، ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كان لا يزال يحمل العداوة والبغضاء للمغول الى حد كبير ويستقبل المنشقين من أمراء المغول ، ويذكر المقريزى أن الناصر محمد أرسل فى سنة ٧٢٠ هجرية ثلاثين رجلا من طائفة الحشاشين فى سورية الى فارس لاغتيال قراسنقر حاكم مراغه من قبل المغول • وعلى الرغم من فشل المؤامرة فانها

أخافت المغول الى حد كبير ، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الاسماعيلية حضروا لقتل السلطان أبى سعيد والأمير جوبان والوزير على بادشاه وقراسنقر وأمراءالمغول ، واحتجب السلطان أبو سعيد بخيمته خوفا على نفسه ، كما أنكر جوبان على مجد الدين اسماعيل السلامى الذى كان يقوم بالسفارة للسلطان الملك الناصر محمد هذه المؤامرة وهدده بالقتل(٤١) ٠

على أن الفريقين المتخاصمين المغولى والمملوكى سرعان ما جنحا للصلح، فرأى السلطان أبو سعيد أنه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ، كما كانت هناك دواع لتحسين العلاقات ، ذلك أنه نزل بآسيا الصغرى فى عامى ١٣١٨ و ١٣١٩ م قحط شديد ومجاعة مخيفة ، ثم تلى ذلك فى عام ١٣٢٠ م أعاصير مدمرة وزوابع مخربة ٠ وقد راع هذا أبا سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها الى انتشار الموبقات والاسراف فى شرب الخمر، حتى أن الحانات كانت فى كثير من الأحيان ملاصقة للمساجد ودور العلم ٠ ومن ثم أمر أبو سعيد باغلاق هذه الدور ، واتلاف الخمور ، ولم يسمح الا باقامة حانة واحدة للرحالة فى كل مركز ٠ ولعل هذا الاجراء كان من العوامل التى ساعدت على توطيد العلاقات بين أبى سعيد وبين الناصر محمد ٠فجنح الفريقان للسلم وطرحا ما كان بينهما من الاحن والاحقاد القديمة(٤٢) ٠ وكان سفراء البلاط المغولى يحملون الهدايا وأهمها الأقمشة الثمينة عندما يتوجهون للقاهرة(٤٣) ٠ وفى عام ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) أرسل أبو سعيد الى الناصر محمد يطلب الصلح والدخول فى علاقات مودة واخاء ونبذ الخصومة والعداوة٠ وكان يحمل هذا الخطاب القاضى نوروز ، فوافق هذا الطلب هوى فى نفس السلطان الناصر محمد ، وبعث مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدى يحمل كتابه الى أبى سعيد(٤٤) ٠

وما أن أصبح الجو ممهدا لعقد الصلح واحلال السلام حتى أرسل السلطان أبو سعيد سفيرا هو نصير الدين قاضى القضاة بتبريز على رأس وفد من أعيان الدولة الايلخانية ومعهم كتاب بشأن الصلح ، كان من شروطه:

---

(٤١) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ ٠
(٤٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ ٠
(٤٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ٠
(٤٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٩ ٠

١ ــ ألا تدخل الاسماعيلية بلادالمغول ٠

٢ ــ لا يرد أى فرد قدم من مصر الى بلاد المغول ٠

٣ ــ من يفد الى مصر من المغول ، لا يرد الى بلده الا برضاه ٠

٤ ــ ألا يعهد سلطان مصر الى العرب أو التركمان بالاغارة على بلاد المغـــول ٠

٥ ــ أن يكون الطريق بين دولة المغول فى فارس ودولة المماليك خاليا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين ٠

٦ ــ أن يسير المحمل كل عام من العراق الى الحجاز رافعا علم سلطان مصر مع علم السلطان أبى سعيد ٠

٧ ــ ألا يسعى سلطان مصر فى القبض على الأمير قراسنقر حـــاكم مراغــــه ٠

وقد جمع السلطان الملك الناصر محمد الأمراء وشاورهم فى هذا الصلح، فاتفق الرأى على امضائه ، وجهزت الهدايا لأبى سعيد ومن بينها خلعـــة أطلس وقباء تترى(٤٥) ٠

وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوئام بين المغول والمماليك محـــل الخصام ، وقدم رسول السلطان أبى سعيد يطلب من الناصر محمد تجهيز « السنجق السلطانى » ليسير مع المحمل الى بلاد الحجاز ، فأجيب الى طلبه وكتب لصاحب مكة باكرام حاج العراق ، كما منع السلطان الملك النـــاصر محمد على منع العرب من التعرض لهؤلاء الحجاج ، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الدعاء لسلطان مصر على منابر مكة(٤٦) ٠

كذلك ارتبط السلطان أبو سعيد بعلاقات تجارية مع أوروبا ، تلك التى بدأها والده فى أواخر عهده ، فمنح تجار البندقية امتيازات تجارية ٠واستمر السلطان أبو سعيد فى اعطاء تلك الامتيازات لتجار البندقية ، فراجت التجارة بشكل ظاهر فى عهده أكثر من ذى قبـــل ٠

---

(٤٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ ٠
(٤٦) المرجع السابق ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ ٠

الفصل التاسع

الايلخانات خلفاء السلطان أبى سعيد

كان موت السلطان أبى سعيد بهادر خان المفاجىء ، وهو فى طريقه لحرب أوزبك خان ملك دشت القپچاق ضربة كبيرة للدولة الايلخانية،خاصة وأن أبا سعيد توفى دون انجاب وريث للعرش ، فوقعت الامبراطورية الايلخانية فريسة لأعنف الاضطرابات مما عجل بنهايتها ودخولها فى دور الاحتضار . ومع ذلك فان الوزير خواجه غياث الدين محمد تمكن بحكمته وحزمه من تنفيذ وصية السلطان أبى سعيد ، كما عرف كيف يسوس النفوس الجامحة الطامعة فى الملك بحكمة هادئة جعلت الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا على وشك امتشاق الحسام ضد بعضهم البعض ، يطرحون أحقادهم جانبا ، ويتعاونون جميعا فى المحافظة على سلامة الدولة ورخائها .

وعندما اشتدالمرض بأبى سعيد وشعر بدنو أجله ، ذكر لوزيره خواجه غياث الدين محمد وهو على فراش الموت أن يخلفه على العرش الايلخانى الأمير « أرپاگاون » لأنه أصلح الأمراء لتولى هذا المنصب، فقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بتنفيذ الوصية ، فاستدعى أرپاگاون الذى كان يعمل مشرفا على الاصطبلات السلطانية ، وأبلغه بقرار تنصيبه فى نفس الليلة التى توفى فيها السلطان أبى سعيد .

أربا خان (٧٣٦ ـ ٧٣٦ هـ) :

واجه أرپاگاون صعوبات عديدة حتى تستتب له الأمور ، كان أهمها على الاطلاق أنه ليس من بيت هولاكو المؤسسين للدولة الايلخانية فى ايران والعراق ، وانما هو من حفدة « أريق بوقا » الأخ الاصغر لهولاكو ، وهو ابن سوسه (سفيان) بن سنگقان بن ملك تيمور بن أريق بوقا بن تولى خان ابن چنكيز خان . وقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بمجهودات مكثفة واتصالات عديدة مع أمراء المغول ونساء السلطان أبى سعيد ، وأميرات البيت

المـالك وأزواجهن وكبار رجال الدولة وقادة الجيش للحصول على موافقتهم على ترشيح أرپاگاون ، فوافقوا على ذلك ، وتم تنصيب أرپاگاون ايلخانا فى احتفال كبير حضره جميع الأمراء وأعيان المملكة حيث وضع التاج المرصع على رأسه وتسمى باسم « أرپا خان » ، و تلقب بمعز الدين والدنيا ٠ ولم يخالف تنصيب أرپا خان سوى بغداد خاتون التى أعلنت معارضتها توليه العرش ٠ ومع ذلك استمر الوزير خواجه غياث الدين محمد يكثف جهوده حتى تمت الاحتفالات دون معارضة تذكر ٠ ثم قام السلطان الجديد ومعه الأمراء وكبار رجال الدولة بتشييع جثمان السلطان الراحل أبى سعيد الى مثـــواه الأخير ٠ ووقف يتقبل العزاء ، كما فرق الصدقات على روح السلطان المتوفى٠

ولم يرض أرپا خان عن تصرفات بغداد خاتون ابنة چوبان ، وأكـبر خواتين السلطان أبى سعيد فقد استخفت به وبشخصيته على أساس أنــه لا يليق للسلطنة وغير جدير بها ، بل ولا تحق له لأنه ليس من أسرة هولاكو٠ وبدأت تحرض الأمراء الايلخانيين على أرپا خان وتحقر من شانه ، بل وصل بها الأمر أن كاتبت أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية ٠ ولم يقف أرپا خان مكتوف الأيدى أمام هذا التيار المناوىء ، وتلك الحملة التى رفعت لواءها بغداد خاتون ٠ وانتهز فرصة ثبوت تهمة قيامها بوضع السم لأبى سعيد والذى أثبته الأطباء الذين لازموه أثناء مرضه ، وقرروا ذلك ٠ ولما ضيق الخناق على بغداد خاتون اعترفت بجريمتها انتقاما منه لحبه « دلشاد ختون » ابنة « دمشق خواجه » حبا شديدا وهجره اياها ٠ وعرض أرپا خان موضوعها على الأمراء ، فقرروا التخلص منها ٠ وقام أحـــد الأمراء ويدعى خواجه لؤلؤ فى أواخر ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية بقتلها وهى فى الحمام ، وظلت جثتها أياما لا يقترب منها أحد كرها لها وتشفيا منها(١) ٠

وكان أول عمل قام به أرپا خان ، أن أكمل خطة سلفه أبى سعيد ، ونهج سياسته فى قتال أوزبك خان ، الذى وجد أمامه الفرصة سانحة بوفاة أبى سعيد وطمع فى مملكته ، وأعلن الحرب على أرپا خان ، وتقدم بجيوشه نحو الأطراف الشمالية ، وكانت من الكثرة بحيث يمكنها تدمير ايـران

---

(١) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ ٠

تماما ، فأسرع أرپا خان لملاقاته وحاربه وانتصر عليه • لكنه ما أن عاد الى سلطانيه عاصمة ملكه ، وقد تصور أن أمراء مغول ايـــران سوف يسعدون بانتصاره ، الا أنه وجد عكس ذلك تماما ، فقد وجد الأمراء الايلخانيين وقد انقلبوا عليه ، ولم يقدموا التهنئة له كايلخان لانتصاره على أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية ، والعدو التقليدى للدولة الايلخانية • ومع ذلك لم يبادلهم العداء ، بل أقبل على استرضائهم ، ومن بين ذلك زواجه من ساتى بك ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد ، والتى كانت فى يوم ما زوجة الأمير جوبان فى محاولة منه لاسترضاء بيت هولاكو ، وليضمن ولاءه له • لكن هذه الزيجة حركت الخلافات المستترة بين أفـــراد الأسرة الايلخانية ، فقامت عليه دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ابنة دمشق خواجه بن الأمير جوبان ، وأيدتهـا « حاجى خاتون » أم السلـــطان أبى سعيد ، وصرحتا بعدم اقتناعهما بسلطنة أرپا خان • كذلك وجد بعض الأمراء من بيت هولاكو الفرصة سانحة للدخول فى الخلافات التى نشبت بين أرپا خان ونساء أبى سعيد ، فانضموا اليهما ، وقوى حزبهم ، وغادرت دلشاد خاتون المعسكر السلطانى وتوجهت الى بغداد ، ولجأت الى الأمير على پادشاه خال السلطان أبى سعيد ، والذى كان غـــير راض عن تنصيب أرپا خان العرش الايلخانى • وانتهزت الجماعة المعادية للايلخان الجديد فرصة حمل دلشاد خاتون أرملة أبى سعيد ، وأعلنت أنه فى حالة انجابها ذكرا ، فانـــه سيعين سلطانا خلفا لأبيه ولاشعار أرپا خان بأنهم غير راضين عن سلطنته •

تصاعد النزاع بين أرپا خان والأمراء الايلخانيين :

تزعم الأمير على پادشاه ، خال السلطان أبى سعيد وحاكم بغـــداد ، الحركة المناوئة لأرپاخان واتصل بأمراء الأويرات وبعض أمـراء العـــرب للانضمام الى حركته ، وسرعان ما انضم اليه عدد كبير من أمراء وأميرات بيت هولاكو • واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بايدوخان ايلخانا ، وأجلسوه على العرش الايلخانى ، وتلقب بموسى خان • وتلا ذلك قيام على پادشاه بمراسلة أمراء الجيش وكبار جال الدولة للانضمام الى حركته وتأييد موسى خان • وفى الوقت نفسه كان يستعد لحرب أرپا خان والاطاحة بـــه •

وجد أرپا خان نفسه مضطرا لمواجهة الموقف بعد أن يئس من مصالحة

مناوئيه ، وجيش الجيوش لحرب موسى خان وعلى پادشاه · وما أن عـام بتحرك جيش على پادشاه وبصحبته الايلخان الجديد موسى خان حتى أسرع لملاقاته ، وتقابل الفريقان قرب شاطىء نهر « جغاتو » عنـد مراغه وجعل أرپا خان نفسه على قلب الجيش ، ووقف فى صفوفه كأى جنـدى عادى ، كما قاد الوزير خواجه غياث الدين محمد الميسرة · ورأى الأمير على پادشاه أن جيش أرپا خان يفوق جيشه عددا وعـدة فأعمل الحيلة والمكر للايقاع بعدوه · فأرسل شخصين من رجـاله الى الوزير خواجه غيـاث الدين محمد أخبراه بهزيمة الايلخان ، وفى الوقت نفسه أرسل رسـولين الى أرپا خان ، وأبلغاه هزيمةوزيره خواجه غياث الدين محمد ، وفعلت هذه الأخبار فى نفس الايلخان ووزيره فعلها ، ودخل اليأس والخوف قلبيهمـا ، كذلك تفرقت الجنود بعد أن علموا بأخبار الهزيمة ، واضطربت صفوفهم · وما أن تأكد الأمير على پادشـاه قائـد جيوش موسى خان بنجاح خطته ، حتى حمل على من بقى من جنـد فى أرض المعـركة · وفى ١٧ رمضان سنة ٧٣٦ هجرية قبض على أرپا خان بعـد هزيمته ، أما الوزير خواجـه غيـاث الدين محمد فانه هرب مع أخيه « پير سلطان » بعد أن علما بحقيقة الأمر ، وما وقعا فيه من خطأ وتأكدا من القاء القبض على الايلخان أرپا خان فانسحبا الى مراغه ، فتبعهما بعض الجنود وقبضوا عليهما فى موضع يقال له « سه گنبدان » بجهة مراغه وأحضروهما أمام الأمير على پادشاه الذى استقبلهمـا بكل ترحاب وتكريم ·

وكان بين الأمير على پادشاه والوزير خواجه غياث الدين محمد عداوة دفينة ، لكنه كان يقدره كشخصية ممتازة سواء فى خلقه أو علمه أو ادارته · وكان الأمير على پادشاه يميل الى الابقاء على حياته ، بل انه بذل كل ما فى وسعه ليحفظ له حياته ، لكن تحت ضغط سائر الأمراء المغول الذين أصروا على اعـدامه ،لقى خواجه غياث الدين محمد الموت فى الحادى والعشرين من رمضان سنة ٧٣٦ هجرية · وبعد ثلاثة أيام قتل أخوه پير سلطان مع جماعة من الأمراء الذين كانوا فى جانب أرپا خان · ثم تلى ذلك مصـادرة أموال الوزير خواجه غياث الدين محمد وأموال أسرته وأقربائه وأتباعه ، كما قام أهالى تبريز بالاغارة على منازل أسرة غياث الدين ، وكان عددها يزيد على الألف ، واغاروا على ربع رشيدى ومنازل الوزراء ، واستولوا على ما بها من

جواهر ونقود وأقمشة وأمتعة وكتب نفيسة ، وباعوها بأثمان بخســـة لم تصل الى عشر قيمتها ٠

أما أرپا خان ، فان أمراء المغول تخلصوا منه حيث سلموه فى اليـوم الثالث من شوال من نفس السنة الى أسرة اينجو حكام شيراز ليقتصوا منه، حيث كان أرپا خان قد قتل الأمير شرف‌الدين محمود شاه اينجو ، فقتلوه(٢)٠ وحكم أرپا خان قرابة ستة أشهر ليس أكثر(٣) ٠

موسى خان (٧٣٦ ـ ٧٣٦ هـ) :

تولى موسى خان العرش الايلخانى بعد أرپا خان ، وقام أمراء المغول الذين ساعدوه وأيدوه بالاحتفال بتنصيبه ايلخانا ، حيث عقـدوا مؤتمرا فى مدينة « أوجان » أعلنوا فيه تنصيب موسى خان العرش الايلخانى ٠ وكافأ موسى خان قائد جيوشه الأمير على پادشاه فعينه أميرا للأمراء ونائبا للملك، وأطلق يده فى شئون الحكم والادارة ، وعين معه جمال الدين بن تاج الدين على شيروانى وزيرا ٠

ولم تستقر الأمور فى الدولة المغولية بتولية موسى خان العـــرش الايلخانى ، بل تصدعت أركان الدولة فى عهـــده ، ذلك أن كبار أمراء المغول كانوا يطمعون فى الوصول الى العرش ، وبدأ كل واحد منهم يهىء خططـــه للوثوب الى السلطة ، واتفقوا جميعا فى ذلك واستهانوا بموسى خان ، ولم يقبلوه فى قرارة نفوسهم ، كما لم يقبلوا الأمير على پادشـــاه أميرا للأمراء ، ولا جمال الدين الشيروانى وزيرا ٠ وأخذوا يثيرون الفتن والاضطرابات فى كافة أنحاء المملكة حتى عمت الفوضى واختلت أمور الدولة ٠ وانتهز أمراء الأطراف الفرصة ، وزادوا النار لهيبا ، وعمل كل واحـــد منهم على اضعاف الحكومة المركزية والدخول فى المهـــاترات الدائرة بأى شكل من الأشكال ، فاستقلوا بما تحت أيديهم من ولايات أو مدن ٠ وقامت ثورات تطالب بتغيير الأوضاع كان من أهمها ثـورة الأمير الشيخ حسن بزرگ الايلكانى الذى كان يحكم بلاد الروم بآسيا الصغرى ، وأيضا ثورة حاجى طغاى حاكم ديار بكر

---

(٢) حافظ آبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدى ، ص ١٤٥ ـ ١٥١ ٠
(٣) ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٧ ٠

وأرمينية منذ عام ٧٣٢ هجرية وكان بينه وبين الأمير على پادشاه عـــداوة وثأر ، فأرسل الى الأمير شيخ حسن بزرگ يطلب منه اعداد قواته لمواجهة الموقف • وما أن اتحـــدت الثورتان ، ثورة شيخ حسن بزرگ وثورة حاجى طغاى ضـــد موسى خان ونائبه الأمير على پادشاه ، حتى سار شيخ حسن بزرگ قاصدا تبريز على رأس جيش من التركمان والعرب والايرانيـــين لمحاربة على پادشاه(٤) •

واختار الثوار أحد الأمراء من ســـلالة منگو تيمور بن هولاكو لمنصب الايلخانية ، كما اختاروا خواجه محمد زكريا سبط الوزير خواجه رشيدالدين فضل الله الهمدانى وزيرا •

نهـــاية موسى خان:

أسرع موسى خان لقتال أعدائه ، واصطفت فى أرض المعــركة جيوش الطرفين استعدادا للنزال والقتال ، ولكن حدث ما غير الوضع كلية ، ذلك أن زعماء المتصارعين اتفقواعلى ألا تتقابل جيوشهما ، ويكتفيا بصراع المطالبين بالملك على أن يعين من ينتصر منهما ايلخانا • وفعلا تقابل موسى خان مع محمد خان وتصارعا بالسيف تارة وبالأيدى تارة أخرى تبادلا خلالها اللكمات ، وأخيرا تمكن موسى خان من هزيمة خصمه محمد خان ، وطرحه أرضا بعـد أن أشبعه لكما وضربا • وحـــدث أثناء الصراع بين الملكين المغولين أن قام الشيخ حسن بزرگ فجأة وقتل بسيفه الأمير على پادشاه قائد جيوش موسى خان ، فخشى الأخير على نفسه ، وفر من أرض المعركة • وكان هروبه السبب الذى من أجله قرر أمراء المغول هزيمته وتنحيته عن الحكم ، ففر الى بغداد • وانتهت بذلك دولته وعصره بعد أن حكم شهرين اثنين(٥) •

محمـــد خان (٧٣٦ ـ ٧٣٨ هـ) :

اتفق كل من الأمير شيخ حسن بزرگ ومحمـد خان على دخول تبريز بعد مقتل الأمير على پادشاه وهروب موسى خان الى بغـــداد • وفى الرابع

---

(٤) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 637-638.

(٥) شرف خان البدليسى : شرف نامه ، المجلد الثانى ، الترجمـــة العربية ، ص ٣٥ •

والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٣٦ هجرية جلس محمد خان على العــرش الايلخانى ٠

وكان أول عمل أقدم عليه الايلخان الجديد أن سمح للأمير شيخ حسن بزرگ أن يتزوج من دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ، لاسترداد حقه واستعادة كرامته بعد أن لحقه الضرر نتيجة اغتصاب أبى سعيد زوجتــه بغـداد خاتون ٠ ثم عينــه الايلخان الجـديد محمد خان أميرا للأمراء ونائبا للملك ، فقبض الأمير شيخ حسن بزرگ على زمام الأمور بيــد من حديد ، حتى أن محمد خان لم يكن له من الملك شىء ، بـل كان ألعوبة فى يـد نائبه يحركه كيف يشــاء ٠

وبدأ الأمير حسن بزرك يقتص من الأمراء الذين وقفوا ضده فى عهـد أبى سعيد ، بل وآذى كل من كان على صلة ببغداد خاتون ، فعاداه نتيجة لذلك أمراء البيت الايلخانى قاطبة ، ونفر منه كبــار رجــال الدولة لبطشه بهم ،علاوة على أعـدائه القـدماء وكانوا كثيرين ، وعادوا أيضا الايلخــان الجديد محمد خان ، وتوجهوا الى خراسان بعيـدا عن آذربيجان والعاصمة تبريز وسلطانية ليعلنوا فيها الثورة ضد شيخ حسن برزك الايلكانى نائب الملك ٠ واستدعى الثائرون أحـد أمراء المغول من أعقاب چنكيز خان ، ويدعى طغاتيمور ، وكان يقيم بمازندران بعـد تولية محمد خان ، ونصبوه أيلخانا بخراسان ، وصار يدعى له فى الخطبة وينقش اسمه على السكة(٦) ٠ وعلى هـذا النحــو أصبح فى ايران ايلخــانان اثنان ، أحـدهما فى الشرق وهــو طغاتيمور والآخر فى الغرب وهو محمد خان ٠

وطمع شيخ على قوشجى ، أحـد زعماء الحركة المناوئة لحكم محمد خان ونائبه الأمير شيخ حسن بزرگ فى منصب امرة الأمراء ، وجمع جيشا أرسله برفقة طغاتيمور للاطاحة بمحمد خان وشيخ حسن بزرگ المقيمان فى آذربيجان، وبقى فى خراسان كنائب الملك ٠ وعند وصول طغاتيمور الى حدود آذربيجان انضم اليه موسى خان ـ الايلخان السابق وكان يقيم فى بغداد ـ وتعاهدا على أنه فى حالة انتصارهما فانهما يقسمان المملكة بينهما ، على أن تكون

---

(٦) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 638.

خراسان والمناطق الشرقية من الدولة الايلخانية من نصيب طغاتيمور ، أما محمد خان فانه يختص بحكم المناطق الغربية . وبعد أن درس خطة المعركة وطريقة القتال تابعا مسيرهما فى آذربيجان نفسها حتى التقيا بجيشى محمد خان وشيخ حسن بزرگ فى الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٣٧ هجرية (يونيو عام ١٣٣٧ م) قرب مدينة مراغة .

وعلى هذا النحو تقابل المطالبون الثلاثة بالعرش الايلخانى فى أرض معركة واحدة ، حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين . وانهزم طغاتيمور هزيمة منكرة وتبدد شمل جيشه وفر من ميدان القتال تاركا حليفة موسى خان لمصير محتوم ، وهزم موسى خان بدوره ولكنه لم يتمكن من الفرار ووقع أسيرا فى يد أعدائه وهو يحاول الفرار ، فقتله شيخ حسن بزرگ بيده فى العاشر من ذى الحجة من العام نفسه (شهر يوليو سنة ١٣٣٧م) .(٧) .وفى اليوم نفسه الذى هزم فيه طغاتيمور ، قام أحد الأمراء ويدعى « أرغون شاه ابن الأمير نوروز » وهو فى خراسان بقتل شيخ على قوشجى . وبذلك قضى فى يوم واحد على عدوين قويين لمحمد خان ، وان كان طغاتيمور قد رحل الى خراسان وأنشأ حكومة هناك .

نهـــاية محمد خـــان :

لم يكد ينعم محمد خان وأمير أمرائه شيخ حسن بزرگ بجنى ثمار انتصارهما ، حتى فوجئا فى الـ ثانى عشر من جمادى الثانى عام ٧٣٨هجرية،أى بعد بضعة أشهر من انتصارهما على كل من طغاتيمور خان وموسى خان بقيام الأمير شيخ حسن كوچك بن تيمور تاش بن چوبان بثورة ضدهما ، وقاد عدة معارك فى بلاد الروم بآسيا الصغرى انتصر فيها على جيوش الايلخان واستعد لدخول آذربيجان والاستيلاء على الحكم . وفى ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٣٨ هجرية تقابل شيخ حسن كوچك مع جيوش محمد خان والتى كان يقودها أمير أمرائه شيخ حسن بزرگ فى « آلا تاغ » من نواحى نخجوان ببلاد القوقاز . واستمر فترة لم ينته فيها الى نصر حقيقى لأحد الأطراف المتنازعة ، ولكن رجحت كفة شيخ حسن كوچك بسبب ضيافة أحد قادة جيش

---

(٧) Howorth : History of the Mongols, Vol. III, P. 649
وأيضا : حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢ .

شيخ حسن بزرگ ، ويدعى الأمير پير حسين ، وهو ابن عم شيخ حسن كوچك ، فانهزم جيش الايلخان ، وفر شيخ حسن بزرگ من ميدان القتال . أما محمد خان فانه ظل يحارب بشجاعة حتى وقع أسيرا فى يد شيخ حسن كوچك الذى قتله فى الحال . وأسس شيخ حسن كوچك حكومة فى تبريز واتخذها عاصمة له . ولم تمض مدة حتى أصبحت الأسرة الچوبانية تتحكم فى العراق وآذربيجان بعد أن فقد محمد خان عرشه وحياته فى آن واحد .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطمع فى ضم بلاد الدولة الايلخانية الى دولته :

وكانت أنباء اضطراب الأحوال الداخلية التى أعقبت موت السلطان أبى سعيد ، سببا فى طمع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ضم ايران والعراق — أو بمعنى أدق ممتلكات الدولة الايلخانية — الى دولته . وعندما قدمت اليه بعثات من شيخ حسن بزرگ ومحمد خان فى أوائل عام ٧٣٨ هجرية (١٣٣٧ م) تطلب مساعدته ، فأرسل السلطان المملوكى بعض قواته الى حدود الدولة المغولية(٨) . ووقفت هذه القوات تنتظر ما تتمخض عنه المعارك الدائرة بين الأطراف المتنازعة . وقد أقلقت انتصارات شيخ حسن كوچك السلطان الملك الناصر محمد ، ذلك أن والده تيمورتاش بن چوبان ، والذى كان حاكما على آسيا الصغرى فى عهد أبى سعيد وفر لاجئا الى مصر وقتل بأمر الناصر محمد سنة ٧٢٨ هجرية ، خوفا من أن يطالب شيخ حسن كوچك بدم والده مما يسبب للسلطان المملوكى مشاكل عديدة . وكان الناصر محمد يخشى من ازدياد قوة شيخ حسن كوچك ومن اتصالاته بأمراء مصر . وكان من بين الادعاءات التى أطلقها شيخ حسن كوچك احضاره رجلا تركيا يدعى « قراچار » ، وزعم أنه والده وادعى أنه هرب من سجون القاهرة ، وأنه ظل مشردا عدة سنين فى دول بعيدة(٩) . ولما وصلت أنباء ثورة شيخ حسن كوچك مسامع الناصر محمد ، وظهور والده تيمور تاش خشى أن يكون الرجال الذين عهد اليهم بقتله قد خدعوه ، وأنه اذا استعاد مركزه لا بد وأن يشكل خطرا كبيرا وعدوا لدودا له . واستمر

---

(٨) محمد جمال الدين سرور (دكتور) : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٩) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 641.

السلطان المملوكى يتحرى الحقيقة حتى علم بكذب الادعاءات ، فاستراح لذلك وترك الساحة الايرانية بما فيها من متاعب ومشاكل ومن فيهـا من شخصيات متهورة متنافرة ٠

طغاتيمور خـان (٧٣٧ ـ ٧٥٤هـ) :

لم يكن طغاتيمور خان من سلالة جنكيز خـان ، بل هو من الرعيل السادس لسلالة أخ من أخوة جنكيز خـان ٠ كان جده « بابا بهادر » قد قدم الى خراسـان عام٧٠٥ هجرية على رأس تومانه ودخل فى خدمة السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، وأغار على خوارزم عام ٧١٥ هجرية (١٣١٥ م) فشكا أوزبك خان ، ملك دولة دشت القپچاق بابا بهـادر الى السلطان محمد خدابنده أولجايتو فعاقبه على ذلك بأن قتله هو وابنه شرى والد طغاتيمور ٠ أما قبيلة بابا بهادر فانها ظلت فى مازندران ، وكان هـذا الاقليم يضم فى ذلك الوقت جرجان والجزء الشرقى من طبرستان(١٠) ٠

وبعـد أن استولى شـيخ حسن بزرگ على آذربيجـان واستبد بالسلطة ، اتفق جماعة من أمراء السلطـان أبى سعيد على اقامة حكومة بخراسان ٠ وكان من بـين رؤساء الحركة الأمير پير حسين حفيد چوبان ، وأرغون شاه بن نوروز ، وعبد الله بن أمير مولاى وعلى جعفـر وساعدهم الأمير شيخ على بن على قوشجى ، وقرروا تنصيب الأمير طغاتيمور الـرشى المغولى ، ونادوا به ايلخانا عام ٧٣٧ هجرية (١٣٣٧م) ٠ وبذلك أصبح فى ايران ايلخانان ، أحدهما فى شرق البلاد والثانى فى غربيها ٠

وكما سبق أن ذكرنا سار طغاتيمور خان على رأس الجيش الناصر له صحبة أمرائه وانضم اليه موسى خان المطالب الآخر بالعرش ، يظاهـره الأويرات لقتال محمد خان ٠ واتفق كل من طغاتيمور وموسى على اقتسام ايران والعراق بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرگ أمير أمراء محمد خان أوقع بهما الهزيمة فى الثالث من ذى الحجة عام ٧٣٧ هجرية عند نهر « گرم رود »

---

(١٠) حمد الله المستوفى القزوينى : نزهت القلوب ، ص ٢٥٩ ٠

الى الغرب من ميانه فانسحب طغاتيمور الى بسطام حيث حكم مازندران وخراسان بوصفه خانا ٠

وفى عام ٧٣٩ هجرية دعا شيخ حسن بزرگ طغاتيمور الى العراق ، فذهب اليها صحبة الأمير أرغون شاه بن نوروز وحفيد أرغون آقا أول حاكم مغولى على ايران ٠ وتوجه شيخ حسن بزرگ للقاء طغاتيمور قرب ساوه ٠ كما شرع طغاتيمور فى الاتصال بشيخ حسن كوچك الچوبانى ومفاوضته للانضمام الى حركته ٠ وكادت تتم مصاحة نهائية بين الأطراف المتنازعة لولا أن طغاتيمور خان برم بمن دسائس شيخ حسن بزرگ ، فترك المنطقة كلها وعاد الى خراسان دون نتيجة تذكر ٠

وفى عام ٧٤١ هجرية (١٣٤١م) أغار طغاتيمور خان للمرة الثالثة على العراق تناصره الأميرة ساتى بك ابنة السلطان أولجايتو خان وأخت السلطان أبى سعيد بهادر ، ومعها ابنها « شبرغان » من الأمير چوبان ، فلحقت الهزيمة بجيش طغاتيمور الذى كان علىقيادته أخوه الأمير على گاون٠ وعلى هذا النحو انتصر شيخ حسن كوچك على منافسيه وأصبح سيد الموقف ٠

ظهور السربداريين على مسرح السياسة الايرانية فى خراسان :

لم تسلم خراسان من الفتن والثورات ، ولكن هذه المرة لم يقم بالثورة أحد أمراء المغول أو قادة جيوشهم ، بل كانت ثورة نبعت من الشعب نفسه ، ذلك أن خواجه علاء الدين محمد وزير خراسان زمن طغاتيمور نهج سياسة غاشمة ، وأخذ الناس بالشدة ، واستغل بطانته نفوذهم فى المكاسب ، فأدى كل ذلك الى استيلاء السربداريين على مدينة سبزوار ، واعلانهم الاستقلال عام ٧٣٧ هجرية ٠ وسرعان ما بسط السربداريون سلطانهم على خراسان ، وطردوا منها أرغون شاه صاحب نيسابور وطوس ، وهزم قائدهم وجيه الدين مسعود السربدارى جيوش طغاتيمور عند نهر أترك وقتل أخوه على گاون ، وتمكنوا من توطيد سلطانهم وتأسيس دويلة لهم فى خراسان ٠

ان العداء الذى نشأ بين طغاتيمور والسربداريين ما لبث أن زال بعد

تمكنهم من السلطة واقرار طغاتيمور خان بوجودهم ، وحدث بين الطرفين مصالحة نستشفها من قيام أمراء السربداريين بزيارات الى بلاد طغاتيمور خان مرة كل سنة لتقديم ولائهم • ويذكر المؤرخون أن طغاتيمور خان كان رجلا متواضعا لا يميل الى القتال وسفك الدماء ، واستمر يحكم مدة سبعة عشر عاما فى هدوء وراحة بال الى أن قتله أحد السربداريين فى احدى زياراته للخان • وكانت وفاته فى اليوم السادس عشر من ذى القعدة عام٧٥٤ هجرية (ديسمبر ١٣٥٣م) قبل أن ينتهى الحكم الايلخانى نهائيا فى ايران والعراق بسنتين بوفاة الايلخان أنوشيروان العادل الفجائية •

ويذكر دولتشاه السمرقندى أن طغاتيمور خان كان يشبه السربداريين فى رعايته للفقراء وصلاته بعوام الناس ، وأنه كان يشجع الدهماء ولا يثق فى النبلاء • وكان من عادته أنه يصيف فى « رادكان » ويشتى على نهر جرجان ، وبنى فى مشهد عمارة جميلة • وكان لقبه على السكة « سلطان العالم » • وجاء فى مجمع الفصحاء أن الشاعر ابن يمين الفريومدى كان مداح طغاتيمور خان ، ويذهب بعض الكتاب الى أن الخان نفسه كانت له مشاركة فى الشعر •

ساتى بك (٧٣٩ ـ ٧٤١هـ) :

عندما دخل شيخ حسن كوچك مدينة تبريز منتصرا ، لم يجد أحدا من أمراء الأسرة الايلخانية يليق بأن تسلم اليه مقاليد البلاد ، لكنه وجد الأميرة ساتى ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد بهادر متزعمة البيت الايلخانى ، وانضم الى جانبها بعد أن رفضت الانحياز الى شيخ حسن بزرگ ، وتوجه اليها وصحبها معه الى تبريز • وقد وافق الأمراء الايلخانيون بتحريض من شيخ حسن كوچك على تعيين ساتى بك ايلخانا • وبرر الأمراء ذلك بأن لهذه الاميرة الحق فى العرش ما دام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة ، ومن ثم ارتقت ساتى بك العرش الايلخانى سنة ٧٣٩ هجرية وصار يذكر اسمها فى الخطبة وينقش على السكة ، واختارت لادارة شئون البلاد وزيرين هما ركن الدين شيخى من أسرة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى وغياث الدين محمد من أبناء على شاه • وما لبثت الايلخان الجديد ساتى بك أن سارت بصحبة شيخ حسن كوچك على رأس الجيش الذى التف حولها

الى مدينة سلطانية . ولما سمع بذلك شيخ حسن بزرگ تقدم ليواجه منافسيه ، ثم دارت المفاوضات بينهما وحل الوئام بين المتحاربين محل الخصام ، واعترف شيخ حسن بزرگ بأحقيبة ساتى بك فى عرش المغول(١١) .

وانحصرت مملكة الايلخان ساتى بك فى آذربيجان وأران ، وبدأ شيخ حسن كوچك يتدخل فى أمور الدولة . أما بقية الولايات فكانت تحت حكم أمراء منفصلين عن الدولة الايلخانية الأم مثل سلطانية والعراق العجمى اللتين كانتا تحت حكم شيخ حسن بزرگ،وديار بكر تحت حكمحاجى طغاى، وبغداد والعراق العربى يحكمها أمراء قوم « الأويرات » ، والولايات الرومية (آسيا الصغرى) يحكمها الامير « أريتا » وملك أشرف وهو ابن تيمور تاش ابن الأمير نوروز ، وفارس تحت حكم أمراء آل اينجو ويزد تحكمها أسرة آل المظفر ، وقهستان يحكمها عبد الله بن أمير مولاى ، وهراة وجزء من خراسان يحكمها آل كرت ، وجرجان وجزء من خراسان يحكمها طغاتيمورخان وأيضا السربداريين ، أما كرمان وأصفهان فكان بهما أمراء محليون يتولون حكمها .

وبعد أن استقرت ساتى بك على العرش الايلخانى ، ظهر شبح الحرب بين الأميرين شيخ حسن كوچك وشيخ حسن بزرگ ، وتدخلت الملكة ساتى بك لفض نزاعهما وأصلحت فى كثير من الأحيان ما بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرگ نقض العهد بعد ذلك ، وحرض طغاتيمور خان على محاربة حسن كوچك ، فما كان من الأمير الأخير الا أن رتب جنوده واستعد لملاقاة طغاتيمور خان .

وهدد شيخ حسن كوچك طغاتيمور خان قبل بداية القتال ، وذكر له أوضاع البلاد السيئة وأن شيخ حسن بزرگ هو الذى يحرض على الفتنة ، وهو الذى يجب محاربته . كما أسر اليه أن ساتي بك سوف تتزوجه ويكون لهما العرش الايلخانى وحدهما . فما كان من طغاتيمور خان الا أن بعث

(١١) ميرخواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٥٤٦ـ٥٤٧ .
(١٢) شرف خان البدليسى : شرف نامه : الجزء الثانى ، ص ٣٨ و ٣٩ .

برسالة الى الملكة ساتى بك يخطب ودها ويناشدها الوئام ونبذ الخصام ٠ فكانت تلك الرسالة سببا فى نقض شيخ حسن بزرگ لعهده ، وجاء لخدمة ساتى بك وقبل يدها ، وأخمد الفتنـــة التى كانت قـد أثارها شيخ حسن كوچك ، وفى الوقت نفسه تعبت ساتى بك من دسائسه ، فقربت اليها شيخ حسن بزرگ حتى صار معززا مكرما عنـــدها ٠

نهـــــاية ساتى بك :

وجـد شيخ حسن كوچك الچوبــانى أن غريمـه شيخ حسن بزرگ الجلايرى قـد انتصر عليه ، وأصبح صاحب الكلمة العليا فى المملـكة ،وأنه لا بد أن يعمل شيئا للقضاء على التحالف الموجـه ضده فأعلن عداءه للملـكة ساتى بك ، وصرح بأن منصب الايلخان لا يليق الا للرجال ، وأحضر أحـد أحفاد يشموت بن هولاكو ويدعى « سليمان » ونصبه ايلخانا ولقبه باسم « سليمان خان » ، وأجبر ساتى بك على الزواج منه ٠ ولم يقبل شيخ حسن بزرگ عن هـذا الوضع ، فقام بتنصيب « عز الدين » ابن ألافرنك بنكيخاتو ايلخانا ولقبـه باسم « شاه جهان تيمور خـــان » واختار لمنصب الوزارة شمس الدين زكريا ٠

وبذلك أصبح يحكم ايران ايلخانان هما سليمان خان وشاه جهـان تيمور خان ٠ وواقع الأمر أنهما لم كونا الا واجهة للخلاف بين شيخ حسن كوچك وشيخ حسن بزرگ ٠ وأخيرا التقى الفريقان المتنازعان على الايلخانية فى اليوم الأخـير من شهر ذى الحجـة عام ٧٤٠ هجرية قرب نهر « جغاتو » عند مراغه وانهزم شاه جهان تيمور خان وشيخ حسن بزرگ ، وتوجه الأخير الى بغداد ٠ وبعـد عزل شاه جهان تيمور خان رسميا استقل شيخ بزرگ ببغداد والعراق وأسس الدولة الايلكانية أو الجلايرية ٠

شاه جهــــان تيمـور خان (٧٣٩ ـ ٧٤٠هـ) :

اسمه الأصلى عز الدين بن الأمير ألافرنك بن كيخاتون خان ، وعندما اعتلى العرش الايلخانى تلقب باسم « شاه جهان تيمور خان » ٠ وكان رجلا ضعيفا خاملا ولم يكن الا آله فى يد شيخ حسن بزرگ الجلايرى ، ولم تكن له معرفة بفنون السياسة والحرب وادارة الحكم مما كان سببا فى هزيمته والاطاحة بعرشه واحلال النكبة بحليفه الجلايرى ٠

وقـد أشار شرف خان البدليسى الى أحداث شاه جهان تيمور خان على النحو التالى : « سنة ٧٤٠/١٣٣٩ ـ ٤٠ : فى مطلعها اعتلى العرش فى بغداد جهان تيمور بن أولافرنك ابن كيخاتون خان بفضل مساعى الشيخ حسن بزرگ ، فحدث بينه وبين سليمان خان والشيخ حسن كوچك صدام فى يوم الأربعاء من شهر ذى الحجة من السنة المذكورة فى نواحى تقتوى ؟ من أعمال مراغه ، فلحقته الهزيمة وانتصر الأمير الشيخ حسن كوچك انتصارا باهرا ، وعاد الى تبريز ظافرا فعين من هناك الأمير سيورغان بن چوبان وأخاه الأمير أشرف بن تيمور تاش فى منصب امارة العراق العجمى ، وأرسل ابن عمه الأمير پير حسين بن الأمير الشيخ محمود بن الأمير چوبان الى فارس ليتولى حكومتها · هـذا ولمـا بلغ الأمير الشيخ حسن بزرگ بغداد منهزما من تلك المعركة الساحقة لاحظ عـدم ليـاقة جهان تيمـور للمنصب السامى فعزله »(١٣) ·

هـذا وقـد نصب الشيخ حسن بزرگ الجلايرى شاه جهـان تيمور ايلخانا فى الخامس من ذى الحجة سنة ٧٣٩ هجرية ، وخلعه أيضا فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٤٠ هجرية · وليست له أفعال تذكر تستحق التسجيل ·

سليمـــــان خـــــان (٧٤١ ـ ٧٤٥هـ) :

وبعـد هزيمة شاه تيمـور خـان ، قام الأمـــير شيخ حسن كوچك بتنصيب سليمان خان ايلخانا ، ولم يكن فى واقع الأمر سوى آله فى يده · أما حكمه فكان يشمل أقاليم أران وآذربيجان وكرجستان والعراق العجمى · أما شيخ حسن بزرگ الجـلايرى الذى أصيب بهزائم متتالية من غريمـه حسن كوچك الچوبانى ، وأراد أن يصل لهدفه ولو تحالف مع الشيطـان حتى يتلافى الهزيمة مرة أخرى ، فانه اتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون السلطان المملوكى ليعاونه فى حربه ضد شيخ حسن كوچك · وكان القتال فى بدايته فى صالح الأمير شيخ حسن كوچك · وبعـد هزيمة « حاجى طغاى » أمير ديار بكر ، حمل شيخ حسن كوچك على العراق العربى مقر حكم شيخ

(١٣) عباس اقبال آشتيانى : تاريخ مغول ، ص ٣٥٨ ·

حسن برزگ ، ولكنه هزم على يد قائد شيخ حسن برزگ ، فاضطر للعودة الى تبريز بعـد أن قتل من الأهالى عـددا كبيرا ونهب البلاد التى فى طريقه ٠

ولم يهنأ شيخ حسن كوچك بانتصاره وتوطيد أركان حكمه ، فانه واجه فى عام ٧٤١ هجرية فتنا وثورات وتكتلات سياسية وعسكرية ضده ، من بينها ثورة الأمير سيورغان بن ساتى بك من الأمير چوبان الذى اتحد مع طغاتيمور خان ، وأيضا ثورة الأمير « على گاون » أخ طغاتيمور خان الذى تمكن من الاستيلاء على أبهر وشرع يناوش قوات شيخ حسن كوچك٠كذلك لم يسكت شيخ حسن بزرگ الجـلايرى على عـدوه القــديم شيخ حسن كـوچك ، فاستمر يحرض الأمراء ويشعـل الثورات ويؤلب العامة ضـده فى كل مـكان ٠

مقتـــل شيخ حسن كـوچك :

كـان شيخ حسن كوچك من القـوة بحيث يمـكنه مواجهة أعـدائه مجتمعين ، وكان الجميع يرهبونه لقوته وسطوته ويتمنون القضاء عليه حتى يستريح الناس من بطشــه وقسوته ٠ فحياته لم تنته الا على يـد زوجته التى قتلته بيدها غـدرا ٠

ان قصة مقتـل شيخ حسن كوچك الچوبانى تبين بوضوح سـلوك الأسرة المغولية الخاص ، وانهيار الأخلاق بينهم وعـدم الوفاء بين الزوجين ، ذلك أن « عزت ملك » زوجة شيخ حسن كوچك كانت على علاقة بأحـد قادة زوجها ويدعى الأمير يعقوب شاه ، وكان من أمراء بلاد الروم وتربطه عـلاقة وطيدة بشيخ حسن كوچك الچوبانى ٠ وعندما هزم الأمير يعقوب شاه قائد جيش شيخ حسن كوچك فى الحرب ضد شيخ حسن بزرگ ، سجنه شيخ حسن كوچك عقابا له على تخاذله وخطئــه فظنت « عزت ملك » أن زوجهـا اطلع على أسرارها مع الأمير يعقوب شاه وعرف خيانتها فأودعه السجن ، وحتى تحفظ ماء وجهها ، قامت فى ٢٧ رجب عام ٧٤٤ هجرية بضرب زوجها بخنجر فمات على الفور ٠ وعنـــدما علم أعوان شيخ حسن كوچك ما حـل بزعيمهم وما فعلته زوجته « عزت ملك » وخيانتها لزوجها قتلوها على الفور ، وقطعوها اربا اربا ٠

وبعـد موت شيخ حسن كوچك الچوبانى ، قام سليمان خان بتقسيم

أمـوال شيخ حسن كوچك وممتلكاته على أمرائه · واذا كان سليمان خـان العوبة فى يـد شيخ حسن كوچك اثناء حياته فانه بعـد وفاته أصبح آلـة فى يـد ثلاثة من الأمراء الچوبانيين ، وهم سيورغان وياغى باستى أبنـاء الأمير چوبان ، وملك أشرف حفيد چوبان · وقـد استمروا يحكمون ما تحت أيديهم من مناطق فترة الى أن نشب بينهم الخلاف والقتال · وكان ملك أشرف فى جانب ، وسيورغان وياغى باستى وسليمان خان فى الجانب الآخر ، وقامت الحرب بين الطرفين المتنازعين كان النصر فيها حليف ملك أشرف ، وأطاح بهم جميعا وأحضر شخصا يدعى « أنو شيروان » غير معلوم الأصـل والنسب ، وأجلسه على العرش الايلخانى وتلقب بالعادل · وعلى هذا النحو انتهى عهـد سليمان خـان ·

أنو شيروان العــادل (٧٤٤ ـ ٧٥٦هـ) :

يعد أنو شيروان العادل آخر من حكم من الأسرة الايلخانية ، وقد نصبه ملك أشرف الچوبانى ايلخانا فى ٢٤ المحرم سنة ٧٤٤ هجرية بعـد انتصاره على أعـدائه المثلين فى سليمان خان الايلخان المغولى وقائديـه سيورغان وياغى باستى · وكان أنوا شيروان رجلا مغمورا غير معروف حتى لأمراء البيت الايلخانى الحاكم ، ولم يطمع فى منصب ولا نفوذ بعـد أن وجـد الأمور تسير من سيء الى أسوأ وآثر السلامة · وعندما فطن ملك أشرف الى أحوال أنوشيروان وأوضاعه وجـد ضالته فى شخصه ، وبخاصة أن أنوشيروان كـان يقضى طوال يومه فى الشراب والطرب مع الغانيات ، كما كان يتعاطى المواد المخدرة ، فنصبه ملك أشرف ايلخانا ، واستحوذ هـو على رئاسة الحـكومة وادارة شئونها ، وكان ينجز باسمه أعمال الدولة كلها ·

أما عن قائدى سليمان خان ، فان سيورغان قد التجأ الى شيخ أويس ابن شيخ حسن الجلايرى الذى استضافه فترة ، ثم قتله بعـد ذلك ، كمـا التجأ ياغى باستى الى ملك أشرف لكنه قتله أيضا وبذلك تخلص من أخطر منافسيه ·

واستمر حكم أنو شيروان العادل حتى توفى فجأة فى الرابع والعشرين من رجب عام ٧٥٦هـ وتذكر بعض المصادر التاريخية أن ملك أشرف شك فى

اخلاصه له فأمر باعـدامه ٠ واستمر ملك أشرف يحكم ما تبقى من ولايات بعـد وفاة أنو شيروان مدة ثلاث سنوات الى أن قتـــل فى ١٧ صفر ٧٥٩ هـ بأمر « جانى بيك » ملك دشت القپچاق الذى حرض أهل تبريز على القيام ضد ملك أشرف والاطـاحة به ووجـد أهالى تبريز الفـرصة سانحة لأخـذ ثأرهم من ملك أشرف الچوبانى الذى مكث خمسة عشر عاما يظلمهم ويسومهم سوء العذاب ، فحملوا عليه الى أن قتل آخر الأمر ٠

وقبل سنتين من وفاة أنو شيروان العادل ، كان طغاتيمور خان ايلخان المناطق الشرقية من الدولة الايلخانية قـد توفى سنة ٧٥٤ هجرية ، بعـد أن حكم سبعة عشر عاما ٠ وعلى ذلك تعتبر سنة ٧٥٦ هجرية ـ وهى السنة التى توفى فيها أنو شيروان العـادل ـ السنة التى انقرضت فيهـا الاسرة الايلخانية التى حكمت ايران قرابة قرن من الزمان ٠

أولا : المراجـــع الفـــارسية

(أ) الـكتب :

ابن بيبى : ناصر الملة والدين يحيى بن محمد بن على الجعفرى الرغدى المعروف بابن بيبى المنجمة ٠

١ ـ الأوامر العـــلائية فى الأمور العـــلائية ، تحقيق م٠ هـ٠ هوتسما ، ليـــدن ١٩٠٢ م ٠

ابن شهاب : حسن بن شهاب الدين حسين بن تاج الدين اليزدى ،

٢ ـ جامع التواريخ حسينى ، نسخة مخطوطة بمكتبة السلطان الفـاتح باستانبول رقم ٤٣٠٧ مدونة سنة ٨٥٩ هجرية ، وأخرى بالمكتبة الوطنية الايرانيـــة (كتابخانـــه ملى ايران) رقم ١٣٣٠ مدونة سنة ٨٨٠ هجرية ٠

اقبـــال ، عباس ـــــــــ آشتيانى :

٣ ـ تاريخ مفصـــل ايـــران ، جلد أول : ازجمله چنكيز تا تشكيل دولد، تيمورى ، طهران ١٣١٢ هـ٠ش٠

البناكتى : فخر الدين أبو سليمان داود بن تاج الدين أبو الفضل ،

٤ ـ روضة أولى الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب ، المعروف باسم « تاريخ بناكتى » تحقيق جعفر شعار ، نشر « انجمن آثار ملى » ، طهران ١٣٤٨ هـ٠ش٠

البيضاوى : القاضى أبو الخيـر ناصر الدين عبـد اللـه بن عمـر البيضاوى الشيرازى ،

٥ ـ نظام التواريخ ، تحقيق بهمن كريمى ، طهران ١٣١٣ هـ٠ش٠

حـافظ ابرو : شهاب الدين عبد الله بن لطف الله ،

٦ ـ زبدة التواريخ بايسنقرى ، وهو المجلد الرابع من كتاب حافظ ابرو « مجمع التواريخ سلطانى » المعروف بزبدة التواريخ ، تحقيق دكتور

خانبابا بيانى ، طهران ١٣١٧ هـ.ش.

حمد الله المستوفى : أبو بكر بن أحمد بن نصر القزوينى (تـ ٧٥٠هـ) ،

٧ – تاريخ گزيده ، تحقيق عبد الحسين نوائى ، نشر مكتبة أمير كبير ، طهران ١٣٣٩ هـ.ش.

٨ – نزهة القلوب ، تحقيق محمـد دبـير سياقى ، نشر مكتبة طهورى ، طهران ١٣٣٧ هـ.ش.

الجوينى : عطا ملك بن بهـاء الدين (تـ ٦٨١ هـ) ،

٩ – تاريخ جهانگشا ، تحقيق محمد رمضانى ، طهران ١٣٣٨ هـ.ش.

خواندمير : غياث الدين بن همـام الدين ،

١٠ – حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، الجزء الثالث ، نشر مكتبة الخيام ، طهران ١٣٣٤ هـ.ش.

١١ – دسـتور الوزراء ، تحقيـق سـعيد نفيسى ، نشر مكتبة اقبـال ، طهـران ١٣١٧ هـ.ش.

رشيد الدين فضل الله الهمـدانى : فضـل اللـه بن عمـاد الدولة (تـ ٧١٨ هـ) ،

١٢ – تاريخ فرهنگ از جامع التواريخ ، تحقيق محمد دبير سياقى ، نشر مكتبة فروغى ، طهـران سنة ١٣٣٠ هـ.ش.

١٣ – تاريخ مبـارك غـازانى (داستان غـازان خان) ، نشر كارل يان Karl Jahn ، هرتفورد انجلترا ، سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٤٠ م .

١٤ – تاريخ اجتماعى دورهء مغول از جامع التواريخ ، تحقيق أمير حسين جهانبگلو ، نشر مكتبة تاييد ، أصفهان سنة ١٣٣٦ هـ . ش .

١٥ – جامع التواريخ ، تحقيق بهمن كريمى ، نشر مكتبة اقبال ، طهـران سنة ١٣٣٨ هـ.ش.

١٦ – جامع التواريخ ، جلد دوم : در تاريخ پادشاهان مغول از أوكتـاى قا آن تا تيمور قا آن ، نشر بلوشـيه Blochet ، ليـدن سـنة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م .

١٧ ـ جامع التواريخ ، (تاريخ مغول در ايران) ، نشر كاترمير ، پاريس سنة ١٨٣٧ م ٠

ستوده : حسين قلى (دكتر) ،

١٨ ـ تاريخ آل مظفر ، جزءان ، نشر جامعة طهران رقم ١١٤٥ ، طهران ١٣٤٦ هـ٠ش٠

سعدى الشيرازى : أبو عبد الله مشرف الدين بن مصلح الدين (ت ٦٩٤ هـ) ،

١٩ ـ كليات شيخ سعدى شيرازى ، تحقيق محمد على فروغى ، نشر مكتبة محمد على علمى ، طهران ، بدون تاريخ ٠

قزوينى : محمد بن عبد الوهاب ٠

٢٠ ـ ياد داشتهاى قزوينى ، جلد ششم ، تحقيق ايرج افشار ، نشر جامعة طهران رقم ٧٤٢ ، طهران سنة ١٣٤١ هـ٠ش٠

شاملوئى : حبيب الله ،

٢١ ـ تاريخ ايران : از ماد تا پهلوى ، نشر بنگاه مطبوعاتى صفيعليشاه ، طهران ١٣٤٧ هـ٠ش٠

صديق ، عيسى :

٢٢ ـ تاريخ فرهنگ ايران ، نشر جامعة طهران رقم ٥٦٧ ، الطبعة الرابعة ، طهران سنة ١٣٤٧ هـ٠ش٠

صفا : ذبيح الله (دكتر) ،

٢٣ ـ تاريخ ادبيات در ايران ، المجلد الثالث ، القسم الأول ، نشر مكتبة ابن سينا ، طهران سنة ١٣٤١ هـ٠ش٠

كرمانى : ناصر الدين منشى ،

٢٤ ـ نسائم الأسحار من لطائم الأخبار در تاريخ وزرا ، تحقيق مير جلال الدين حسينى أرموى « محدث » ، نشر جامعة طهران ، طهران سنة ١٣٣٨ هـ٠ش٠

كريم الآقسرائى : محمود بن محمد المعروف بكريم الآقسرائى ،

٢٥ ـ مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، تحقيق عثمان توران ، أنقـرة ، سنة ١٩٤٣ م ٠

لـوى : حبيب (دكتر) ،

٢٦ ـ تاريخ يهـــود ايران ـ المجلد الثالث ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبــة بروخيم طهــران سنة ١٩٦٠م = ١٣٣٩ هـ٠ش٠

مرتضوى : منوچهـر ٠

٢٧ ـ تحقيـــق در بـــاره دوره ايلخانان (ديــن ومذهب ، تصـــوف ، تاريخنويسى ، مقلدين شاهنامه) ، نشر مكتبة طهـران فى تبريز ، ســنة ١٣٤١ هـ٠ش

منهاج سراج : قاضى منهاج الدين أبو عمرو عثمان بن سراج الدين محمـد الجوزجانى (تـ ٦٩٨ هـ) ،

٢٨ ـ طبقات ناصرى ، تحقيق عبد الحى حبيبى القندهارى ، طبع المجلـد الأول فى كابول سنة ١٣٢٨ هـ٠ش٠ = ١٩٤٩م ونشر المجلد الثانى بجامعة البنجاب ، لاهور ١٩٥٣ م ٠

مير خواند : مير محمد بن سيد برهان الدين خواوند شـــاه الشهير بمـير خـــواند ،

٢٩ ـ روضة الصفا ، المجلد الخامس ، نشر مكتبة الخيام بالاشتراك مع مكتبتى مركزى وپيروز ، طهران سنة ١٣٣٩ هـ٠ش٠

نافـــذ أوزلوق : فـريدون ،

٣٠ ـ تاريخ آل سلجوق در آنا طولى ، ويعرف أيضا باسم « **الآثار المولوية فى الأدوار السلجوقية** » غير معروف المؤلف ، نشر النص الفـــارسى وترجمة له بالتركية العالم التركى فريدون نافـــذ أوزلوق أنقـــرة ســنة ١٩٥٢ م ٠

وصـــاف الحضرة : أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى (تـ ٧٣٠ هـ) ،

٣١ ـ تاريخ وصاف المعروف باسم « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » ،

تحقيق محمد مهدى أرباب الأصفهانى ، بومبى سنة ١٢٦٩ هـ = ١٨٥٣ م ٠

(ب) المقـــالات :

آليــارى : حســين (دكتر) ،

٣٢ ـ چنگيز خان مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبريز ، العدد الأول ، السنة العشرون ، رقم مسلسل ٨٥ ، ربيع سنة ١٣٤٧ هـ٠ش٠

اسـترويوا : ل٠ و٠ ،

٣٣ ـ باز پسين خوارزمشاه ، واسماعيليان الموت ، ترجمة كريم كشاورز ، مجلة راهنماى كتاب ، السنة السادسة ٠

اقبـال : عباس ـــــــ آشتيانى ،

٣٤ ـ هولاكو ومستعصم خليفه ، مجلة مهـر ، السنة الأولى ٠

اورى : پيتـــر ،

٣٥ ـ بر رسى عوامل حمله چنگيز خان به ما وراء النهر٠مجلة كلية الآداب جامعة طهـران ، العـدد الأول ، السنة السابعة ٠

بـويل ، جـان انـدرو :

٣٦ ـ مغولان وأوربـا ، ترجمـة على محمـــد عـامرى ، مجـلـة سخن ، السنة العـاشرة ٠

پطـروشفسكى :

٣٧ ـ نهضت سربداران در خراسان ، ترجمة كريم كشاورز ، مجلة فرهنگ ايران زمين ، العـدد العـاشر ٠

حقيقت ، (رفيــع) عبـد الرفيــع :

٣٨ ـ نهضت سربداران ، مجـلة وحيـد ، السنة الثالثة ٠

غــرجستانى ، م :

٣٩ ـ ماموريت هولاكو براى دفع اسماعيليه ، مجلة آريانا ، العدد العاشر ، المجلد السادس عشر ٠

گروسه ، رنيه :
٤٠ ــ ايران وعالم ترك ومغول ، ترجمة عيسى بهنام ، مجلة تمدن ايرانى ، ص ٤٧٠ ــ ٤٧٥ ٠
٤١ ــ مغول در ايران ، ترجمة عيسى بهنام،تمدن ايرانى ، ص ٢٧٦ــ٢٨١ ٠

مير حسين شاه :
٤٢ ــ چنگيز در غور وغرجستان ، مجلة آريانا ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر ٠

نخجوانى ، حاج حسين :
٤٥ ــ فرمانى از فرامين دورة مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبريز ، العدد الأول ، المجلد الخامس ٠

ولاديمير نسيف ، ب :
٤٦ ــ گروه بندى ايلات واختلاف طبقاتى جامعه ايلى مغول در قرون ١١ و ١٢ ميلادى ، ترجمة الدكتورة شيرين بيانى ، مجلة كلية الآداب جامعة طهران ، العدد ٥٠ السنة ١٣ ، طهران سنة ١٣٤٤ هـ ٠ش٠ هادى‌حسن ٠
٤٧ ــ عمليات نظامى مغول ، ضمن مجموعة مقالات فى كتاب بعنوان « مجموعة مقالات » من الصفحة ١٤٧ الى ١٥٨ ٠

ثانيا : المراجع العربية

ابن أبى الفضائل : مفضل (تــ ٦٧٢ هـ) ٠
٤٨ ــ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشر بلوشيه باريس سنة ١٩١١ م ٠

ابن الأثير الجزرى : على بن أحمد بن أبى الكرم (تــ ٦٣٠ هـ) ،
٤٩ ــ الكامل فى التاريخ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٣٤٨ ــ ١٣٥٨ هـ ٠

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (تــ ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) ،
٥٠ ــ رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م ٠

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ،

٥١ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ الجزء السابع ، نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م ٠

٥٢ ــ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ــ الجزء الأول ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ،مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م ٠

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى :

٥٣ ــ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الجزء الثالث ، القاهرة ٠

ابن خلدون : ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (تـ ٨٠٨ هـ) ،

٥٤ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ويعرف بتاريخ ابن خلدون ، القاهرة ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م ٠

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى (تـ ٦٨١ هـ) ،

٥٥ ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ٠

ابن شاكر الكتبى : فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى (تـ ٧٦٤ هـ) ،

٥٦ ــ فوات الوفيات ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥١م ٠

ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا ، المعروف باسم ابن الطقطقى ،

٥٧ ــ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، نشر مكتبة صبيح ، القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م ٠

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى (تـ ٦٨٥ هـ) ،

٥٨ ــ تاريخ مختصر الدول ، طبعة معادة عن الطبعة الأولى ١٨٩٠ بالمطبعة

الكاثوليكية بيروت ، لبنان سنة ١٩٥٨ ، وضع حواشيها الأب أنطوان صالحانى اليسوعى .

ابن عربشاه : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن عربشاه الدمشقى الحنفى العجمى المعروف بابن عربشاه (ت ٨٥٤ هـ) ،

٥٩ ــ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٦ هـ .

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ،

٦٠ ــ تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلا عز الدين ، المطبعة الأمريكانية ، بيروت سنة ١٩٣٨ م .

ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣ هـ) ،

٦١ ــ الحوادث الجامعة فى التجارب النافعة فى المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) ،

٦٢ ــ البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٣٥١ ــ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٢ ــ ١٩٣٩ م .

ابن الوردى : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ) ،

٦٣ ــ تتمة المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة سنة ١٢٥٨ هـ = ١٨٦٨ م .

أبو رابية : عبد الخالق سيد ،

٦٤ ــ الاسلام والتتار ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سلسلة « دراسات فى الاسلام » العدد ٢٢١ ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن شهاب الدين المعروف بأبى شامة المقدسى الدمشقى (٦٦٥ هـ) ،

٦٥ ــ كتاب الذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار الحسينى الدمشقى بعنوان « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ، القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م .

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل على صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ) ،

٦٦ ــ المختصر فى أخبار البشر ، القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ .

أدى شـير ، رئيس أساقفة سعـرد الكلدانى :
٦٧ ـ الألفاظ الفارسية المعربة ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م .
أرنولـد : سـير توماس و.
٦٨ ـ الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ، الطبعة الثانية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

بارتولـد : فلاديمـير (تـ ١٩٢٧ م) ،
٦٩ ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، نقله الى العربية الدكتور أحمـد السعيد سليمان ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

٧٠ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ، نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٥٢ .

باركـر (أرنست) ،
٧١ ـ الحروب الصليبية ، نقله الى العربيـة السيد البـاز العـرينى ، القـاهرة ١٩٦٠ م .
بدرى محمد فهد (دكتور) .
٧٢ ـ تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير (٥٥٢ ـ ٦٥٦ هـ = ١١٥٧ ـ ١٢٥٨ م) مطبعة الرشاد ، بغداد سنة ١٩٧٣ م .

البـدليسى : شرف خـان ،
٧٣ ـ شرفنامه ـ الجزء الثانى ، ترجمه الى العربية محمد على عونى ، نشر دار احياء الكتب العربية « عيسى البابى الحلبى وشركاه » ، القـاهرة سـنة ١٩٦٢ م .

براون : ادوارد جرانفيـل (تـ ١٩٢٦ م) ،
٧٤ ـ تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، ترجمه الى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م .
بروكلمـان (كارل) :
٧٥ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين فارس ومنير

البعلبكى ، الطبعة السابعة ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٧٧ م ٠

حافظ حمدى :

٧٦ ـ الدولة الخوارزمية والمغول ، نشر دار الفكر العربى ، القاهرة سنة ١٩٤٩ م ٠

٧٧ ـ الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، نشر دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٠ م ٠

حسين مؤنس :

٧٨ ـ الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة سنة ١٩٣٨ م ٠

الخربوطلى : على حسنى (دكتور) ،

٧٩ ـ بين المغول واليهود ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سلسلة « دراسات فى الاسلام » ، العدد ١٠٣ ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ٠

٨٠ ـ غروب الخلافة الاسلامية ، نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بدون تاريخ ٠

خصباك : جعفر حسين (دكتور) ،

٨١ ـ العراق فى عهد المغول الايلخانيين ، بغداد سنة ١٩٦٨ م ٠

الدياربكرى : (تـ ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م) ٠

٨٢ ـ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م

الذهبى (الحافظ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى التركمانى الدمشقى الفاروقى الشافعى (تـ ٧٤٨ هـ) ٠

٨٣ ـ دول الاسلام ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٣٧ هـ ٠

٨٤ ـ العبر فى خبر من غبر ـ الجزء الخامس ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، نشر وزارة الارشاد والأنباء فى دولة الكويت ، سلسلة التراث

العربى رقم ١٥ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت سنة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م ٠

الرافعى : عبد الرحمن الرافعى بالاشتراك مع سعيد عبد الفتاح عاشور ،

٨٥ ـ مصر فى العصور الوسطى ـ من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، الطبعة الأولى نشر دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م ٠

رشيد الدين فضل الله : فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة (ت٧١٨هـ) ،

٨٦ ـ جامع التواريخ ، تاريخ المغول ، المجلد الأول : تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير ، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد ، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد محمد القصاص ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ٠

رنسيمان ، ستيفن :

٩٠ ـ تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الثالث ، ترجمة الدكتور السيد عرينى الباز ، بيروت ١٩٦٩م ٠

زيتر ستين :

٩١ ـ تاريخ سلاطين المماليك ـ مجهول المؤلف ، تحقيق زيتر ستين ، ليدن سنة ١٩١٩م ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٩٢ـ الحركة الصليبية ، صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٦٣م ٠

٩٣ ـ تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة سنة ١٩٧٢م ٠

٩٤ ـ الظاهر بيبرس ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ١٤ ٠

٩٥ ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، نشر مكتبة النضة المصرية ، القاهرة ٠

السيوطى : جــلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بــكر بن محمــد (تــ ٩١١ هـ) ٠
٩٦ ـ تاريخ الخلفــاء أمــراء المؤمنين القــائمين بأمر الله ، القاهرة سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢ م ، أعيــد طبعــه بتحقيق محمــد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م ٠

السرنجــاوى : عبـد الفتــاح ،
٩٧ ـ النزعات الاســتقلالية فى الخــلافة العباسية ، الطبعــة الرابعــة ، القــاهرة ١٩٤٥ م ٠

سرور : محمــد جمــال الدين (دكتور) ،
٩٨ ـ دولة بنى قلاوون فى مصر ، نشر دار الفــكر العــربى ، القــاهرة ســنة ١٩٤٧ م ٠

٩٩ ـ دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة سنة ١٩٦٠م٠

الشــواربى : ابراهيم أمين (دكتور) ،
١٠٠ ـ مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى ، مقــال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة فـؤاد الأول المجــلد الســابع ، يوليــو ١٩٤٤ ، ص ٨٩ ـ ١٢٤ ٠

الشــــوكانى :
١٠١ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن الســابع ـ جزءان ، القــاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ٠

عبــاس العــزاوى (المحامى) ،
١٠٢ ـ تاريخ العراق بين احتلالين ـ الجزء الأول (حكومة المغول) ، بغــداد ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م ٠

١٠٣ ـ التعريف بالمؤرخين فى عهد المغــول والتركمان ـ الجزء الأول (٦٠١ ـ ٩٤١ هـ = ١٢٠٤ ـ ١٥٣٤م) ، بغداد سنة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م ٠

العـدوى : ابراهيم أحمــد (دكتور) ،
١٠٤ ـ العرب والتتار ، المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٦٣م ٠

العـــرينى : الســيد البـــاز (دكتور) ،
١٠٥ ـ المغول ، بيروت ١٩٦٧ م ٠

على ابراهيم حسن (دكتور) ،
١٠٦ ـ تاريخ المماليك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعــة الثالثة ، القاهرة ســنة ١٩٦٧ م ٠

فايـــد حمـاد عاشــور (دكتور) ،
١٠٧ ـ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦ م ٠

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) ،
١٠٨ ـ مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهـمدانى ، القـــاهرة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م ٠

١٠٩ ـ السلطان محمود غازان خان المغولى واعتناقه الاسلام ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٣٩٩ = ١٩٧٩م ٠
١١٠ ـ المغــول فى التاريخ ، القــاهرة ســنة ١٩٧٥ م ٠

القــزوينى : زكريا بن محمـد بن محمــود ،
١١١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٩ م ٠

القلقشـــندى : أبو العباس أحمـد (تـ ٨٢١ هـ) ،
١١٢ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا ، الجـــزء الثامن ، القـــاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م ٠

كـــرد على ، محمـــد :
١١٣ ـ الاسلام والحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٦٨م ٠

١١٤ ـ خطط الشـــام ، الجـــزء الثـانى ، الطبعــة الثـانية ، بيروت ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م ٠

الـــكازرونى ٠
١١٥ ـ مقامة فى قواعد بغداد فى الدولة العباسية نشر كوركيس عواد وميخائيل عــواد ، بغـداد ســنة ١٩٦٢ م ٠

كاهـــن ، كلود :

١١٦ ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ـ المجلد الأول ، نقله الى العربيـة الدكتور بدر الدين القاسم الأستاذ فى جامعة دمشق ، نشر دار الحقيقة للطباعة والنشر فى بيروت ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٧٢ م ٠

كريمــــر (فـون) :

١١٧ ـ الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، ترجمة الدكتور طه بدر ، نشر دار الكتاب العـــربى للطبـاعة والنشر ، القـــاهرة سـنة ١٩٦٧ م ٠

كوپريلى ، محمد فؤاد :

١١٨ ـ قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م ٠

لام ، هـــارولـد :

١١٩ ـ چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمه الى العربية مترى أمين ، نشـر مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعـة والنشـــر ، القـاهرة سـنة ١٩٦٢ م ٠

لســـــترانج ، ج Le Strange :

١٢٠ ـ بغداد فى عهـد الخـلافة العباسية ، نقله الى العربية بشير يوسف فرنسيس ، الطبعة الأولى بغـداد سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م ٠

لين بول ستانلى Stanly Lane - Poole :

١٢١ ـ تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، الجزء الثانى ، نقله عن التركية الدكتور أحمـد السـعيد سليمان ، دار المعـــارف ، القـاهرة سـنة ١٩٧٢ ٠

١٢٢ ـ بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغـداد ١٩٥٤ م ٠

محمـد حســين المظفـرى ، الشيخ :

١٢٣ ـ تاريخ الشيعة ، نشر مكتبة بصيرتى ، قم ، ايران ، سنة ١٣٦١ هـ ٠

مزاوى ، ميشـــيل :

١٢٤ ـ تاريخ ايران بين المغول والصفويين ، مقال منشور بمجلة كلية الآداب

جامعة طهران ، العدد ٧١ ، السنة ١٧ ، طهران سنة ١٣٤٨ هـ٠ش٠ ،
ص ٨٨ ـ ٩٤ ٠

مصطفى طه بدر (دكتور) :

١٢٥ ـ محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول ، الجيزة سنة ١٩٤٦ م ٠

١٢٦ ـ مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م ٠

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (تـ ٨٤٥) ،

١٢٧ ـ الخطط المقريزية المسماه بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت سنة ١٩٥٩ م ٠

١٢٨ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ م ٠

النرشخى : أبو بكر محمد بن جعفر (تـ ٣٤٨ هـ) ،

١٢٩ ـ تاريخ بخارى ، عربه عن الفارسية الدكتور أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازى الطبعة الثانية ، نشر دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٧ م

النسوى : نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى ،

١٣٠ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ م ٠

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (تـ ٦٢٦) ،

١٣١ ـ معجم البلدان ، نشر وستيفلد ، ليبزج ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ م ٠

اليوسف ، عبد القادر أحمد (دكتور) ،

١٣٢ ـ علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ، نشر المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت لبنان ، سنة ١٩٦٩ م ٠

١٣٣ ـ كتاب الحوادث الجامعة وهو مجهول المؤلف،حوادث سنة ٦٥٦ هجرية٠

١٣٤ ـ كتاب مختصر أخبار الخلفاء وهو مجهول المؤلف وينسب خطأ لابن الساعى ، بولاق ١٣٠٩ هـ ٠

ثالثا : المراجع الأوروبيـــة

Atiya, A.S.;
135 — The Crusade in the Middle Ages, London, 1939.

Barthold;
136 — Turkestan down to the Mongol Invasion, London, 1928.

Blochet, E.;
137 — Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rachid Ed Din, Lyden, 1910.

Boulger, D. C.;
138 — The Mongols and the Court of Kublai Khan, Universal History of the World Vol. V, PP. 2847 - 2860.

Budge, E. A. W.;
139 — The Monks of Kublai Khan, Emperor of China, London, 1928.

Cahen, G.;
140 — "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin III, Orient Latin et Commerce du Levant", dans le Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg, 9e Année, No. 8, 1951.

Cahun, L.;
141 — Introduction à l'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols des origines à 1405. Paris, 1896.

Chabut;
142 — "Relation du Roi Argoun avec l'Occident", dans la Revue de l'Orient Latin, Vol. II, P. 571.

Curtin, J.;
143 — The Mongols' History. Boston, 1908.

D'Ohsson, M. Le Baron;
144 — Histoire des Mongols depuis Tchingiz-Khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Amesterdam, 1834 - 5.

Douglas;
145 — The Life of Jenghiz Khan; Translated from Chinese, London, 1877.

Glubb, J.;
146 — The Lost Centuries 1145 - 1453, London, 1937.

Grekov, B. and Iakoubovski, A.;
147 — La Horde d'Or (trans. into French by Thuret), Paris, 1939.

Grenard, F.;
148 — Gengis - Khan, Paris, 1935.

Grousset, R.;
149 — L'empire des Mongols, Paris, 1945.

150 — L'empire des Steppes, Paris, 1948.

Haenisch, E.;
151 — Die Latzen Feldzuge Cingis Han's und sein Tod'in Asia Major, Leipsic, 1932.

Howorth, Sir Henry;
152 — History of the Mongols, London, 1876 - 88.
Lamb, H.;

153 — Genghiz Khan, Emperor of All Meen, London, 1965.

Martin, H.D.;
154 — The Rize of Chingis Khan and his Conquest of North China, Baltimore, 1950.

Pelliot, Paul;
155 — Les Mongols et la Papaute, dans la Revue de l'Orient Chrétien. Vols. XXIII, XXIV XXVIII., Paris, 1922 - 32.

Pelliot (Paul) et Masse (Henri);
156 — Les Mongols et la Papaute (Lettre de Guyuk au pape Innocent IV) facsimile et traduction de la lettre Rev. Orient Chrétien t. III (XXIII) pp. 3 - 30.

Piquet, J.;
157 — Les Bankuiers du Moyen Ages: Les Templiers, Paris, 1939.

Quatremere;
158 — Histoire des Mongols de la Perse, Paris, 1933.
Runicman;
159 — A History of the Crusades, Vol. III, Cambridge, 1959.

Setton, K.m.;
160 — A History of the Crusades (2 vols.), Pennsylvania, 1958.

Strakosch - Grossmann, G.;
161 —Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242, Innsbruck, 1893.

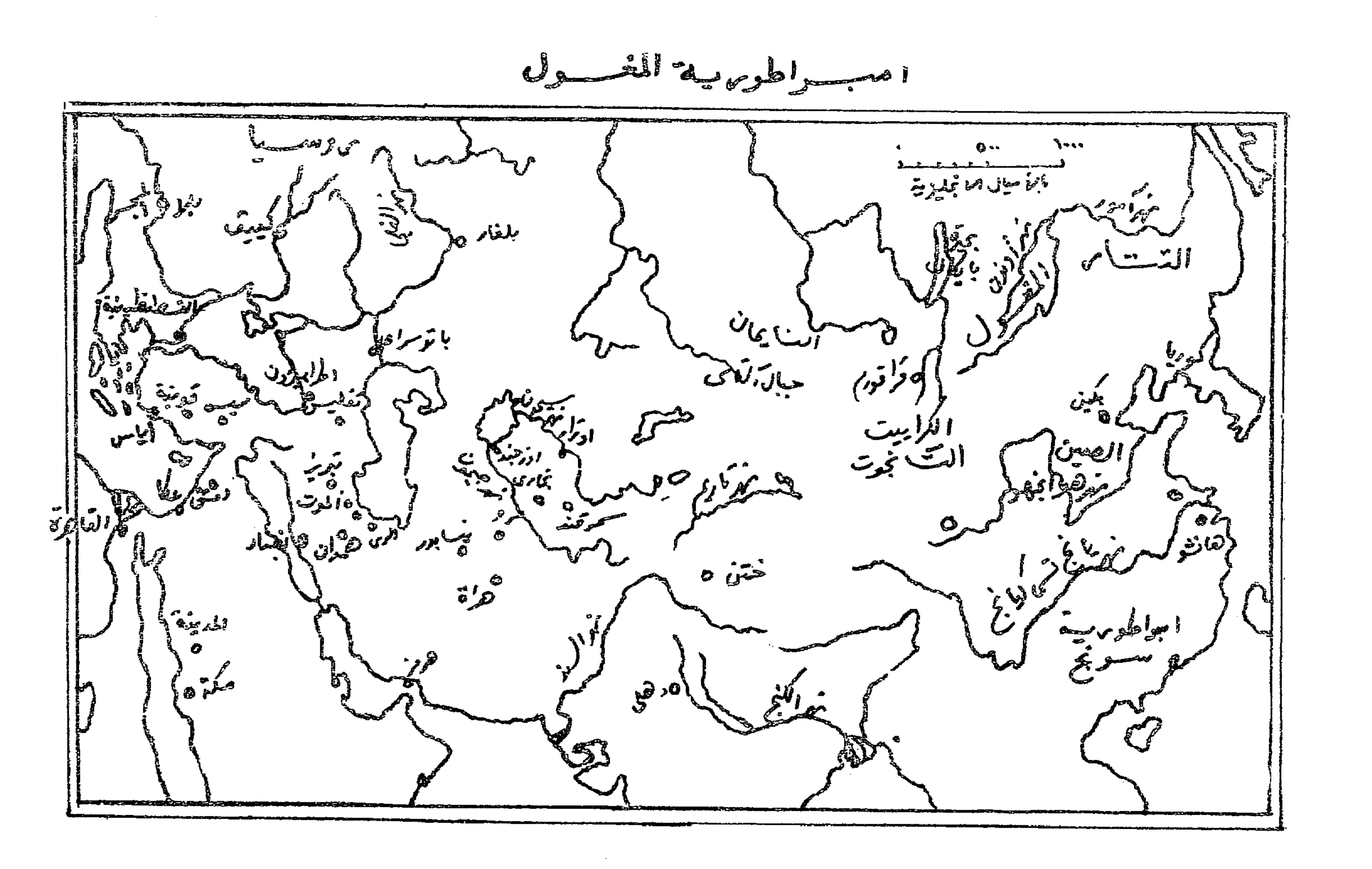
Sykes, Percy;
162 — A History of Persia, London, 1921.

Vambery, A.;
163 — History of Bokhara from the Earliest Period down to the Presnt, London, 1873.

Vladimirstov;
164 — The Life of Ghingis - Khan, London, 1930.

Walker, C. C.;
165 — Jenghiz - Khan, London, 1939.

امبراطورية المغول



المحتويات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحـة

وردت بعض أخطاء وهذا صوابها

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٧	١١	عد	عند
٢٢	١٧	ألوال	ألواح
٢٥	١١	مسنيره	مستنيرة
٣١	٢٠	حلف	خف
٣٦	١٣	وينال	ويناول
٣٨	١٠	وشروع	وشرع
٤٧	٩	وتعب	وتعقب
٥٧	١٩	استنار	استنفار
٥٨	٣	قدوم	قدم
٦٣	٢	حصولها	حصونها
٦٤	١٣	رأسها	راسلها
٦٩	٥	اسبقله	استقبله
٧٥	٧	النزاع	النزال
٧٦	١٧	ادراك	أدرك
٧٧	١١	وكان	وكاد
٨٠	٤	طلاء	علاء
١١٤	أخير	الدولة	الدابة
١٢٦	١	مؤرخو	مؤرخى
١٤٣	١١	وأرسىل	وأرسل
١٦٤	١٤	وطالب	وطاب
١٧٤	٢٠	مسانتده	مساندته
٢١٢	٢٠	وتمعير	وتعمير
٢١٦	٧	وفقه	وفقهه
٢٢٥	٤	أبا	أبى
٢٢٨	٥	أنه	على أنه
٢٣٧	١٣	اتفقا	اتفقوا
٢٣٠	١٠	أبو	أبا
٢٥٣	١	معوم	مغول
٢٥٦	١٥	هاد	هادى

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨١ / ١٥٦٨

دار نشر الثقافة

٢١ ش كامل صدقى (الفجالة سابقا) القاهرة

تليفون ٩١٦٠٧٦